أميـن معـلوف

مقعد على ضفاف السين

أربعة قرون من تاريخ فرنسا

الفارابي

أمين معلوف
من الأكاديمية الفرنسية

مقعد على ضفاف السين

أربعة قرون من تاريخ فرنسا

ترجمة: نهلة بيضون

دار الفارابي

مقعد على ضفاف السين

AMIN MAALOUF

de l'Académie française

UN FAUTEUIL SUR LA SEINE

Quatre siècles d'histoire de France

BERNARD GRASSET

PARIS

الكتاب: مقعد على ضفاف السين
المؤلف: أمين معلوف
الترجمة: نهلة بيضون
لوحة الغلاف: Jean Dufy, Paris, *la Seine et Notre-Dame*

الناشر: دار الفارابي - بيروت - لبنان
ت: ٣٠١٤٦١(٠١) - فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)
ص.ب: ١١/٣١٨١ - الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: كانون الثاني ٢٠١٧
ISBN:978-614-432-598-8

© جميع الحقوق محفوظة

تباع النسخة الكترونياً عبر موقع الدار.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الدار.

إلى داليا، وريثة أربع حضارات

توطئة

أبصر هذا الكتاب الصغير النور انطلاقاً من شعور بالندم.

في شهر حزيران من عام ٢٠١١، حظيتُ بشرف مزدوج أن أُنتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية، وأن أشغل مقعد رجل أكنُّ له إعجاباً حقيقياً منذ سنواتي الجامعية وهو كلود ليفي-ستروس.

ووفقاً لطقوس المؤسسة، يُفترض بالعضو الجديد أن يمدح سلفه. كنت مبتهجاً بالفرصة التي أتيحت لي على هذا النحو لقراءة أعمال هذا الأنتروبولوجي العظيم - أو إعادة قراءة بعضها مجدداً، والغوص في حياته التي كنت لا أعرفها حقَّ المعرفة. وكانت المهمة شيقة، لا سيما بفضل مونيك ليفي- ستروس، أرملة البروفسور، التي وجهت لي ولزوجتي دعوةً لزيارتها في بيتها ببلدة لينيورول في منطقة بورغونيا، وفتحت لي بسخاء جوارير زوجها الموقَّر، فضلاً عن جوارير ذاكرتها.

احتفظتُ بذكرى رائعة عن تلك الشهور الإثني عشر التي كانت

تفصل بين انتخابي وحفل استقبالي الرسمي تحت قبة الأكاديمية، ولكنّ شعوراً بالندم خالجني.

فلدى تصفُّح قائمة الأشخاص الذين شغلوا هذا المقعد قبل البروفسور ليفي- ستروس، وهو المقعد التاسع والعشرون من مقاعد الأكاديمية الفرنسية، صادفت شخصاً ساعدني مساعدة قيِّمة أثناء إعدادي لكتابي الأول، وهذا الشخص هو المؤرخ جوزف ميشو. ولقد حالفني الحظ فعثرتُ في مكتبة من مكتبات الحي اللاتيني على نسخة قديمة من كتابه تاريخ الحروب الصليبية صدرت في سبعة مجلدات في أوائل القرن التاسع عشر، واستقيتُ منها معلومات أساسية كان سيتعذَّرُ عليَّ أن أعثر عليها في مرجع آخر. فعاهدتُ نفسي أن أكرِّمه في كلمتي، وهو تكريم يكتسبُ وقعاً مميزاً لا سيما وأن اسمه قد طواه النسيان تماماً في عصرنا الراهن.

غير أنه لم يكن بوسعي أن أحيد عن خطابي للتحدث عن سلف إضافي، في غمرة انهماكي بسعة أعمال سلفي المباشر، ورغبةً مني في تقديم إسهامه العلمي ومساره الفكري ومسيرته الإنسانية على السواء، وحرصاً مني على تكريم ذكرى شخص موقَّر آخر كان يشغل ذلك المقعد، هو إرنست رونان، الذي أقام في قرية بجبل لبنان ليؤلف فيها حياة يسوع، أشهر أعماله وأكثرها إثارة للجدل. واضطررتُ أخيراً إلى العدول عن إضافة الفقرة المقتضبة التي كنت أعتزم تخصيصها للسيد ميشو.

عاهدتُ نفسي أن أصحِّح هذا الإغفال بأسرع ما يمكن، وأكرِّسَ له مقالة أو محاضرة إذا ما سنحت لي الفرصة. فبحثتُ ونقَّبتُ، وكنت أتوقع أن أكتشف الأستاذ الجليل والعلّامة الذي يُستشفُّ من مؤلفاته المستفيضة عن الحروب الصليبية. ولكن ميشو آخر تراءى لي من خلال قراءاتي، شخصاً مثيراً للفتنة، ومغامراً جسوراً سُجن أثناء الثورة الفرنسية بتهمة التحريض على العصيان، واحتجز في مكان كان يعرف في ذلك الحين باسم كوليج الأمم الأربع، قد تحوَّل إلى سجن، وأصبح اليوم مقرَّ ...الأكاديمية الفرنسية. ومن هذا المكان، اقتيد تحت حراسة مشدَّدة إلى قصر التويلري حيث مقرُّ المحكمة الثورية التي كانت تتهيأ لإدانته.

لا أؤمن بالأشباح المنتقمة، ولكني أؤمن، عن طيب خاطر، بأطياف الأدب اللطيفة التي تسكن البيوت القديمة والعقول الحالمة. أعتقد أن طيف ميشو كان حاضراً، تحت قبة الأكاديمية، حينما نهضتُ لإلقاء كلمتي بمناسبة استقبالي فيها، تلك الكلمة التي لم أعتبر من الضروري أن أخصَّه فيها بالذكر. أجل، كان حاضراً ها هنا، على مقربةٍ مني، ولم أره.

فعقدتُ العزم على بذل كل ما في وسعي للرجوع عن خطئي. وغصتُ مجدداً بحماسة في مؤلفات المؤرخ وفي تفاصيل حياته – ولادته، رحلاته، انتخابه عضواً في الأكاديمية، ثم وفاته. ودفعني ذلك

إلى الاهتمام كذلك بخلفه وسلفه، ثم، شيئاً فشيئاً، إلى الاهتمام بجميع الذين شغلوا المقعد نفسه، قبله أو بعده، خلال القرون الأربعة الماضية.

كنت راغباً في التعرف إلى كل تلك الشخصيات التي تربطني بها بُنُوَّةٌ معنوية من الآن فصاعداً ، يحدوني الأمل بأن تتحفني بعضها بانفعالات تضاهي تلك التي نقلها لي ميشو. ولم يخبْ ظني. فمضيتُ من اكتشاف إلى آخر، ومن دهشةٍ إلى أخرى، وسرعان ما قرَّرتُ تكريس هذا العمل، لا لرجلٍ واحد، بل لسلالةٍ بأكملها.

وبدأت بأول سلف من أولئك «الأسلاف»، وأعترف بأنني ما سمعتُ باسمه قط قبل أن آتي وأجلس، لبعض الوقت، على المقعد الذي كان يشغله.

١

ذاك الذي قضى غرقاً وهو يسعى جاهداً لإنقاذ تلميذه

أول من شغل المقعد لم يستقرَّ فيه طويلاً. فلقد انضمَّ إلى الأكاديمية في شهر آذار من عام ١٦٣٤، ثم قضى غرقاً في نهر السين بعد أربعة عشر شهراً، ولذلك تميَّز بميزة مفجعة وهي أنه أول «خالدٍ» يموت.

سقط اسم بيار باردان اليوم في غياهب النسيان، على غرار جميع الأدباء الفرنسيين من أبناء جيله تقريباً. قبله ببضعة عقود، برزت أسماء رونسار أو دو بيلي أو رابليه أو مونتين الذين ما زلنا نقرأ أعمالهم حتى اليوم؛ وبعده ببضع سنوات، ستظهر أسماء كورناي أو راسين أو موليير أو لافونتين الذين تخلَّدت أعمالهم بدورها. وبين الموجتين الأدبيتين، شهدنا منخسفاً.

أما أعضاء الأكاديمية الأربعون الأوائل، فلم يعد أيٌّ عمل من أعمالهم منشوراً، وأسماؤهم تطفو بصعوبة في الذاكرة. وفي جميع الأحوال، ليس بينها اسم باردان الذي لا تعرفه، في أيامنا المعاصرة، سوى قلة قليلة من المتخصِّصين في القرن السابع عشر. وكان باردان

في حياته يحظى بنصيب من الشهرة، ولكنه لم يُصنَّف إطلاقاً في عداد الأدباء العظام. ومع أنه كان أول من شغل هذا المقعد، يصعب اعتباره من مؤسِّسي الجمعية.

أما أولئك الذين يستحقون تلك التسمية حقاً فعددهم يكاد لا يتجاوز العشرة، وأوَّلهم فالانتين كونرار الذي كان سليل أسرة كالفينية ثرية، وكاتباً غير فذّ لكنه قارئ مرهف ونحويّ لا مثيل له، خطر بباله، مع بعض الأصدقاء، إنشاء حلقة أدبية تعقد اجتماعات دورية في باريس عام ١٦٢٩. وكان متوسط أعمار أعضائها ثلاثين عاماً، وكونرار نفسه لا يتجاوز السادسة والعشرين، وأصغرهم، وهو جرمان هابير، لم يبلغ التاسعة عشرة بعد، وكان في الحقيقة يأتي لحضور الجلسات بمعيّة شقيقه البكر.

كانوا مسرورين بالغ السرور بالتئام شملهم ويكابدون المشقة لاضطرارهم إلى أن يجوبوا المدينة ليلقوا بعضهم بعضاً، ذلك لأنهم يقطنون في أحياء مختلفة. وفي ذلك الوقت الذي تنعدم فيه بالطبع وسائل التشاور عن بعد، ويتطلب الأمر أن ينتقل المرء من مكان إلى آخر أو أن يرسل مرسالاً، لم يكن الاجتماع سهلاً. أفليس من الأيسر عليهم، كما قالوا، أن يتواعدوا كل أسبوع، في اليوم نفسه والساعة عينها، وفي مكان يحدِّدونه سلفاً؟

اختاروا لعقد اجتماعاتهم منزل كونرار الذي كان أعزب ويقطن

في شارع سان-مارتان، وسط العاصمة، على مسافة متساوية من الجميع. وفي ذلك البيت، كما يروي لنا بول بليسون، مؤلف أول تاريخ للأكاديمية الفرنسية، كانوا يتناقشون دون تكلُّف، مثلما يتجاذبون أطراف الحديث في زيارة عادية، ويتناولون شتى الأمور: الأعمال التجارية، وأخبار الساعة، والأدب، وإلى ما ذلك. «وإذا ما ألَّف أحد أفراد الشلة عملاً، يُطلع عليه زملاءه عن طيب خاطر، ويصارحه هؤلاء برأيهم دون حرج، وتعقب نقاشاتهم نزهة أو وجبة غداء... وما زالت تلك الحقبة الأولى من تاريخ الأكاديمية تُذكر حتى اليوم مثل عصر ذهبي، كانوا يتذوَّقون خلالها معاً، دون ضجيج، ودون كلفة، ودون قواعد أخرى سوى قواعد الصداقة، ألطف وأجمل ما يزخر به مجتمع العقول المستنيرة وما يسير وفق نهج العقل».

وتعاهدوا ألا يطلعوا مخلوقاً على سرِّ محفلهم الصغير، وحافظوا على عهدهم طوال ثلاث أو أربع سنوات. غير أن أحدهم، وهو الشاعر كلود دو مالفيل، أفشى السر- وكان ذلك الإفشاء بمثابة نعمة أو نقمة، وفق الزاوية التي ينظر منها إلى الأمر. فأثناء وجوده برفقة كاتب يدعى نيكولا فاريه، أخبره عن تلك اللقاءات، وكان فاريه هذا عاشقاً للحياة منغمساً في ملذاتها، لا بل بوسعنا القول إنه كان معربداً؛ ولقد نظم عدة كتاب ينتمون إلى قرنه - ومن بينهم نيكولا بوالو - قصائد ورد فيها اسم «فاريه» على قافية «كاباريه»، لكثرة ما عُرف بارتياده تلك الأماكن. فهل التقى الشاعران في ملهى من هذا القبيل؟ وهل كانا ثملين قليلاً؟

لا تذكر قصتهما هذا التفصيل. غير أن عقدة الألسنة انحلت في ذلك اليوم، وأسرَّ مالفيل إلى محاوره بوجود حلقتهم ونقاشاتهم وعاداتهم.

وأعرب فاريه الذي كان قد أصدر مؤلفاً بعنوان \الإنسان \الفاضل عن رغبته في حضور أحد لقاءاتهم لكي يعرضه أمامهم. فاضطر كونرار ورفاقه إلى دعوته. وأصغوا إلى عرضه وأبدوا بعض الملاحظات التي اعتبرها سديدة. ولشدة ابتهاجه بهذه التجربة، لم يتمالك نفسه وأسرَّ بها بدوره إلى أحد أصدقائه، وهو الأباتي بواروبير، الذي أعرب عن رغبته في حضور الملتقى كذلك.

كان هذا الأخير شخصاً جميل العشرة، تُقدِّره الصالونات الباريسية، وعلى ما يبدو، طائل الثروة. وكان معظم «المتآمرين» يعرفونه حقَّ المعرفة ويكنُّون له المودة؛ ولئن تحفظوا حتى ذلك الحين على انضمامه إليهم، فذلك يعزى فقط إلى كونه من المقرَّبين إلى الكاردينال دو ريشوليو، وبدعوته إلى اجتماعاتهم، سيتنبَّه لهم الرجل الذي كان يحكم فرنسا. أما الآن فقد أصبح بواروبير على علم بوجود حلقتهم، ولم يعد بمقدورهم أن يصدُّوه.

وحدث ما كان مقدَّراً له أن يحدث: فلقد سارع الأباتي، وقد راقه مستوى النقاش الذي شهده، يصفُه للكاردينال الذي سأله على الفور، كما يروي لنا بليسون، «إذا كان هؤلاء السادة لا يريدون أن يؤلفوا جمعية ويلتئموا بانتظام، تحت إشراف سلطة عامة. أجابه السيد دو بواروبير إن هذا العرض سيقابل بترحاب في اعتقاده، فأوعز إليه الكاردينال بأن

يقدِّمه، وأن يعرض على أولئك السادة حمايته لجمعيتهم التي ستُؤسَّس بموجب براءة، وأن يهدي كلاً منهم بالأخص مودته التي سيعرب لهم عنها في كل مرة يلتقيهم».

وخلافاً لما كان يتوقعه موفد ريشوليو، لم يفرح كونرار وأصدقاؤه بهذا العرض، وتناوبوا على الكلام للقول إنهم يفضلون مواصلة اجتماعاتهم كما عهدوا من قبل، بين الأصدقاء، بصورة غير رسمية.

وكانوا يتناقشون في الأسلوب الأمثل لرفض العرض دون إثارة امتعاض الرجل الجليل المقام، وإذ بأشهرهم ذكراً، وهو الناقد الأدبي جان شابلان، يتدخل بمهابة ويقول لهم إنهم يخطئون التقدير. وأكَّد لهم إنني أستمتع مثلكم جداً باجتماعاتنا كما هي، ولوددتُ أن تُستأنف سراً، وألا يهتمَّ بنا الكاردينال؛ أما وقد أخذت الأمور هذا المنحى، فمن الحصافة عدم التعنُّت لأن الرجل الذي نتعامل معه «ليس رجلاً يروم ما يريده بخفة»، كما أنه ليس من الأشخاص الذين بوسع المرء أن يصدَّهم ويظل بمأمن من العقاب؛ وإذا ما رفضنا عرضه، سيصبُّ علينا جام غضبه حتى نذعن لمشيئته. وذكَّرهم بأن قوانين المملكة تحظِّر أيَّ تجمُّع لا يحظى بموافقة الأمير، وبأن الكاردينال يستطيع بكل بساطة، «لو سوَّلت له نفسه ذلك»، أن يأمر بحظر اجتماعاتهم نهائياً.

وكانت الغلبة في نهاية المطاف لهذا الرأي الواقعي. فتقرَّر، كما يطلعنا بليسون، «أن يُرجى من السيد دو بواروبير التوجُّه بالشكر إلى السيد الكاردينال بمنتهى التواضع على ما يمنحهم إياه من شرف رفيع،

وأن يخبره بأنهم قرروا جميعاً الإذعان لمشيئته، وإن لم تكن هذه الفكرة العظيمة قد خطرت ببالهم قط، وأنهم دهشوا أشدَّ دهشة لما عقد عليه نيافته العزم. وتلقى الكاردينال ردَّهم ببالغ الرضى وأوعز إلى السيد دو بواروبير أن يبلغهم بأن يجتمعوا كما عهدوا، وأن يزيدوا عدد أفراد جمعيتهم حسب ما يرونه مناسباً، وأن يتشاوروا بشأن ما يرتؤون لها من شكل وإطار قانوني فيما بعد». وقد جرى ذلك في مطلع عام ١٦٣٤.

وسيقول فولتير، في القرن التالي، أثناء حفل استقباله في الأكاديمية: «وعلى هذا النحو، تأسَّست هذه الأكاديمية، ومنشؤها يفوق ما منحها إياه الكاردينال دو ريشوليو نبلاً وسمواً، لأنها أبصرت النور من رحم الصداقة. ها هم رجال تُوحِّدهم تلك العروة الجليلة ويعضدهم تذوُّقهم للفنون والآداب يجتمعون غير طامعين بالشهرة؛ ولقد كانوا أقلَّ تألقاً ممن خلفوهم، إنما ليس أقلَّ منهم سعادة».

***

وفي الفترة التي كانت هذه الدائرة المصغَّرة تتحوَّل إلى مؤسسة رسمية، قرَّر فالانتان كونرار الذي قد بلغ الثلاثين أن يتزوَّج. ولم يكتفِ أصدقاؤه الذين دعاهم إلى بيته بهذه المناسبة بالاحتفال بل ناقشوا مطولاً المغامرة التي سيخوضون غمارها. كان عليهم أن يتولوا دون إبطاء المهام التي يفرضها عليهم تأسيس الأكاديمية، أي صياغة نظامها الداخلي، واختيار اسم لها، و«زيادة» المجموعة الأساسية برفع عدد أعضائها إلى أربعين عضواً، والاتفاق على مكانٍ للاجتماع، بما أن

كونرار تخلى عن حياة العزوبية ولم يعد بوسعهم الاجتماع في بيته مثلما عهدوا من قبل.

فشهد الأعضاء فترة طويلة من «الترحال» كانوا يلتقون فيها تارة عند هذا وطوراً عند ذاك؛ وأكثر شخص استضافهم هو الشاعر جان ديماري الذي كان يملك بيتاً رحباً في شارع ملك صقلية، وسط العاصمة، يدعى فندق بيلفي. وفي هذا المكان، بدأت الجمعية تتكوَّن؛ وفيه جرى تعيين أول أمين دائم لها، وهو كونرار بالطبع؛ وفيه دعي بيار بردان، يوم الاثنين ٢٧ آذار ١٦٣٤، للقاء «أولئك السادة من الأكاديمية».

ولد باردان في مدينة رووان حوالى عام ١٥٩٥ في كنف أسرة متواضعة ودرس عند الآباء اليسوعيين، قبل أن «يطلع» إلى باريس ويصبح الأستاذ الخصوصي للمركيز الشاب دوميير. وكان قد أصاب شهرة في الأوساط الأدبية بعد أن أصدر كتاباً بعنوان خوا\طر أخلاقية كان مجرد إعادة صياغة لسفر الجامعة في العهد القديم، ولكن تلك الأعمال كانت تنال الإعجاب في ذلك العصر.

خطر ببال مؤسسي الأكاديمية في مرحلة مبكرة جداً أن ينضمَّ إليهم باردان، بل أسرَّ له بعضهم بمشروعهم. ولكنه استجاب بفتور بل كان موقفه لا يخلو من الجفاء، وهذا سلوك غير معهود يبدر من شخص معروف بأدبه وسمو أخلاقه. ولقد عرفنا سبب هذا الموقف، لأن العديد من مؤرخي تلك الفترة كادوا يجمعون على الرواية نفسها.

كان باردان يعمل منذ سنوات على تأليف كتاب يطمع بأن يتوِّج به أعماله. وكان يسدي فيه نصائح لكل من يرغب في الارتقاء إلى المثل العليا التي كانت سائدة في ذلك العصر، أي المثل العليا التي يدين بها الإنسان المخلص، الشهم، المستنير والمؤدَّب. وفي أحد الأيام، كان برفقة نيكولا فاريه فحدَّثه مطولاً عن مشروعه - أجل، فاريه نفسه الذي كشف له مالفيل عن انعقاد تلك اللقاءات في بيت كونرار. وانساق باردان بدوره وباح له بأسراره، وتهوَّر فذكر أمامه العنوان الذي يزمع أن يختاره للكتاب الذي هو بصدد تأليفه: الإنسان الفاضل. فما كان من فاريه، دون أن يجد في ذلك حرجاً، إلا أن انتحل ذلك التعبير الذي سيشاع وينتشر إلى الأبد، وألَّف بدوره كتاباً بهذا العنوان وذهب يعرضه باسمه أمام أولئك الذين سيصبحون أعضاء الأكاديمية.

ونتفهم تماماً ألا يظهر باردان حماسة شديدة عندما عرض عليه أعضاء الأكاديمية الانضمام إلى جمعية تضمُّ في عدادها الشخص الذي انتحل عنوان كتابه، ولكنه ذهب أخيراً إلى فندق بيلفي نزولاً عند إصرارهم وإلحاحهم.

كان الاجتماع عاصفاً بالأحرى. فوجَّه المرشَّح اللوم إلى السيد فاريه الذي ردَّ عليه معرباً عن شكوكه بشأن جدوى قبوله عضواً في الجمعية. ولكن الأمور سُوِّيت في نهاية المطاف. كان باردان متهوِّراً ومندفعاً، ولكنه لم يكن حقوداً.

وبعد أن باح بمكنون صدره، تغلَّب على مرارته وعفا عما مضى

وانضمَّ إلى المجموعة. أما الكتاب الذي كان بصدد تأليفه فقد اختار له عنواناً جديداً عوضاً عن ذاك الذي انتحل منه؛ وأصبح ما كان يجدر به أن يحمل عنوان الإنسان الفاضل الآن يحمل عنوان المدرسة؛ غير أن الغلاف تضمَّن العنوان الفرعي التالي: حيث يدور الحديث، خلال عدة نزهات، عن معارف الإنسان الفاضل وأعماله ومسرّاته.

وخلال الفترة القصيرة المتبقية من حياته، حضر أول شخص شغل هذا المقعد الاجتماعات وشارك في الأعمال باندفاع وإخلاص. وعلى هذا النحو، عندما قرَّرت الأكاديمية الناشئة أن تحتفل باستهلال أنشطتها، وطلبت إلى كل عضو من أعضائها إعداد «خطبة» عن موضوع من اختياره، ألقى خُطبة لاقت الإعجاب والاستحسان ، فيما يبدو، واختار لها العنوان التالي: في الأسلوب الفلسفي.

وأكد في خطبته بحماسة أن الفلسفة لا تحتاج بتاتاً إلى المفردات الوحشية التي يُثقَل بها كاهلها في المدارس، لأن القضايا التي تطرحها تعني أيَّ شخص راغب في معرفة أحوال العالم وفهمه، ولذلك لا بد من تناول الفلسفة بلغة خالية من الرطانة.

لم يُنشر نص هذه الخطبة قط، ولكن هناك مخطوطة محفوظة في المكتبة الوطنية الفرنسية. كم من المؤثر تأمل تلك الصفحات وتخيُّل صوت الرجل يقرأها بشغف دون أن يعلم بأنها ستكون آخر كلمات يلقيها علناً، وأنها ستكون وصيته الأخلاقية عملياً!

«إذا كانت أصول الخطابة أن يلجأ الخطيب إلى أبلغ الألفاظ

في مستهلِّ كلامه لكي يستحق أن يعيره المستمعون أذنا صاغية، فأنا أعترف، أيها السادة، بأنني قد انتهكتُ قواعد البلاغة. فلقد ظننتُ أنني حصلت على هذه النعمة دون أن أكابد مشقَّة التماسها؛ وسواء أواجباً كان أم تقليداً القيام بذلك، يتبين لي أن موضوع كلمتي يعفيني من ذلك، فأنا لن أتكلم بالنيابة عن نفسي، بل بالنيابة عن الفلسفة التي تخاطبكم فتقول لكم: أيتها المجموعة العزيزة...».

ومضى يدافع دفاعاً مسهباً عن الحداثة، ونشر المعرفة، ولا سيما مناصرة اللغة الفرنسية التي يجب أن تكون قادرة على التعبير عن كل ما عبَّرت عنه اللاتينية أو الإغريقية فيما مضى. كانت تلك، باعتقاده، من أهمِّ المهام التي يجب أن تكرِّس الأكاديمية الحديثة النشأة جهودها للاضطلاع بها. «ومع أنني لست غاوي مديح، فسأكون راضياً في أعماقي إذا ما تسنى لكلمتي أن تقنعكم بخوض ذلك العمل الذي سيشرِّف أسماءكم، ويسعد عصركم، ويرتقي بوطنكم».

وبعد ثمانية أيام على إلقاء هذه الخطبة، قضى عضو الأكاديمية غرقاً في نهر السين، وكان في الأربعين من العمر.

والواقعة التي كلَّفته حياته وقعت قرب باريس، في شارانتون، يوم السبت ٢٩ أيار ١٦٣٥. تصرَّف باردان في ذلك اليوم باندفاع، وعلى نحو لا يخلو من التهوُّر، إنما بأريحية، بل بوسعنا القول إنه تصرف ببطولة. وفي جميع الأحوال، هكذا قيل عنه آنذاك، كما يشهد مؤلف

يعود إلى ذلك العصر، لكاتب مجهول الهوية، يحمل عنوان عن الحذر أو قواعد العيش السديدة: «لو شئنا التحدث عن الرجال الذين كرَّسوا حياتهم لمن يكنُّون لهم الحب والمودة في مناسبات أخرى غير ساحات الوغى، فلا مثال أسمى وأنبل عندي من مثال السيد باردان، أحد علماء قرننا. لقد كان أستاذ الماركيز دوميير في صباه، ولشدة ما اهتمَّ بحماية تلميذه، لم يكن يفارقه في أي مكان يقصده. وفي أحد الأيام، أراد الماركيز أن يذهب للسباحة في نهر السين قرب شارانتون، فرافقه باردان، ولكن الماركيز ابتعد وبلغ بقعةً بالغة الخطورة. حاول باردان إنقاذه فاندفع قاربهما ورمى الملاح بنفسه في الماء لإنقاذهما». تشبَّث به الأستاذ وتلميذه، ولكن الرجل الذي لم يكن يقوى على انتشالهما معاً، قال لهما إن أحدهما يجب أن يرخي قبضته، وإلا هلكوا هم الثلاثة. «فترك باردان الذي آثر أن يفدي الماركيز بحياته النهر يبتلعه، وقضى غرقاً لأنه لم يكن يجيد السباحة بحيث ينجو بنفسه».

أرغمت هذه الوفاة الأولى لأحد أعضاء الجمعية أقرانه على التفكير في أسلوب تكريم موتاهم. فقرَّروا إقامة قداس على نيته في كنيسة كارم ذي بييات، في حي الماريه الباريسي؛ وتدبيج مديح مقتضب «يكون بمثابة عرض موجز لحياته»، دون غلوّ في الثناء والتقريظ؛ وكتابة شاهد قبر شعراً وشاهد قبر آخر نثراً للحديث عنه؛ وهكذا سيفعلون، من الآن فصاعداً، عند وفاة كل عضو من أعضاء الاكاديمية.

كانت هذه الاستعدادات تبدو نبيلة ولائقة. وللأسف، لم يكن

شاهد القبر الذي نُظم شعراً مطابقاً للتطلعات مع أن هذه المهمة عُهدت إلى شابلان، الرجل الحصيف الذي عرف كيف يجنِّب رفاقه خصومةً غير مجدية ومكلفة مع الكاردينال دو ريشوليو. كانت قلة قليلة من الرجال تتمتع بما يحظى به من توقير وإجلال. كان معروفاً برأيه السديد، وأعظم مفكري أوروبا يراسلونه، ولكن الأبيات الشعرية التي نظمها على شرف زميله الراحل قوبلت بالهزء والتهكُّم.

باردان يرقد في لحده بسلام
خطفته يد المنون من أرض الأنام
ناصبه العنصر السائل الخصام
وأخمد فيه جذوة الأيام
أما عقله فسَلِم من ضير اللجَّة
وفارق أتراح الفانية رانياً إلى العلى
إلى صرح الخلد عند المولى عزَّ وجلَّ
الشرف غايته وتقاسم المعرفة مسعاه
ولما في أعماق اللجة هوى واضمحلَّ
أبت فضائله على الضفة أن تظلَّ

لم يسلم البيتان الأخيران من النقد اللاذع، وأثار «العنصر السائل» التهكُّم والاستهزاء. وسيقول بوالو في هجائياته: «يريد شابلان أن ينظم

القوافي، فرمانا بثالثة الأثافي»، بأسلوبٍ يجمع بين سداد الرأي وخبث النية.

وبسبب هذه الزلة، لن تُنظم أبياتٌ من الشعر على شواهد قبور أعضاء الأكاديمية الراحلين. ثم تكرَّست عادة أخرى سيُكتب لها أن تدوم وهي أن يتغنَّى الخلف بمآثر السلف.

***

يتعذَّر على المرء أن ينسب إلى باردان إبداعاً أدبياً فذاً؛ فالكتاب الذي سيحقِّق له شهرة بين أبناء عصره ويتيح له الدخول إلى الأكاديمية لم يكن، كما رأينا، سوى إعادة صياغة لسفر الجامعة في العهد القديم؛ وجميع النصوص التي تركها تتسم بالنَفَس الوعظي أو التعليمي نفسه. ويُشهد له، أقلّه، بأنه ارتضى صراحةً هذا الخيار. فأكثر المؤلفات جدارةً، من وجهة نظره، هي تلك التي تخاطب عقل القارئ عوضاً عن مخاطبة مخيلته أو ذاكرته. لم يكن يقدِّر الشعراء كثيراً ولا «صانعي الروايات الذين شاؤوا محاكاتهم نثراً»، الذين، كما قال، «أسدوا للأدب خدمةً فوضعوه في مخادع النساء». كان يرفض «تصنُّع» الأدباء الذين يسردون «قصصاً خيالية» إنما كذلك «صرامة العلماء» الذين يستعرضون معارفهم ويُكثرون من الإحالات إلى النصوص القديمة. وكما يوضح في الصفحات الأولى من مؤلفه \المدرسة، إنه يفضل النقاشات التي يخوضها «الفاضلون» أثناء نزهاتهم، حول مواضيع جوهرية إنما تُناقش بعبارات بسيطة.

ويقتضي المنطق السليم أن تستخدم هذه «العبارات البسيطة» اللغة المتداولة، وليس اللغة اللاتينية. وهذا ما كان باردان يؤكده في «خطبته» الأخيرة، معتبراً أن المهمة الأولى للأكاديمية هي تعميم استخدام اللغة الفرنسية في جميع ميادين المعرفة.

لقد أصبحت اللغة اللاتينية، في أيامنا الراهنة، لغةً منكوبةً ينحسر تعليمها يوماً بعد يوم؛ ويشعر أنصار اللغة الفرنسية بالرغبة في حماية هذا السلف الجليل. أما في القرن السابع عشر، فكانت الرغبة السائدة بالأحرى في تقليص نفوذها، وكذلك تحجيم نفوذ الكنيسة على النتاج الفكري. وكان فالنتان كونرار يكاد يتفاخر بعدم إجادة اللغة اللاتينية.

وفي أغلب الأحيان، كانت هذه الخصومة مكبوتة وخفية، ولكنها قد تطفو على السطح بين عشية وضحاها، مثلما سيتضح لنا مع الانتقادات اللاذعة والاستهزاءات التي تعرَّض لها خلفُ باردان حالما انتخب عضواً في الأكاديمية.

٢

ذاك الذي لم يكن يحلو له أن يكتب بغير اللاتينية

كان الكاهن نيكولا بوربون، وهو الشخص الثاني الذي شغل هذا المقعد، يتمتع بالتقدير والاحترام بوصفه شاعراً باللغة اللاتينية، إنما بقدر أقلَّ بوصفه كاتباً باللغة الفرنسية، وقد أجاز ذلك لأحد كتاب ذلك العصر أن يكتب هذا المقال الساخر: «الأب بوربونيوس، من رهبانية الأوراتوريان، الذي لا يجيد سوى اللاتينية، انتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية لأنه كان يقرض بها الشعر».كان ذلك رأي ألمع أعضاء الأكاديمية في ذلك العصر، وهو جان-لويس غويز دو بالزاك، الذي لم يتورع عن التهكم من «ذلك الاختيار الغريب» في رسالة بعث بها على الفور إلى جان شابلان:

«سيدي،

ما رأيكم في اختيار زميلنا الجديد الذي تصالحتُ معه توّاً؟ أتظنُّون أنه يسدي خدمات جليلة إلى الأكاديمية، وأنه أداة مناسبة للعمل معكم أيها السادة على النهوض بلغتنا؟ لقد أطلعتكم فيما مضى على نصوصه باللغة الفرنسية التي يشبه أسلوبها أسلوب الشعراء

والسحرة. وإذا كنت تعتقد أن عبارات مثل *s'eximer des apices de droit* و *l'officine d'un artisan* و *l'impéritie de son art* وغيرها من مخلفات الروايات القديمة هي ثروات طائلة في فرنسا، فلديه منها ما يملأ به متاحف اللوفر والأرسونال والباستيل...».

ويستحقُّ هذا الهجاء اللاذع بعض التوضيح، أولاً بشأن بالزاك. ويبدو من المستغرب اليوم الإشارة إليه بهذا الاسم فقط، أما في القرن السابع عشر، والقرن الثامن عشر، بل وحتى الربع الأول من القرن التاسع عشر، عندما كان يقال «بالزاك»، دون توضيح الاسم، كان الأمر يتعلق بهذا الشخص، أي جان-لويس غويز دو بالزاك، وهو أديب وكاتب مجادل اشتغل على تحديث النثر الفرنسي. وفي عصر ريشوليو ولويس الثالث عشر، لمع نجمه في سماء الأدب، وعندما عُقد العزم على إنشاء الأكاديمية، اعتبر انضمامه إليها أمراً لا غنى عنه.

غير أنه أظهر حماسة أقلَّ مما أظهره باردان. ونظراً لمقامه، لم يكن من الوارد استدعاؤه إلى فندق بيلفي لمواجهة قد تسبِّب له الإحراج. فتقرَّر تعيينه في المقعد الثامن والعشرين حُكْماً، دون حتى انتظار موافقته. ولما أخبروه بالقرار، لم يقبل، ولم يرفض، واكتفى بأن أحاط به علماً. وتُطلعنا الرسالة المذكورة أعلاه على حالته الذهنية. إنه يدعو نيكولا بوربون «زميلنا» الجديد، ولكنه يقول، عندما يشير إلى أنشطة الأكاديمية، «أيها السادة» عوضاً عن «نحن». ولئن سخر من العضو الجديد وشكَّك في فائدته «للنهوض بلغتنا»، فإنه يحرص على الإشارة إلى أنه قد تصالح معه كما تقتضي أصول التعامل مع زميل.

وإنها مصالحة شكلية أكثر منها حقيقية، كما يُستشفُّ من رسالته. فالنقمة ما زالت ماثلة، وربما توضح قسوة الحكم الذي أدلى به.

لا فائدة من الخوض في تفاصيل الخصومة بين الرجلين، ولكن من المجدي التطرُّق إليها بإيجاز.

كان بالزاك تلميذ بوربون الذي يكبره بثلاثة وعشرين عاماً. وقد تبادل الرجلان الاحترام؛ وكان التلميذ يعترف لأستاذه بفضله، والأستاذ يعتبره من ألمع تلامذته. غير أن العلاقة بينهما ستتسمَّم بسبب «حادثة أدبية».

ففي عام ١٦٢٧، صدر في باريس كتاب جدلي أحدث ضجة عارمة. كان الكتاب يحمل عنوان رسائل من فيلارك إلى أريست حول البلاغة الفرنسية، ويستهدف غويز دو بالزاك، المتَّهم بالتكلُّف في الأسلوب، وكذلك، بين السطور، بالفجور والفساد. وكان المؤلف الذي يتوارى خلف الاسم المستعار هو فيلارك هو جان غولو، رئيس رهبانية فويان.

وفي خضمِّ هذه الخلاف، سُرَّ بالزاك بتلقي رسالة مطوَّلة ممهورة بتوقيع نيكولا بوربون - أو حرصاً على الدقة، نيكولايوس بوربونيوس لأنها مكتوبة باللاتينية - الذي أيَّده تأييداً تاماً، وفنَّد الحجج التي ساقها فيلارك الحجة تلو الأخرى.

والعيب الوحيد في تلك الرسالة، بنظر الشخص الذي تلَّقاها، أن صاحبها يرجوه التكتُّم بشأنها، فلا بأس أن يطلع عليها بعض الأصدقاء

المقرَّبين، إنما لا يجدر به أن ينشرها على الملأ. غير أن الخلاف اشتدَّ واستعرَّ فاضطر بالزاك إلى مغادرة باريس للإقامة على ضفاف نهر شارانت، في عقارٍ كان يملكه هناك، وبالتحديد في بالزاك، قرب مدينة أنغوليم. وكان يحتاج يائساً إلى الدعم والتأييد، ودعم بوربون، كاهن أورليان ولانغر، والأستاذ في الكلية الملكية الموقَّرة التي أنشأها الملك فرانسوا الأول في القرن الماضي، يبدو له بالغ الأهمية. وبعد فترة من التردُّد، قرر أن يطبع الرسالة وينشرها. فصُعق ذاك الذي يكبره سناً، وامتعض، واتهمه بالخيانة والمكر والصفاقة؛ واتهمه ذاك الذي يصغره سناً بالجبن.

وأدى نشر الرسالة إلى إحراج موقف صاحبها. فبوربون ينتمي إلى رهبانية الأوراتوريان، وتحيُّزه لرجل علماني ضد أحد رجال الكنيسة الذي كان، علاوة على ذلك، رئيس رهبانية أخرى غير رهبانيته سيتسبَّب له بمشاكل خطيرة داخل الإكليروس. وحرصاً على نيل الصفح والمغفرة، انبرى الأستاذ يهاجم تلميذه السابق في ثلاثة مؤلفات متتالية بجموحٍ منقطع النظير - وكلها باللغة اللاتينية بالطبع.

وفي هذه القضية التي أثارت لغطاً لبعض الوقت في أوساط الأدباء الضيقة، استهجنت رعونة بالزاك. غير أن الكثيرين اعتبروا أن بوربون دفع ثمن خداعه. ويلمِّح الذين يعرفونه إلى أنه يتلوَّن بأكثر من وجه ولسان ورأي، حسب الشخص الذي يخاطبه. ويختصر بليسون ذلك

في مؤلفه تاريخ الأكاديمية الفرنسية بصيغة قاتلة: «كان يتميز بلباقة جمة ويعرب عن إعجابه الشديد بأعمال الآخرين في حضرة مؤلفيها».

وربما تعود هذه الملاحظة إلى نادرة كانت تسري بخصوصه، وينقلها لنا بعض مؤرخي تلك الفترة.

فقد كتب ريشوليو الذي كان يهوى التأليف وترك مؤلفاتٍ ذات طابع ديني وسياسي وتاريخي، نصاً قصيراً باللاتينية كان راضياً عنه كل الرضى. فسأل أحد المقرَّبين منه أن يطلب إلى نيكولا بوربون، المعروف بأنه من جهابذة اللغة اللاتينية، الاطلاع عليه وأن يستقي رأيه. وحظَّر الكاردينال على مبعوثه أن يكشف هوية كاتب النص لأنه يريد رأياً صادقاً.

وعندما قرأ بوربون النص، أصدر حكماً قاطعاً: «إنها مثل لاتينية كتب الأدعية!»، وهذا يعني، من جانب كاهن، أنها «لاتينية هزيلة».

ونقل إلى الكاردينال رأيه حرفياً فأخفى هذا خيبته وتظاهر بأنه ارتضى الحكم، واعتبره سديداً لأن مؤلف النص هو بالفعل رجل دين. غير أن المؤرخ يضيف إن «المخصَّصات التي كان الملك يعطيها لبوربون لم تُصرف له هذا العام، لشدة ما يصعب علينا الإصغاء إلى صوت العقل، وإسكات صوت الكبرياء بشأن كل ما يبدر منا».

لا شك أن هذه الحادثة، إلى جانب خلافه مع غويز دو بالزاك،

توضح الحذر الشديد الذي أظهره نيكولا بوربون، والسمعة التي لصقت به لدى معاصريه، وبالأخص لدى زملائه. ويُكرِّس له المؤرخ بليسون الذي لم يعرفه شخصياً نبذة قليلة الإطراء:

«قيل لي إن الحزن كان يعتريه أحياناً وإنه ربما كان شديد التأثر بالإهانات التي يتوهم أنها تُكال له». وأضاف المؤرخ أنه سمع عدة أشخاص يعيبون عليه تعلُّقه المفرط بالأشياء المادية. «ورغم العثور على أربعة عشر ألف أو خمسة عشر ألف قطعة نقدية في صندوقه بعد وفاته، كان يبدو أن أكثر ما يخشاه هو الفاقة، ربما بسبب تقدُّمه في السن...».

«تقدُّمه في السن» للتلميح أن الكاهن كان بخيلاً ونكداً وشكَّاكاً، إذا شئنا تسمية الأمور بأسمائها؟ كان في الثالثة والستين لدى انضمامه إلى الأكاديمية - وفي ذلك العصر، كان يعتبر طاعناً في السن؛ فحتى الحين، لم يكن أحد قد انتخب لعضويتها وقد تقدم مثله في العمر.

ومما يدعو للمفارقة أن المؤلفات التي تذكر اسمه تجمع على الإشارة إليه بلقب «الصغير» لتمييزه عن عمه الأكبر نيكولا بوربون «الكبير»، الذي كان بدوره شاعراً لاتينياً مُحْدِثاً، استفاضت شهرته في القرن السابق، وترك لنا هانز هولباين عنه لوحة بورتريه جميلة.

أما عضو الأكاديمية نفسه، فإننا نجهل ملامحه. والأوصاف النادرة التي تتوافر تتحدث عن مظهره بوجيز العبارة. ويقول أحد الذين عرفوه حق المعرفة : «كان رجلاً مديد القامة نحيف البدن يعشق النبيذ

الفاخر» قبل أن يضيف إنه يفضل اللغة اللاتينية لهذا السبب، «لأنه يتراءى له، على حدِّ قوله، أنه يشرب الماء حين يقرأ الشعر بالفرنسية».

إنها ملاحظة غريبة ولكن أصالتها موثوقة. ويتراءى لنا أنها تعبِّر حق التعبير عن المناخ الثقافي الذي كان سائداً حول الشخص الثاني الذي شغل المقعد، وهو مناخ سمته التنكر «للبدعة» الجديدة التي تقوم على التعبير بالفرنسية المتداولة عما كان يقال دائماً باللاتينية. ولذلك، نتفهم استهزاء الذين رأوا أن «بوربونيوس» ليس في مكانه تماماً داخل مؤسسة مكرَّسة على وجه التحديد للدفاع عن اللغة الفرنسية والتعبير بها.

كان الرجل يستعمل على أي حال لغة شيشرون وفرجيل الجليلة بحماسة واندفاع. ومن بين نصوصه التي بقيت لنا قصيدة طويلة نظمها غداة اغتيال هنري الرابع عام ١٦١٠، ونشرت باللاتينية مع ترجمتها الفرنسية تحت عنوان: صبُّ اللعنات على جريمة اغتيال الأب النكراء. ويشنُّ بوربون في هذه القصيدة هجوماً ضارياً على القاتل رافاياك:

فليُسفح الزيت المحمَّى مع الرصاص المذوَّب
على جسدك المفسوخ سفحاً وئيداً
ولتجرَّك أربعة جياد بلا شفقة جراً حثيثاً
وتقطع، أيها الأرعن، أوصالك البغيضة تقطيعاً!
فليجرّ الشعب مستنكراً في الشوارع
عظامك المضرَّجة وفخذك الممزَّق تمزيقاً!

ومما يدعو للمفارقة أن هذا العنف اللفظي يقابله اعتدالٌ شديد في الآراء. ويبدو أن الكاهن استهجن بصدق أن يقدم شخص متطرف يدين بالديانة الكاثوليكية على اغتيال الملك الذي منح حرية المعتقد للبروتستانت ووضع حداً للحروب الدينية بفضل مرسوم نانت الصادر في عام ١٥٩٨. وظلَّ بوربون طوال حياته يشنُّ حملة شعواء على «أولئك الذين يحدثون صخباً شديداً بديانتهم».

***

ويقول الأصدقاء الذين عرفوه عن كثب إنه «كان يعاني أرقاً شبه متواصل». فأقل شيء يحرمه من نعمة الكرى، ولا بد من دعوته إلى العشاء في اليوم نفسه، فلو وُجِّهت له الدعوة قبل موعدها بليلة، لا يغمض له جفن. ولقد أصبح الأمر لديه عاهة وعذاباً وهاجساً في كل لحظة. ولدى وفاته، نظم أحد معارفه شاهداً لقبره جعله يتنهد فيه بارتياح: «أخيراً، أذوقُ طعم الرقاد!».

توفي نيكولا بوربون في باريس يوم ٦ آب ١٦٤٤. وكان قد أبصر النور في مقاطعة شامبان قبل سبعين عاماً. وقرَّر الأكاديميون الاستعاضة عنه هذه المرة بشاب غرير للغاية، ولكن الانتقادات التي أثارها اختيارهم كانت أشدَّ وأعتى.

٣

ذاك الذي أعطيت له الأفضلية على كورناي

في اليوم الذي انتخب فرانسوا-هنري سالومون دو فيرلاد، سيقول الفيلسوف دالامبير بعد مرور مائة عام: «لقد تعهَّر لقب عضو الأكاديمية». والحقيقة أن هذا المحامي المفوَّه البالغ من العمر ثلاثة وعشرين عاماً قد أعطيت له الأفضلية على بيار كورناي بحجة أن هذا الأخير لا يستوفي أحد شروط الأهلية المنصوص عليها في النظام الداخلي، نظراً إلى أنه لم يكن يقيم في باريس.

لم ينخدع أحد بما جرى. كان الجميع يعلم أن كورناي استبعد لسبب مختلف تماماً. فلقد وافت ريشوليو المنية ولم يشأ أعضاء «أكاديميته» أن يُتهموا بإهانة ذكراه بانتخابهم رجلاً كان يكرهه، وإن كان ذلك الرجل أعظم أدباء فرنسا.

ولم تكن لكراهية ريشوليو نحو مؤلف مسرحية السيد وفقاً لدالامبير سوى التعليل التالي: «الخطأ الذي ارتكبه كورناي أنه كان شاعراً أفضل من الكاردينال»، وهذا هو كذلك رأي المجادل الرهيب

أنطوان دو ريفارول الذي عبَّر عن ذلك بمفردات أجاد تنميقها: «كان ريشوليو الذي يصبو إلى الرفعة والعظمة يحطُّ بيدٍ من شأن آل النمسا، ويجتذب بيدٍ كورناي الشاب، مغدقاً عليه كرم غيرته».

ولهذا السبب أو لأسباب أخرى، أكثر اتساماً بمنحاها السياسي، تميز الكاردينال من الغيظ بسبب ما حققته مسرحية السيد من نجاح باهر، وتمنى أن تُقابل بمعارضة شرسة من أعضاء الأكاديمية الذين تحرَّجوا أشد الحرج من هذا الطلب. ومن المؤكد أنهم لم يرغبوا في مضايقة حاميهم صاحب المقام الرفيع. ولكنهم لم يشأوا أيضاً أن يحطُّوا من قدرهم ويستجلبوا الهزء بأداء دور الرقيب إزاء عمل من روائع الأعمال المسرحية استقبله الجمهور بحفاوة بالغة. فخرجوا من هذه الورطة بحيلة بارعة، أي بحكم متوازن يتضمن نقداً مشروعاً ومديحاً مبرَّراً، استطاع تهدئة خواطر الخصوم والمناوئين.

وعندما توفي الكاردينال في كانون الأول ١٦٤٢، لم تعد إشكالية مسرحية السيد موضع أخذٍ ورد، وإن بقيت حاضرة في الأذهان. ولقد خلَّد كورناي رحيله برباعية تتسم بالحذر والنبل على السواء:

إن قالوا في الكاردينال العظيم خيراً أو شراً
فنثري وشعري لم يعرِّض له ولو نزراً
ففيض إحسانه إلي يقيه من الهجاء
وشدة ظلمه لي تقصيه من الثناء

و«الإساءة» التي ارتكبها رجل الدولة العظيم بحق الكاتب الفذّ تشمل، في جملة أمور، «النقض» الذي اعترض به على انضمامه إلى الأكاديمية. ولا شك في أن ريشوليو ما أعرب قط صراحة عن رفضه، ولكن موقفه لا يخفى على أحد في هذا الصدد، ولم يكن أحد ليجرؤ على مواجهته. وكان من الأفضل انتظار رحيله.

وغداة وفاته، طُرحت المسألة من زاوية مختلفة. فأصبح انتخاب كورناي مؤكداً، وبقي تحديد المدة الزمنية التي تفرضها اللياقة. وكان مقعد نيكولا بوربون أول مقعد يشغر بعد وفاة الكاردينال. فهل يجب أن تتريَّث الجمعية قليلاً لئلا تظهر استعجالاً وتُتهم بالجحود؟ دارت نقاشات ومفاوضات ومشاجرات وقُطعت وعود. وأخيراً، أيَّدت الأغلبية التريث. ولن يدخل كورناي إلى الأكاديمية إلا بعد عامين ونصف العام.

لئن كان الإحجام عن انتخابه منذ عام ١٦٤٤ مؤسفاً في ذاته، فلقد أضفت عليه شخصية ذاك الذي أعطيت له الأفضلية مظهراً أكثر فجاعةً. ولدى قراءة ما روي في ذلك العصر، يتفهَّم المرء أن يكون مثل ذلك الخطأ قد اقترف إنما يصعب عليه أن يجد له أعذاراً.

والخطأ جزئياً هو خطأ بيار سيغييه مع أن دور هذا الشخص كان مفيداً في المراحل الأولى من حياة الأكاديمية. كان وزير العدل، ويحمل لقباً رفيعاً هو «مستشار فرنسا»، وهذا اللقب يجعل منه أرفع موظف في

المملكة، وكانت تحركه مشاعر المودة نحو جمعية الأكاديميين الفتية. ولقد بادله مؤسسوها المودة وخصُّوه رمزياً بأول مقعد في الأكاديمية، ومنحوا الثاني لرئيسهم فالانتان كونرار؛ وزاره وفد منهم لدى وفاة ريشوليو ليعرضوا عليه أن يصبح «حاميهم» الجديد - وهي أرفع المهام على الإطلاق، لأن الحامي الثالث سيكون لويس الرابع عشر شخصياً.

في الفترة التي توفي فيها نيكولا بوربون وطُرحت مسألة اختيار خلف له، كانت الأكاديمية التي لم تجد بعد مقراً دائماً، قد انتقلت لتوها وعلى وجه التحديد إلى الفندق الخاص الرحب للمستشار سيغييه، على مقربة من قصر اللوفر.

كانت شخصية المضيف تجعل من هذه الدار معقلاً للسلطة. فمن بين أفراد الحاشية الكثيرين الذين كانوا يتردَّدون على هذا المكان محامٍ شاب من بوردو، أنيق المظهر، دمث الطباع، طليق اللسان. كان أعضاء الأكاديمية يعتبرونه متألقاً، والمستشار يتنبأ له بمستقبل باهر. هل اقترح عليهم أن ينتخبوه؟ كل الدلائل تشير على ذلك، بدءاً من الكلمة التي ألقاها عضو الأكاديمية الجديد الذي أشاد بمن أحسن إليه بصريح العبارة: «لقد أفسح تأييده واختياره لي مكاناً لم أكن لأجرؤ على أن أصبو إليه لولا توصيته...».

اعتاد سيغييه أن يغدق دعمه على الأشخاص الذين ينالون حظوته. وفي أحد الأيام، سيطلب من الأكاديمية انتخاب حفيده، الدوق دو كوالان، البالغ من العمر ستة عشر عاماً ونصف العام. وتبين

مع الوقت أن هذا الأخير زميل مرموق سينهي مسيرته، بعد خمسين عاماً، عميداً للأكاديمية. أما الوافد من بوردو وصاحب الحظوة عند المستشار فسيخيِّب الظن بكل ما للكلمة من معنى، هو الذي سيقت مبرِّرات لانتخابه كونه يقيم في باريس بينما كورناي يقيم في رووان، وسيتولى منصباً في مسقط رأسه ويذهب للاستقرار هناك، ولن يعود لزيارة العاصمة إلا نادراً.

وسيشغل بالتالي المقعد التاسع والعشرين، طوال ربع قرن، دون أن يشغله فعلياً. وسيطلق عليه زملاؤه الذين اعتبروا أنهم خدعوا أحكاماً قاسية. وسيقول عنه شابلان، لا ريب طمعاً في أن يغفر له الآخرون استسلامه في أحد الأيام لإغواء ذلك الشخص المفوَّه: «إنه يتكلم بسهولة، إنما بقليل من التسلسل والإحكام، وأبياته باللاتينية ليست أفضل من نثره بالفرنسية». وكما توضح الجملة اللاذعة التي كتبها دالامبير، سيكون حكم الأجيال اللاحقة أشدَّ قسوةً.

هل هذه القسوة مبرَّرة؟ في جزء منها فقط. فمن يمعن في مسيرة هذا الشخص الذي طواه النسيان كلياً في أيامنا الراهنة لا يسعه إلا أن يشعر نحوه ببعض الشفقة.

لقد بدأ مساره في أفضل الظروف. فقد أبصر النور في تشرين الأول ١٦٢٠، وأتمَّ دراسة باهرة لدى الآباء اليسوعيين، في كلية لامادلين، حيث تقدم لامتحان الفلسفة وهو في سن الرابعة عشرة

ونصف، قبل أن يقصد باريس ويُعيَّن، في الثامنة عشرة، مدعياً عاماً في المجلس الأعلى. وقد أنيط بهذه المؤسسة التي يرأسها مستشار فرنسا البت في الدعاوى القانونية التي ترفع أمام مجلس الملك. فكانت بداية مسيرة مهنية متألقة. ومما لا شك فيه أن عطف سيغييه ساهم فيها ولكن هذا العطف لا يبرِّر كل شيء.

كان الشاب يبدو موهوباً وواعداً. وبوسع المرء أن يتفهم أن يكون أعضاء الأكاديمية قد أعجبوا به، وأنهم حسبوا، لدى انتخابه في ريعان الشباب، بأنهم يستقبلون معجزة.

غير أن آمالهم ستخيب، أقلّه لسببين. السبب الأول أن العضو الجديد كان يفتقر إلى الموهبة الأدبية. فخلال مسيرته المهنية، لم يؤلف أي عمل جدير بهذا الاسم - لا مسرحية ولا رواية ولا قصيدة ولا رسالة ولا مقالة ولا «خطبة». وأطول نص وقع بين أيدي زملائه، وعنوانه خطاب الدولة إلى السيد غروتيوس ، كان وفقاً لمعاصريه، «مستعاراً» من غويز دو بالزاك. وفيما بعد، ستصدر له، في مجلد واحد، لدى أحد الناشرين في بوردو، دراستان متواضعتان يغلب عليهما الطابع القانوني والإبيغرافي، باللغة اللاتينية. وفي الحقيقة، كانت كل الدلائل تشير إلى أن إتقانه اللغة الفرنسية لم يكن أفضل من إتقان سلفه بوربونيوس.

والسبب الآخر الذي يوضح عدم نجاحه هو الوضع السياسي. فلقد توفي لويس الثالث عشر بعد أشهر قليلة على وفاة ريشوليو، ولم

يكن ابنه، لويس الرابع عشر، قد بلغ الخامسة. فشهدت المملكة فترة من البلبلة والقلاقل الخطيرة أطلق عليها المؤرخون اسم «الفروند»، واتخذت أحياناً طابع حرب أهلية حقيقية. واندلعت قلاقل على وجه الخصوص في باريس خلال شهر آب ١٦٤٨، وطُوِّق القصر الملكي بالمتاريس، ولشدة ما تدهور الوضع، فضَّل الكاردينال مازاران الذي خلف ريشوليو باعتباره رئيساً للوزراء، اصطحاب العاهل اليافع ووالدته بعيداً عن العاصمة التي عاد إليها ليضرب حولها الحصار بعد بضعة أسابيع بمعية مرتزقة ألمان. وطوال ما يزيد على خمس سنوات، ستشهد المملكة نزاعات مسلحة في الداخل وفي الخارج على السواء، وتعاني أزمة اقتصادية خطيرة، ومعارضة عنيفة للسلطة الملكية من جانب قسم من النبلاء، وبرلمان باريس، والهيئات الأخرى التي تشكلت على غرار المجلس الأعلى الذي كان يعمل لديه فرانسوا-هنري سالومون. وفي هذا السياق، من الصعب إنحاء اللائمة على هذا الأخير لأنه غادر العاصمة حيث كان مستقبله المهني والشخصي يبدو مهدَّداً، وحيث كانت سبل العيش تضيق، للعودة إلى منطقته الأصلية.

وفور عودته، شغل بعض المناصب المربحة، وتزوج شابة تنتمي إلى بيئته الاجتماعية، واسمها إيزابو، ابنة «كبير القضاة» في محكمة بوردو. ولدى وفاة حموه، خلفه في هذا المنصب، الأمر الذي وفر له مركزاً ودخلاً محترمين.

وفي مؤلف بعنوان خليط التاريخ والأدب نشر في القرن السابع

عشر، ترد تفاصيل عنه، وعن أجداده، وعما فعله بعد أن عاد للاستقرار في مدينته. وخلافاً للمؤرخين الآخرين في ذلك العصر، لا يظهر المؤلف، وهو دوم بونافانتوري دارغون، عدائية نحو عضو الأكاديمية. وسيخبرنا أن أسرته كانت أصلاً من البندقية، بل سيعرض لنا حسبه ونسبه، فيعود بأصل «السيد فرانسوا-هنري دو سالومون» إلى سلف اسمه ماركو دو سالومون كان «نبيلاً» وجاء موفداً إلى بوردو، فاستقرَّ فيها وأنشأ أسرة وسلالة.

وكانت هناك بالفعل أسرة نبيلة تدعى «سالومون» أو «سالامون» أو «سالاموني» في البندقية حتى أواخر القرن الثامن عشر، ويبدو أنها قد جاءت من المشرق أو من صقلية، ولعلها من أصول يهودية. أما فيرلاد فهو اسم بلدة تقع في قلب منطقة غراف التي تنتشر فيها الكروم في بوردو، حيث كان أبوا عضو الأكاديمية يملكان بعض الأراضي.

ويبدو أن مصدراً غير متوقع يؤكد هذا الأصل البندقاني. فيروي لنا الكاتب الألماني الشهير، إرنست فون سالومون، في سيرة ذاتية بعنوان \الاستبيان صدرت عام ١٩٥١، ما كابده أهله من مشقات بسبب اسمهم : «\الغوتا كتاب النخبة الجامع لطبقة النبلاء، حيث تجد كل أسرة سلسلة نسبها مع جميع تفرعاتها المعروفة، لا يعرف ماذا يفعل بأسرتنا. ويُذكر في هذا الكتاب نبيل غامض من البندقية ينبثق على نحو مباغت من غياهب التاريخ، فيُنصِّب نفسه على رأس أسرتنا، ويختفي دون أن يترك معلومات أدق».

ويسخر المؤلف بلطف من هذه الأسطورة المبجَّلة، معتبراً أنه قد ورث بالتأكيد نزعته إلى عدم الاستقرار من ذلك السلف المتشرد.

***

وبعد أن استقر فرانسوا-هنري سالومون دو فيرلاد في مدينته، وأصبح من أعيانها وصار يتمتع بسمعة المثقف، طفق يكوِّن حول شخصه أكاديمية ذات طموح علمي، ولكن اهتماماتها غريبة بعض الشيء. ويُطلعنا نصٌّ يعود إلى القرن الثامن عشر أنه قد أنشئت في بوردو، عام ١٦٦٤، «جمعية من الفيزيائيين والأطباء، لدى السيد سالومون، كبير قضاة تلك المحكمة، وأحد أعضاء الأكاديمية الأربعين. وكان هؤلاء العلماء الذين يجتمعون تحت ناموس الصداقة والمنافسة، يهتمون بالعلوم الطبيعية، بل لقد أجروا بعض العمليات التشريحية على مخ الحيوانات والأسماك. ولقد قرأوا في اجتماعاتهم موضوعاً عن تحويل الجنين البشري إلى جنين قرد بمجرد قوة المخيلة... وخضع هذا النص لنقدٍ لاذع. والدراسة ونقدها مطبوعان، ولكن هذا كل ما بقي لنا من تلك الجمعية».

ويبدو أن الشخص الثالث الذي شغل المقعد لم يرجع إلى باريس إلا مرة واحدة. وكان ذلك عام ١٦٦٧ . فقصد فندق سيغييه، واستقبله زملاؤه الذين يئسوا من رؤيته ثانية بحفاوة بالغة، بل عيَّنوه في الحال مديراً. ولقد شغل هذا المنصب لفترة وجيزة، ثم عاد إلى مدينته. وبعد

ثلاث سنوات، جاءهم نبأ وفاته، فانهمكوا على الفور في تعيين خلفه.

والرجل الذي انتخب كان كبير السن وفق معايير ذلك العصر، في الخامسة والثلاثين، ولقد اشتهر بوصفه كاتباً تراجيدياً. وفي الكلمة التي ألقاها بمناسبة انضمامه إلى الاكاديمية، لن يعتبر من المجدي أن يشيد بذكرى سلفه، بل سيغفل ذكر اسمه، وكأن الأمر يتطلب طيَّ هذه الحادثة المحرجة بأسرع ما يمكن.

إنها حادثةٌ مؤسفة في تاريخ الأكاديمية! وإنه مصيرٌ مؤسف لثالث شخص يشغل هذا المقعد! ومن المؤكد أنه لم يكن يجدر انتخاب مثل هذا الشاب الغرير، لا سيما وأنه يكاد لم يكتب شيئاً. ولقد انتخب لأسباب سيئة، انطلاقاً من ذهنية أفراد الحاشية، لعدم مضايقة الشخص الحامي، وكذلك بدافع الخفة وقلة الخبرة. لقد ارتُكبَ خطأ جسيم، وأُلقي اللوم على ذلك الرجل المسكين من بوردو، ولكنه لم يكن المذنب.

٤

ذاك الذي كان الأدباء يحسدونه

خلافاً لسلفه الذي لم يكن يتمتع في نهاية المطاف بمقوِّمات الطفل المعجزة، كان فيليب كينو كذلك حقاً. فهو ابن خباز كان يمارس صنعته قرب قصر اللوفر، ولقد عرف النجاح للمرة الأولى بوصفه كاتباً مسرحياً في سن الثامنة عشرة. ومن ثم، توالت مسرحياته الكوميدية والتراجيدية والتراجيدية-الكوميدية حتى بلغ عددها خمس عشرة مسرحية قبل بلوغه الثلاثين، وعُرضت أمام جمهور متحمِّس في أغلب الأحيان، وأحياناً في حضرة لويس الرابع عشر. وبموازاة ذلك، تابع دراسة الحقوق ما أتاح له أن يفوز بمنصب محام في محكمة باريس، وتولي وظيفة مدقِّق حسابات في ديوان المحاسبة.

كان كينو رجلاً موهوباً وحذقاً وحصيفاً، اكتسب في عصره مركزاً يضاهي مركز كبار الأدباء. ولم يعجبْ أحداً عندما انتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية في آذار ١٦٧٠، وإن ارتسم على وجوه البعض

الامتعاض، على غرار بوالو الذي آل على نفسه تنظيم شؤون الأدب وكان يوزِّع المديح والهجاء. كان يكنُّ للرجل مودةً، كما قال، إنما ليس لأسلوبه الذي اعتبره معسولاً بل مائعاً:

أبطال كينو يختلفون عن غيرهم في الكلام
وحتى أكرهك يقولونها بوله وهيام

كان يستهدفه دائماً بهزئه، وكأنه يرى فيه ممثلاً لأدبٍ من النوع الرخيص، يؤثره الجمهور، ولكنه يفتقر إلى قيمة حقيقية.

لو سئلتُ عن أديب يخلو من العيوب
لقال العقل إنه فرجيل
ولقالت القافية إنه كينو الطروب

وليس الغرض من الكلام التمييز بين النقد المبرَّر والتآمر بين الكتاب وأفراد الحاشية، ولكن من الواضح أن الشخص الرابع الذي شغل المقعد استفاد من العادات الرائجة في عصره وكان ضحيتها على السواء.

كانت تلك الحقبة، بالنسبة إلى فرنسا، حقبة من الرخاء والتألق والإبداع، إنما كذلك حقبة من الضحالة. فلقد خرج البلد أخيراً من

اضطرابات حروب «الفروند» وبدأ حكم الملك الشمس المجيد يتجلَّى بأبهى حلله؛ وكان البلاط، حتى قبل أن ينتقل إلى قصر فرساي عام ١٦٨٢، يقيم حفلات فخمة في مختلف القصور الملكية، وكينو يشارك فيها، لا بل كان من ألمع نجومها بلا منازع.

ولم يكن كذلك بفضل مسرحياته بل بفضل النصوص التي كتبها للأوبرا، وهو نوع أدبي لم يكن معروفاً آنذاك بأية لغة أخرى غير الإيطالية، واعتبر رائدة في فرنسا، نوع مرهف تصعب ممارسته، لأن الكلمات التي لا تسمع دائماً وسط الأنغام تتبسَّط إلى أقصى حد، فتتعرَّض لسهام الهجاء مثل تلك التي كان بوالو يسدِّدها.

استهلَّ كينو، عشية دخوله إلى الأكاديمية، حياته المهنية بوصفه كاتب نصوص أوبرالية. وكان حتى ذلك الحين ينتهج النهج الكلاسيكي للكتاب المسرحيين والشعراء في عصره، ويعود لذلك الفضل في انتخابه. أما العامل الذي بدَّل مجرى كتاباته وحياته وحقَّق له بعض الشهرة والثروة، ولكنه أحاطه بقدر أكبر من الغيرة والافتراء، فكانت شركته مع جان-باتيست لولي، وهو موسيقار جاء من فلورنسا، شديد الموهبة، ولكنه انتهازي ومتسلط، سيكون له الأمر والنهي في احتفالات البلاط خلال أكثر سنوات حكم لويس الرابع عشر ألقاً.

كان الفلورنسي الذي جرى تعيينه «ناظر الموسيقى»، يقدِّم شتى العروض الفنية - عروض باليه، مسرحيات كوميدية تتخلَّلها رقصات باليه، ومسرحيات ساخرة؛ ومسرحيات تراجيدية غنائية، إلى ما هنالك

- ويستعين، لكتابة النصوص، بأعظم كتاب العصر، لا سيما موليير الذي سيتعاون معه أكثر من مرة، وبالأخص في مسرحية البرجوازي النبيل. ولقد طلب التعاون مع كتاب آخرين كذلك، فخاضوا تلك المهنة الجديدة التي تقوم على تأليف نصوص للأوبرا، بهذا القدر أو ذاك من النجاح ومنهم بيار كورناي وشقيقه توما، وجان دو لافونتين، وحتى بوالو نفسه. غير أن لا أحد منهم كان مقرَّباً من لولي بقدر كينو. كانا يعملان معاً على حوالى اثني عشر عرضاً، حقق العديد منها - مثل بسيكي أو قدموس وهرميون أو أرميديه - نجاحاً باهراً. وكان ذلك المزيج من النصوص والألحان والمشاهد الراقصة يتلاءم تماماً مع مساحات القصور الملكية وكذلك مع أجوائها. وأصبح الزميلان نجميْ البلاط؛ وذاع صيتهما، وكانا يكسبان مالاً وفيراً، فنقم عليهما معظم كتاب العصر الذين لم يفهموا أن يتمتع كينو بحظوةٍ عند الملك والجمهور على السواء.

ومن الأدباء القلائل الذين دافعوا عنه شارل بيرو، المشهور اليوم بفضل قصصه، والذي سيكتب في مذكراته: «الحق يقال إنني كنت الوحيد الذي تحلى بالجرأة للدفاع عن السيد كينو في ذلك الحين، لشدة ما ناهضه مختلف الأدباء بغيرتهم التي شوَّهت آراء البلاط والجمهور الباريسي؛ ولكن موقفي منه كانت له الغلبة في نهاية المطاف. فلقد أنصفه الجميع في الآونة الأخيرة، وأولئك الذين وجَّهوا له أشد الانتقادات اضطروا، أمام حقيقة الأمور، أن يعربوا عن إعجابهم به علناً، بعدما أيقنوا أنه يتمتع بموهبة فذة في تأليف هذه الأعمال».

والشخص الذي كان بيرو يقصده وهو يتحدث عن «أولئك الذين وجَّهوا له أشدَّ الانتقادات» و«أولئك الذين اضطروا» إلى تغيير رأيهم هو بالطبع بوالو، فبعد أن كان من أشدِّ منتقدي كينو، أبدى ليونةً واعتدالاً في موقفه، بل قال في توطئة إصدار جديد متأخر لأعماله: «كنت في ريعان شبابي عندما كتبتُ مناهضاً السيد كينو، ولم يكن حينذاك قد نشر أياً من الأعمال التي حققت له فيما بعد شهرة يستحقها عن جدارة».

هل كان تراجعاً عن موقفه؟ من غير المرجَّح أن يكون الأمر كذلك. فعندما نشرت هذه الكلمات، كان المؤلفان معاً في الأكاديمية منذ سبعة عشر عاماً؛ وكان كينو شخصاً مهذباً، لطيفاً، صدوقاً، وشاء زميله أن يراعيه، وهذا لا يعني أن حكمه على أعماله قد تبدَّل. ويتضح موقفه في مراسلاته مثل هذه الرسالة التي يقول فيها: «لا أعتزم البتة في هذا المقام أن أهين ذكرى السيد كينو الذي كان صديقي حين وافته المنية، رغم جميع خلافاتنا الشعرية. وأعترف بأنه كان متوقد الذهن، ويتحلى بموهبة لنظم أبيات تصلح للغناء. ولكن تلك الأبيات كانت تفتقر إلى العظمة أو السمو...». لم يكن بوالو، على غرار العديد من مجايليه من الأدباء، يحترم النوع الأدبي الذي اشتهر بفضله كاتب نصوص الأوبرا - تلك المسرحيات التراجيدية التي تنتهي مثل المسرحيات الكوميدية، تلك الأعمال الميلودرامية التي تستحيل إلى أغنيات، ولا سيما العبر السيئة بنظره التي يمكن للجمهور أن يستخلصها من هذه العروض، أي، كما قال:

... وإنه فداء للحب، الإله العلي القدير
علينا أن نحرق حتى الفضيلة؛
وأن نتلظى بسعير النيران؛
وإن السماء لم تمنَّ علينا بقلب إلا لوصال الوديد
وكل ما غثّ وابتذل من فسق ورذيلة
نفحهما لولي بأنغامه وألحانه الدفء الوقيد

لم يكن بوالو وحده من أدلى بهذا الحكم القاسي على «التهتك» المفترض في نصوص كينو.

وعندما نشر هذا الأخير الأبيات التي ذكرناها، تلقى رسالة استحسان متحمِّسة من أكثر المفكرين نفوذاً وقتذاك، وهو عالم اللاهوت أنطوان أرنو، الملقب «أرنو العظيم»، زعيم الجنسينيين وصديق بليز باسكال. «وقد كتب إلى بوالو يقول إن الأدهى من ذلك أن سُمَّ هذه الأغاني المائعة لا ينتهي مفعوله حيث تُعرض تلك المسرحيات، ولكنه ينتشر في جميع أنحاء فرنسا، ويسعى الكثيرون إلى حفظها ظهراً عن قلب، ويستمتعون بإنشادها أينما حلُّوا».

ويطالعنا الموقف نفسه لدى أبرز الواعظين في ذلك العصر - وفي العصور كافة، حسب ما يراه البعض وهو بوسويه، أسقف مدينة مو. كان ينتقد «الفساد الذي تحوَّل إلى حكم ومواعظ في أعمال كينو

الأوبرالية، المفعمة بمشاعر الغرام الزائفة وكل تلك الدعوات المخادعة للاستمتاع بزمن الصبا الجميل، التي يتردَّد صداها في كل قصائده».
لم يكن مبعث قلقه في الحقيقة الأثر السيء الذي تخلِّفه هذه الأعمال على «الكثيرين» بل على شخص معيَّن هو لويس الرابع عشر. فالكاهن الذي كان معرِّف قسم من الأسرة الملكية لم يكفَّ عن نصح الملك بأن يظهر حكمة واعتدالاً، وبأن يتصرَّف مثل مسيحي صالح، ويحترم زوجته ويتجاهل النساء الجميلات اللواتي كُنَّ يتحلقن حوله. وكان يتميز من الغيظ عندما يكتب كينو في أوبرا \أتيس: «ليس من الحكمة أن يكون المرء حكيماً أكثر من اللازم»؛ أو في مسرحية قدموس وهرميون: «من ذا الذي يقوى على مناهضة الحب، عندما يتناغم مع المجد؟»؛ أو كذلك في مسرحية \أستر\ت: «كلا، كلا، مولاي؛ الحب، حين يكون جامحاً، يجب أن يغوي كل شيء وأن ينتصر على كل شيء، إلا على الحب نفسه».

ومن المعروف، بفضل شهادات مختلفة، أن الملك لم يكن يخفي إعجابه لدى سماع هذا الكلام، وأن أفراد حاشيته كانوا يفهمون دون مشقة ما ينطوي عليه هذا الكلام من رسائل مبطَّنة، كتلك الرسالة في \أتيس، وهي أكثرها «مكراً»:

من ينشد السعادة
يضحٍّ قليلاً بالبراءة

***

وإلى استهجان الأخلاق «الفاجرة» التي كانت تستشف من أبيات كينو، أضيفت ريبة من شريكه، «المتواطئ» معه. فتأليف نصوص أوبرالية للفلورنسي لم يكن يبدو عملاً مشرفاً جداً. كان الفلورنسي معروفاً بتسلُّطه بل وبجشعه. ولقد اشتغل معه موليير من قبل، ولكن العلاقة بين الرجلين كانت عاصفة على الدوام، ولقد وضعا حداً لتعاونهما على نحو أثار ضجة. أما العلاقة بين لولي وكينو فكانت أشبه بسماء زرقاء صافية. وكان المناوئون يقولون إنهما «من العجينة نفسها» ملمِّحين إلى أن الأول ابن طحَّان والثاني ابن خبَّاز. وزعموا كذلك أن كاتب نصوص الأوبرا كان يعمل «تحت أوامر» الموسيقار، مستعداً على الدوام لتزويده بجميع النصوص التي يريدها.

وعندما حاول لافونتين أن يؤلف نصاً أوبرالياً دون أن يحالفه النجاح، وتخاصم مع لولي بعد بضعة أشهر، نظم فيه هجاءً قلما اتسم بهذا القدر من العنف:

ها هو الفلورنسي
يظهرُ أخيراً صنعته

إنه أشبه بتلك الذئاب التي نطعمها، وحسناً فعل
فعلى الذئب أن يصون طباعه،
مثلما يصون الخروف شمائله،
حذَّروني؛ قالوا لي: «حذار؛
فكل من يعمل معه يجازف؛
أنت لا تعرف ذلك الفلورنسي؛
إنه فاسق، ماجن...

وهو يقول لي: «أتريد
أن تؤلف أوبرا، سريعاً، سريعاً...
هكذا ستتدبر أمرنا
لتقاسم الأرباح:
نقسمها إلى قسمين، المال والأغاني؛
المال لي، ولك الألحان...».

ربما لم يقل ذلك صراحة
ولكنها كلمات قالها في سرِّه
وإن لم يلهج بها لسانه. فأقنعني؛
وطلب مني عن خطأ أو عن صواب،
كلاماً رقيقاً، عذباً، وكل تلك الترهات،

مفردات ضحلة، ورطانة العشق والغرام
كلاماً معسولاً؛ أي باختصار خدعني.

لم ينس أحد ذلك الفعل «خدع» (enquinauder) المشتق من اسم كينو. بالطبع، كان موجوداً قبل القرن السابع عشر؛ وكانت كلمة «كينو» تعني فيما مضى «القرد» وفعل» **enquinauder**» يعني «الخداع بالتملُّق أو التزلُّف»؛ وكان يقال كذلك للتعبير عن المعنى نفسه «embabouiner»؛ ولكن لافونتين حرَّف دلالته قليلاً، وأصاب هدفه. ومن الآن فصاعداً، سيتذكَّره الناس، كلما ورد ذكر كينو. تدوم هذه الانطباعات لا سيما حين تنقلها أقلامٌ لامعة. ولقد تأثرت صورة الشخص الرابع الذي شغل المقعد إلى الأبد، وإن وجد، في القرن التالي، نصيراً مرموقاً في شخص فولتير.

يا لبوالو القاسي ، حسدت ملهمته الصارمة
كينو اللطيف لأنه استهوى الناس،...
كلنا نصبُّ على هجوك الشرس اللعنات
ألا تسمع تصفيقنا
ينتقم لكينو في الأسبوع أربع مرات ؟

وفي المؤلف الذي يحمل عنوان قرن لويس الرابع عشر، أغدق

فيلسوف عصر التنوير المديح على كاتب نصوص الأوبرا، فاعتبر أنه استطاع «في نوع جديد كل الجدَّة، وتتجلَّى صعوبته في ما يوحي به من سهولة، أن يرتقي إلى مصاف ألمع معاصريه». وقال إن المديح الحقيقي لشاعرٍ أن يحفظ الناس شعره، والناس حفظوا عن ظهر قلب مشاهد كاملة من مسرحيات كينو؛ وإنها ميزة ليس بوسع أي أوبرا إيطالية أن تتمتع بها... ولو عرفت العصور القديمة قصيدة على غرار أرميديه أو أتيس، لكانت استقبلت بإعجاب ووله! ولكن كينو كان من أنصار الحداثة».

وبفضل فولتير وآخرين، أمثال دالامبير، انتزعت أعمال كينو في القرن الثامن عشر إعجاباً متجدِّداً تجلَّى بالأخص في السنوات الممتدة ما بين عامي ١٧٧٥ و ١٧٧٩، خلال ذلك الحدث غير المألوف الذي أُطلق عليه اسم «الخلاف بين أنصار غلوك ومؤيدي بيتشيني».

كانت فرنسا آنذاك، دون أن تعلم، على بعد عشر سنوات من الثورة التي ستقلب مصيرها رأساً على عقب. ولكنها لم تكن منقسمة بين الملكيين والجمهوريين، ولا بين أنصار الملكية المطلقة ومؤيدي الملكية الدستورية. كانت نخبة الأمة منشغلةً بالنزاع بين أنصار الأوبرا التقليدية «على الطريقة الفرنسية»، التي يمثلها، على نحو يدعو للمفارقة، الملحن الألماني كريستوف غلوك، وأنصار الموسيقى «على الطريقة الإيطالية» التي يمثلها الملحن نيكولو بيتشيني. ويروي زائر إنكليزي كان يزور باريس في تلك السنوات، أن «لا أحد كان يرضى أن

يقابلك قبل أن يتحقق إذا كنت من أنصار غلوك أو من مؤيدي بيتشيني، وليس إذا كنت شخصاً فاضلاً ولطيف المعشر...». كانت هناك مقاهٍ لا يرتادها سوى مؤيدي بيتشيني، ولا يُرحَّب فيها بأنصار غلوك. وكان الفريقان يتبادلان الاتهامات في الصالونات الأدبية والمدارس والساحات العامة بل أحياناً في البلاط. ولقد تتلمذت ماري-أنطوانيت الشابة، زوجة لويس الرابع عشر، والتي أصبحت ملكة في عام ١٧٧٤ وهي في الثامنة عشرة، على يد غلوك في فيينا، واعتبرت في معسكر مؤيديه وإن سعت جاهدة إلى الظهور بمظهر الحياد. وكان المعسكر الآخر يضمُّ الأمين الدائم للأكاديمية الفرنسية، جان لورون، المعروف بدالامبير، الذي كان فيلسوفاً وعالم رياضيات ومُخترعاً، إلى جانب ديدرو من الموسوعة، ولم يكن يأنف الإشكاليات؛ ولقد شاهدناه يهاجم سالومون دو فيرلاد ويتهم ريشوليو بالغيرة من كورناي، وسوف يكون حامل لواء الفريق المؤيد لبيتشيني.

ولقد ذكرت تلك «الرقصة على شفير الهاوية» في هذا المقام، لأنه تقرَّر في أحد الأيام، حسماً للجدل، إخضاع غلوك وبيتشيني للامتحان، وطُلب إلى كلٍّ منهما تأليف أعمال موسيقية كانت نصوصها للكاتب نفسه وهو فيليب كينو.

***

في الفترة التي كانت أعمال الكاتب تشهد هذه المرحلة الأخيرة من الشهرة، كان قد توفي منذ أكثر من مائة عام، مات حسرة، بل وربما خوفاً.

ذلك لأنه لم يكن يأخذ بخفة الإدانــة الأخلاقية لنصوصه الأوبرالية! كانت هذه الإدانة تزعجه، وتبدو له مثل نتيجة سوء تفاهم مؤسف. هل كان يسعى إلى الترويج للفسق والفجور؟ معاذ الله! لئن نظم أبياتاً خفيفة، فلأن تلك هي قواعد هذا النوع الأدبي. فلا أحد يغني أو يرقص على كلمات وعظية! لم يكفَّ عن تكرار ذلك على مسمع زملائه في الأكاديمية الذين هدأت خواطرهم من ناحيته، إنما ترسخ لديهم الاقتناع بضعف شخصيته. فلكثرة ما كانوا يلتقون به في أروقة قصر اللوفر - حيث استقرت الجمعية عام ١٦٧٢ - اعتادوا جميعاً التمييز بين هذا المسكين ومؤلفاته، جميعاً، حتى بوسويه بل وكينو نفسه: في البلاط، كان ينظم قصائد ماجنة لينال حظوة عند لويس الرابع عشر؛ وفي الأكاديمية، كان يستنكر مع زملائه الفسق والتهتك، ويفعل كل ذلك بمودة تعفيه من الملامة.

غير أن الأجواء كانت تتبدَّل في قصر فرساي، ورياح التقشف والتعصب بل وشدة التديُّن تهبُّ عليه، ولقد رأى بعض المؤرخين، وربما أصابوا أو أخطأوا في ذلك، أن السبب يعزى إلى نفوذ السيدة دو مينتونون التي تزوجها الملك سراً بعد وفاة الملكة. وفي تشرين الأول ١٦٨٥، قرَّر لويس الرابع عشر إلغاء مرسوم نانت الذي أصدره جده هنري الرابع، والذي كان يمنح البروتستانت حرية المعتقد. وعلى الفور، نزح «الهوغونو»، أي البروتستانت، بأعداد كبيرة إلى إنكلترة أو بروسيا أو سويسرا أو المقاطعات المتحدة كما كانت تسمى هولندا

في ذلك الحين، وسيسهمون إسهاماً كبيراً في ازدهار مدن مثل برلين ولندن.

وسيحتفي كينو بإلغاء المرسوم بقصيدة طويلة تمجِّد الملك. غير أن كل الدلائل تدعو إلى الاعتقاد أنه قد تأثر بحدث آخر وقع في تلك السنوات بشكل خاص وكان يمسُّه عن كثب.

فلقد اقتحمت المأساة حياته مثل مقلب مزعج. حدث ذلك في الأسابيع الأولى من عام ١٦٨٧. كان صديقه لولي يشرف على تمرين عازفيه على ترتيلة سبِّحوا الرب التي سينشدونها على شرف الملك. كان يحمل بيده عصا قائد الأوركسترا، وهي عصا ثقيلة مزخرفة يستعملها لضبط الإيقاع والتشديد على الأوامر التي يعطيها. وعلى حين غرة، خبط الأرض خبطة عنيفة بدافع النزق فسحق إبهام قدمه. والتهب الجرح حتى أوصى الأطباء باستئصال الإبهام. ولكن الملحِّن الذي كان راقصاً ماهراً لم يقبل بذلك، فانتشرت الغرغرينا حتى بلغت رأسه، وتسبَّبت بوفاته.

اجتاح كينو أسى عارم، لا بل كان مرعوباً بسبب ما تراءى له عقاباً إلهياً. فقرَّر العدول نهائياً عن المسرح والأوبرا بين عشية وضحاها لينصرف إلى حياة الصلاة والتأمل. وفي القصيدة التي تحتفي بإلغاء مرسوم نانت، وبالتالي «انتصار» الملك على «الهرطقة»، أفصح عما أصابه من تحوُّل.

لطالما تغنيت باللهو والصبابة
وآن الأوان لسماعي بنبرة الرفعة والمهابة
وداعاً يا ربة الشعر الرقيقة
وداعاً إلى الأبد.
فأبياتي سأكرسها
لأعمال يُخلَّد ذكراها
ها هو ذاك الوحش الرهيب
يسقط أخيراً ولا أمل
أن ينتصب ويعود من الجحيم
فلويس الذي لا يقهر أنجز
ما عجز عن إنجازه سائر الملوك
وبفضله انتصرت الكنيسة
على الهرطقة المريعة، المتشددة، الشنيعة..

لم تكن المرة الأولى التي يتنكَّر فيها كينو لقصائده الماجنة، ولكنه كان لا يفعل ذلك عادة إلا شفوياً. وسيروي بوسويه: «شاهدته يستغفر ربه مئة مرة عن خطاياه عندما فكَّر بجدية في خلاصه». كان قد عقد العزم على التخلي عن المسرح والأوبرا والباليه والأغاني إلى غير رجعة.

ولقد قال الأشخاص الذين عرفوه في آخر حياته إنه أصبح شيخاً

يرزح تحت خوف العذاب الأبدي، ويتطلَّع فحسب إلى مفارقة هذه الحياة في حالة من التُقى والورع، مع أنه كان في الثالثة والخمسين عندما أسلم الروح في ٢٦ تشرين الثاني ١٦٨٨.

في ذلك الوقت، لم تكن مقاعد الأكاديمية تظلُّ شاغرة طويلاً. وبعد أربعة أسابيع على رحيل «كينو اللطيف»، اختارت الأكاديمية الفرنسية أن يخلفه شخصٌ كان بدوره مقرَّباً من بلاط فرساي، ولكنه يدخل إليه، إذا جاز القول، من باب آخر.

٥

ذاك الذي سيحيا مجدداً بعد قرنين

«كان رجلاً فارع القامة، نحيل البدن، كبير الأنف، منكفئ الرأس، شارد الذهن، مؤدباً، محترماً، اكتسب سلوك الأجانب لكثرة ما عاشرهم، وأصبحت هيئته الخارجية منفِّرة، لم يكن بوسع النساء وأهل الأناقة أن تعوَّدها، ولكن نفورها يتلاشى حالما يحادثونه في مواضيع رصينة لا في ترهات. وفي المجمل، كان رجلاً طيباً للغاية، بالغ الحصافة والحكمة، يحبُّ الدولة ويتمتع بمعرفة واسعة، شديد التواضع، ومُنزَّهاً جداً، لا يخشى أن يستاء منه الملك أو الوزراء بسبب قوله الحقيقة والمجاهرة بآرائه ودوافعه حتى النهاية، وغالباً ما يقنعهم بالرجوع عن رأيهم».

هذا الحكم الذي أصدره الدوق سان-سيمون على فرانسوا دو كالبير، خامس شخص يشغل المقعد، يكتسب قيمة لا سيما وأن الدوق، مؤلف المذكرات التاريخية، لم يكن يغدق المديح بسهولة

على بني جنسه. كما أن الصفات التي يعترف بها لذلك الرجل تختلف عن الانطباع الذي خلَّفه لدى معظم معاصريه.

فانتخابه عضواً في الأكاديمية الفرنسية في ٢٣ كانون الأول ١٦٨٨ جرى لأسباب سيئة. فلقد أجمع الجميع أنه حدث على إثر مديح عاطر أهداه إلى لويس الرابع عشر. ولا ريب أنه قد نشر في الفترة نفسها نصوصاً من نوع آخر، لا سيما القصة الغرامية للحرب المعلنة بين التقليديين والحداثيين؛ وسينشر، فيما بعد، نصوصاً أخرى لا مراء في طابعها الأدبي؛ ولكن الانطباع السيء الذي خلفه تملُّقه الأول لن يتبدد تماماً على الإطلاق.

هذا هو بالضبط الانطباع الذي يسمح وصف سان-سيمون بتبديده قليلاً: فإذا كان كاليير «لا يخشى أن يستاء منه الملك أو الوزراء بسبب قوله الحقيقة»، بوسعنا الافتراض أنه كان يخفي روح رجل شريف وراء زي المحظيِّ المتزلِّف. وكان ينظر إلى كل ما حوله، على أي حال، نظرة متبصرة وثاقبة، يمتزج فيها الطموح الشخصي باهتمامات أكثر نبلاً؛ وما من شك في أن هذا المزيج المرهف من الواقعية والمثالية كان له الفضل، بعد قرنين من النسيان، في تعاظم شهرته.

وذلك هو مصيره المدهش. ففي حين خسر سلفه فيليب كينو في حياته كل الشهرة التي كان يتمتع بها أو كاد يخسرها، سلك فرانسوا دو كاليير المسار العكسي، وشقَّ سبيله إلى الشهرة بعد رحيله عن هذا العالم بوقت طويل.

والمؤلف الذي أتاح له استعادة الحظوة يحمل العنوان التالي: في أسلوب التفاوض مع الملوك. ولقد صدر في باريس، عن دار مركور غالان للنشر، كما يطالعنا الغلاف، بقلم السيد دو كاليير، مستشار الملك في مجالسه، وأمين مجلس جلالته، والسفير فوق العادة والمفوض السابق للعاهل الراحل المكلف بمعاهدات باريس المبرمة في ريزفيك، وأحد الأعضاء الأربعين في الأكاديمية الفرنسية. والأطروحة التي يدافع عنها المؤلف في هذا الكتاب جديرة بكل التقدير والاحترام. ففي حين سيوضح كلاوسفيتز الذي سيأتي بعد قرن للحكَّام بأن الحرب استمرارٌ للسياسة بوسائل أخرى، اعتبر كاليير أن هذه الوسائل المدمِّرة لا يجب أن تكون وسيلة عادية من الوسائل التي تنتهجها السياسة، بل الملاذ الأخير. وكتب يقول: «كل أمير مسيحي يجب أن يؤمن بحكمة أساسية وهي ألا يلجأ إلى السلاح، للدفاع عن حقوقه والمطالبة بها، إلا بعد أن يكون قد استنفد كل حيل العقل وحجج الإقناع». إنها أطروحة قد تبدو لنا بديهية، ولكنها لم تكن اعتيادية بالنسبة إلى دبلوماسي يعمل في خدمة لويس الرابع عشر، لا بل كان بوسعها أن تبدو مغرضة، نظراً إلى أن الملك كان يلجأ باستمرار إلى القوة العسكرية، فلا يكاد ينتهي من حرب إلا ويخوض حرباً جديدة، الأمر الذي استنزف موارد مملكته.

صدر الكتاب عام ١٧١٦. ولم يكن هذا التاريخ عادياً. فالملك العجوز كان قد توفي في السنة السابقة، وكل الدلائل تحمل على الاعتقاد أن المستشار كان ينتظر بالضبط أن يرحل سيده عن هذا العالم.

ومن المعروف اليوم أن نصَّ الكتاب كان جاهزاً منذ خمسة عشر عاماً، وأن كاليير ظلَّ يتساءل، طوال هذا الوقت، عن الوقت المناسب لنشره. وكما أشار سان-سيمون، لم يفتقر الرجل إلى الشجاعة، وكان يعارض الملك المطلق أحياناً، ويحمله على تغيير رأيه. غير أن هذه الصراحة، حتى وإن كانت تشكل بين جدران المجلس موقفاً ينمُّ عن الولاء والإخلاص، لن تكون مقبولة حالما تذاع على الملأ. ولا بد من أن كاليير تساءل مراراً وتكراراً إذا كان لا يجازف بإثارة حفيظة الملك لو نشر نصاً يقول فيه على سبيل المثال: «لشدة ما تتميز أُمتنا بطبعها المعادي، تكاد تجهل أي سؤدد أو أي أشكال أخرى من العزة والشرف إلا تلك التي تكتسب بقوة السلاح. ولذا، يسعى معظم الفرنسيين من أصحاب النسب الرفيع والسمو سعياً دؤوباً لتحصيل المعارف التي تتيح لهم التقدم في ساحات الوغى، ويهملون تقصي مختلف المصالح التي تحدث انقسامات في أوروبا وتشكل أسباب الحروب الكثيرة التي تخاض فيها».

ولئن كانت صفة «معادي» تعني ببساطة «محارب» ولا تكتسب الدلالة الانتقاصية التي اكتسبتها منذ ذلك الحين، فهذا الكلام يشكل نقداً للأسلوب الذي كانت تُدار به شؤون الدولة في عهد لويس الرابع عشر. وبوسعنا أن نتفهم عدول كاليير عن إصدار كتابه ما دام سيده على قيد الحياة.

حقق كتاب في أسلوب التفاوض لدى صدوره بعض النجاح. فقد أعيد طبعه أكثر من مرة، وترجم إلى الإنكليزية والألمانية والإيطالية وكذلك إلى الروسية. غير أن هذا الاهتمام لم يستمر طويلاً. فلقد توفي المؤلف الذي كان قد تجاوز السبعين عام ١٧١٧. وسرعان ما طوى النسيان نصَّه وشخصه. ثم، وبعد انقضاء مائتي عام تحديداً، أي في عام ١٩١٧، بدأ الكتاب يشهد ما بوسعنا أن نعتبره عودة بطيئة إلى الحياة.

كانت الحرب العالمية الأولى مستعرة، وضحاياها يُعدُّون بالملايين، وأدرك الكثير من الأوروبيين الذين لم يحسنوا تطبيق تعاليم كلاوسفيتز ومكيافيللي هول ما يقاسونه من إراقة دماء وويلات.

فتذكَّر بعض الدبلوماسيين الذين اطلعوا فيما مضى على كتاب فرانسوا دو كاليير أنهم قرأوا فيه بعض الفقرات التي قد تلقي إضاءة جديدة على عصرهم، عصر الضياع.

كان دو كاليير يقول في كتابه: «جميع الدول التي تتألف منها أوروبا ترتبط بروابط وعلاقات تجارية ضرورية بحيث يمكن اعتبارها أعضاء في جمهورية واحدة... وكل تغيير جسيم يصيب بعضها لا بد من أن يقلق راحة جميع الدول الأخرى. وعادة ما تسبب الخلافات بين الملوك الأقل أهمية من غيرهم بالفرقة بين القوى العظمى، بسبب تباين مصالحها في هذه الخلافات وما توفره من حماية للأطراف المتناحرة. والتاريخ يحفل بتبعات هذه الخلافات التي غالباً ما كانت ضعيفة في بادئ الأمر، يسهل خنقها في المهد، ثم أسفرت لاحقاً عن حروب دموية...».

كيف لا يتأثر القارئ بهذا الكلام في قارة أفضت فيها تحالفات متهوِّرة وعداوات راسخة وحسابات ضيقة وسلسلة من الحوادث الثانوية إلى أفظع المذابح الحربية؟ أكان من الضروري أن يؤدي اغتيال الأرشيدوق النمساوي فرانسوا - فردينان في سارايفو في شهر حزيران ١٩١٤ إلى التحرك العبثي للآلية العسكرية، أي حشد التحالفات وتعبئة القوات والاشتباكات والغزوات والمجازر؟ ألم يكن ذلك فشلاً مأسوياً للأمم الأوروبية التي لم تدرك أن من أوّل واجباتها التوفيق بين مصالحها المتباينة، ومنع نشوب النزاعات، وتوفير هذا العذاب الشديد وتلك المعاناة الرهيبة على شعوبها؟

وأول من أعاد اكتشاف النصائح الخلاصية لعضو الأكاديمية الفرنسية كان موظفاً حكومياً رفيعاً إنكليزياً هو السير إرنست ساتو. وقد نشر عام ١٩١٧ دليل الممارسات الدبلوماسية، واستشهد فيه، فصلاً تلو الآخر، بكتاب فرانسوا دو كاليير الذي اعتبره «كنزاً من الحكمة السياسية».

وبعد سنتين، وكانت الحرب قد وضعت أوزارها والكثير من الأوروبيين يسعون جاهدين لفهم أسباب الكارثة التي أطبقت عليهم، صدرت ترجمة إنكليزية جديدة لكتاب في أسلوب التفاوض أنجزها دبلوماسي آخر من دبلوماسيي جلالة الملكة، هو السير ألكسندر فريدريك وايت الذي كان حتى عهد قريب السكرتير البرلماني الخاص للسير ونستون تشرتشل. ولقد تصرَّف في ترجمته، وأظهر أمانة لفكر دو

كاليير أكثر من نصِّه. ولا ريب أن شغله الشاغل لم يكن شاغل مترجم ولا حتى مؤرخ. كان يريد أولاً الدفاع عن شرف السلك الدبلوماسي. فبنظر الرأي العام، كانت المأساة الهائلة التي حدثت تعزى بالأخص إلى رياء الدبلوماسيين. ألم يحيكوا كل تلك التحالفات التي كبَّلت الحكومات وأرغمتها على خوض نزاع لم ترغب فيه؟ راح الكثيرون، في أوروبا والولايات المتحدة، يلعنون «الدبلوماسية السرية» التي دفعت الأمم، بغير علم منها، إلى متاهة قاتلة.

إزاء هذا الاتهام الخطير، كان كتاب فرانسوا دو كاليير يبدو بمثابة أداة تفكير قيِّمة، ليس بشأن «أسلوب التفاوض» فحسب بل كذلك بشأن سبب التفاوض وأهدافه وأولّها حسب الكاتب هو منع نشوب النزاعات. كانت تلك هي الوصية المتناقضة التي تركها رجل لا يؤمن إلا بفضائل السلام أمضى حياته بأكملها في خدمة ملك تميَّز بنزعته القتالية. ولقد بقيت رسائله التي كتبها إلى سيدة كان معجباً بها، وهي الماركيزة دوكسيل، وعرض فيها بحريةٍ رؤيته عن العالم. كتب لها إنه من الأفضل لفرنسا أن تبقى ضمن نطاق حدودها وأن تهتمَّ بتأمين رخاء شعبها عوضاً عن السعي إلى غزو أراضي جيرانها.

ومنذ صدور تلك الترجمة الحديثة الأولى، توالت الترجمات - إلى الإسبانية والصينية والبرتغالية واليابانية والبولندية ولغات أخرى - وكذلك الإصدارات الفرنسية الجديدة. غير أن عضو الأكاديمية سيتمتع بشهرة مذهلة في العالم الأنجلوساكسوني على وجه التحديد.

وهذا ما حدث في الماضي. فعلى سبيل المثال، من المعروف أن توماس جفرسون، الرئيس الثالث للولايات المتحدة وأحد صانعي الاستقلال، قرأ كتاب دو كاليير وأعجب به، وأنه كان يحتفظ بنسخة منه في مكتبته بمونتيتشيلو في ولاية فرجينيا. وخلال القرون الثلاثة الماضية، أشادت شخصيات كثيرة بارزة، في إنكلترة والولايات المتحدة على السواء، بمناقب دو كاليير ومدحت كتابه، ومن أشدها إعجاباً به الاقتصادي والباحث السياسي جون كينيث غالبريث، أحد أبرز المفكرين الأميركيين المؤثرين في القرن العشرين. ولقد كتب غالبريث، بعد أن قرأ كتاب في أسلوب التفاوض، هذا التعليق الحاسم: «يتساءل المرء ماذا يمكن أن يُقال بعد في هذا الشأن».

وفي الواقع، يتناول الكتاب مواضيع كثيرة - من اللياقة الدبلوماسية إلى التجسُّس، ومن الأخلاق الحميدة إلى حسن استعمال الرشوة. وتتخلَّل ذلك ملاحظات سديدة، تعليمية أو غريبة، تجعل قراءته ممتعة. ويتميز بعض ما يرد فيه من توصيات ببعده الشمولي، والأخلاقي بصفة خاصة.

ويقول عضو الأكاديمية: «خلافاً للرأي الشائع، لا يجب تأسيس نجاح المفاوضات بتاتاً على وعود كاذبة وتنصُّل وتملُّص ... فعلى المفاوض أن يعتبر أنه سيعالج أكثر من قضية خلال حياته، وأن من مصلحته ترسيخ سمعته واعتبارها مكسباً حقيقياً، لأنها ستيسِّر عليه فيما بعد إحراز النجاح في مساعيه التفاوضية الأخرى...». ويشير، في

معرض حديثه عن فائدة وجود دائرة استخبارات جيدة: «من الأفضل بكثير أن تنقص الجنرال كتيبة في جيشه مقابل أن يعلم بحالة جيش العدو وعديده وتحركاته كافة...».

وثمة توصيات أخرى تحمل بصمة عصره والبيئة التي عاش فيها، بل تنمُّ عن طباعه. فلقد كتب يقول : «قد ينجح شخص يعاقر الخمرة أحياناً في التعاطي مع وزراء بلدان الشمال أفضل من شخص يأنف الشراب، بشرط أن يعرف كيف يشرب دون أن يفقد رشده، وأن يجعل الآخرين يفقدونه»؛ أو يدلي بهذا الرأي أيضاً: «إذا سمحت عادات البلد الذي يكون فيه المفاوض موجوداً بالتواصل مع سيداته، فلا يجب أن يهمل استمالتهن بحرصه على إثارة إعجابهن وانتزاع احترامهن: فسطوة مفاتنهن غالباً ما تتسع وتسهم في اتخاذ أهمِّ القرارات التي تتوقف عليها أبرز الأحداث. غير أن الحرص يقتضي منه ألا يستسلم لنداء القلب وهو ينجح في استمالتهن بفضل رقيه وتهذيبه بل وأدبه. ولا يغربنَّ عن باله أن الغرام يكون عادة مصحوباً بإفشاء الأسرار والتهوُّر، وحالما ينساق وراء امرأة جميلة، يجازف، مهما بلغت حصافته، بألا يعود مالكاً لسرِّه».

***

منذ الثلث الأخير من القرن العشرين، لم تكف شهرة فرانسوا دو كاليير بعد مماته ترسخ وتتَّسع في شتى الميادين. فمؤلفه العظيم لم يكن يعتبر من الأعمال الكلاسيكية في أوساط الدبلوماسيين فحسب،

إنما كذلك لدى جميع المهتمين بفن التفاوض- بأساليبه، وآدابه، ودوره في العلاقات بين البشر، وأهميته الكبرى في عالم الأعمال، إلى ما هنالك. ولقد أدرج كتاب في \أسلوب \التفاوض في المنهاج الدراسي لأفضل معاهد التجارة وأعرق الجامعات - فنوَّه أحد الأساتذة في جامعة هارفرد بقيمة دو كاليير بوصفه رسول الإقناع، بل ومخترع مفهوم «القوة الناعمة» (soft power)؛ واستند ذاك الأستاذ في جامعة طوكيو إلى كتابه لدراسة العلاقات بين الجنسين داخل المؤسسة التجارية؛ واعتمد أساتذة آخرون في جامعة نافارا بإسبانيا، أو في كلية لندن للأعمال، المستشار الكتوم للويس الرابع عشر بمثابة كاتب مرجعي في المقرَّرات التي يدرِّسونها. والغريب في الأمر أن فرنسا لم تشارك سوى بحياء في إعادة اكتشاف هذا العضو المنسي في أكاديميتها.

لم يكن فرانسوا دو كاليير سيستاء لرؤية كتابه ينطلق على هذا النحو خارج حدود الدبلوماسية. وكان هو نفسه لا يذكر سوى صفات «المفاوض»، ولا يتحدَّث إطلاقاً عن «الدبلوماسي»، وهو مصطلح لم يكن شائعاً في عصره، ولم يظهر إلا بعد مماته، ولم يكن سيروق له على الأرجح. ويؤدي المفاوض مهمةً أدق وأشمل، فبوسعه أن يتفاوض على معاهدة أو هدنة أو عقد، إنما كذلك على زواج أو طلاق بالتراضي، وأيضاً على وظيفة أو انتخاب أو ترشيح - ألم ينتهج دو كاليير هذا النهج للحصول على مقعد في الأكاديمية الفرنسية وآخر في مجلس الملك؟ في كتابه الذي شاء أن يكون دليلاً وليس مذكرات،

قلما يتحدَّث عن نفسه، ولكن القارئ يفطن إلى أنه اختبر بنجاحٍ التعاليم التي يقترحها على قرائه.

فها هو يؤكد لنا ما يلي: «كل رجل نبيه يرغب بشدة في انتزاع إعجاب رجل آخر يتعاطى معه في مصلحة ينجح عادة ويجد الوسائل اللازمة لكي يعيره الآخر أذناً صاغية. إن من أسرار فنِّ التفاوض أن يعرف المفاوض، إذا ما جاز التعبير، كيف يقطر في ذهن الأشخاص الذين يتفاوض معهم الأمور التي من المهم إقناعهم بها قطرة قطرة».

ولدينا من الأسباب ما يحملنا على تبين صحة كلامه. أما في النصيحة التي ستلي، فلا يجب الافتراض بأنه يحدثنا فحسب عن بلدان أجنبية أُوفد إليها في مهمة؛ فعلى الرغم من المظاهر، إنه يفكر كذلك ببلده: «يجب أن يتكيَّف المفاوض مع عادات وتقاليد البلد الذي يكون موجوداً فيه، دون أن يبدر منه اشمئزاز نحوه أو احتقار له... وعليه أن يحجم عن انتقاد شكل الحكم، ناهيك عن سلوك الأمير الذي يتفاوض معه، بل أن يمدح كل ما يجده قابلاً للمديح، دون تكلُّف، ودون تزلُّف وضيع. فكل الأمم والدول لديها قوانين جيدة من بين قوانين سيئة؛ وعليه أن يمدح القوانين الجيدة وعدم ذكر تلك التي ليست كذلك».

ويبدو مساره الشخصي، مع المسافة الزمنية، مثل تطبيق عملي للتعاليم الواردة في كتابه.

فعندما أبصر فرانسوا دو كاليير النور في بلدة تورينيي النورماندية،

في ١١ أيار ١٦٤٥، لم يكن يوحي بأن مستقبلاً واعداً ينتظره في مجتمع يتسم بتراتبيته الهرمية الشديدة في القرن الذي عاش فيه. لم يكن سليل الحسب والنسب ولا يمتلك ثروة طائلة. غير أنه عرف كيف يثمِّر بصبر وأناة، وبشغف وتعقل، بعض المزايا التي نقلها إليه أهله.

فوالده، جاك دو كاليير، كان رجلاً مثقفاً يراسل عدداً من المثقفين من بينهم جان شابلان وأعضاء آخرون في الأكاديمية الفرنسية. وحرصاً منه على توفير تعليم جيد لأولاده، كان يُحضر لهم الكتب، ويحرص على أن يقرأوها ويفهموها على النحو الملائم. ولقد ترك بعض المؤلفات، ولا سيما طالع النبلاء والأسياد الذي حقَّق بعض النجاح. ولقد صدر عام ١٦٥٧ عندما كان فرانسوا في الثانية عشرة، ومن المؤكد كل التأكيد أنه قد أثر في مساره. ويكفي للاقتناع بذلك أن يقرأ المرء عناوين فصول الكتاب الذي ألَّفه أبوه. «على النبلاء أن يسعوا لتأمين مستقبلهم في البلاط»، «أقصر السبل لمعرفة ما يبهج قلب الأمير»، «أسلوب التصرف مع الخصوم والحساد»، «الجبة أجدى من السيف»، «انتقال النبيل من خدمة أحد الأسياد إلى خدمة الملك»، الخ، دون أن ننسى «إذا كان العشق شرطاً للزواج»، وهو سؤال يرد عليه النبيل النورماندي، بعد أربع صفحات، رداً شديد اللبس: ربما يجب أن يكون المرء عاشقاً، وربما لا...

ويتضح في جميع الأحوال أن سلوك الابن يقتدي مباشرة بأفكار

الأب، وأنه عمد إلى تأليف كتابه على هذا المنوال، ولكنه توسع في مضمونه.

وبوسعنا كذلك القول إن هناك تركة أبوية أخرى سيستفيد منها الابن الذي سيصبح عضواً في الأكاديمية للانطلاق في رحاب الحياة. فقد ارتبط جاك دو كاليير بأسرة من كبار النبلاء، هي أسرة دوقات دورليان - لونغفيل. وخدم أفرادها بإخلاص طوال حياته؛ وشمله هؤلاء بحمايتهم بولاء، هو وجميع أفراد أسرته. وشغل لبعض الوقت، تحت رعايتهم، منصب حاكم مدينة شربور.

فالتحق الابن بخدمتهم، ونجح في كسب ثقتهم، ولقد عهدوا إليه بأول مهمة ذات شأن. فالدوق الشاب، المدعو شارل-باري، كان يعتقد أن لديه حظوظاً لكي يعتلي عرش بولندة. وكلف فرانسوا دو كاليير بمهمة التفاوض على ذلك. فذهب إلى هناك، وأقام شبكة واسعة من العلاقات، وكان على وشك أن ينجح في مساعيه على ما يبدو. وكان النبلاء البولنديون وقتذاك منقسمين بين حزب نمساوي وحزب فرنسي، وكان للحزب الفرنسي حظوظه. غير أن المرشّح توفي عام ١٦٧٢ في مبارزة على نهر الراين، وذهبت الجهود الشجاعة التي بذلها موفده أدراج الرياح. ولكن العلاقات التي أقامها خلال مهمته في بولندة ستتيح له، بعد عشرين عاماً، أن يسدي للويس الرابع عشر خدمة جليلة كوفئ عليها بأن أصبح عضواً في مجلسه.

ولقد عرف، بعد أن وصل على هذا النحو إلى قلب السلطة، أن يكون من الصعب الاستغناء عن خدماته. وشيئاً فشيئاً، أصبح من أقرب معاوني الملك؛ وبصفته أمين سره، كان يؤذن له أن يقلد إمضاء سيده بكل مشروعية. ومما لا شك فيه أنه لم يصبح شخصية سياسية بارزة على الإطلاق، ولكنه تمتع بما يكفي من النفوذ لانتزاع تعيين شقيقه الأصغر، لويس-هكتور حاكماً لفرنسا الجديدة، عند وفاة الكونت دو فرونتوناك عام ١٦٩٨. كان هذا المنصب يثير أطماع الكثيرين، ومن بينهم شخصيات تفوقه نفوذاً، ولكن لويس الرابع عشر حسم المسألة لمصلحة دو كاليير، ما يدل على سعة حيلة عضو الأكاديمية وحنكته.

ولم يخيب شقيقه الأصغر آمالهما. فأظهر جرأة وحسَّ مبادرة حتى اعتبره بعض المؤرخين من أكثر الحكام الفرنسيين لكندا حيوية، بل لقد نصح الملك بغزو نيويورك. غير أنه توفي قبل الأوان، دون أن يتمكن من تحقيق طموحاته الكبرى. فلقد أصيب بنزف مفاجئ في أيار ١٧٠٣، يوم عيد الصعود، وسط القداس في كاتدرائية كيبيك، وفارق الحياة بعد بضعة أيام. وتحتفظ مونتريال بذكراه في مكان يدعى بوانت - أ - كاليير.

***

وبوسعنا القول، في المجمل، إن الشخص الخامس الذي شغل هذا المقعد عاش حياته بجرأة وحنكة على السواء. فعلى غرار لاعب شطرنج منكبٍّ دائماً على رقعته، كان يتأمل مجتمع عصره ويحلِّله

ويقيِّم فرص نجاحه إذا حرَّك هذا البيدق أو ذاك... كان يتقدَّم حين يستطيع إلى ذلك سبيلاً، ويتراجع حين يتوجب عليه ذلك؛ دون أن يتيه عن هدفه الأول والأخير: أن يترك بصمته على عصره.

كان انتهازياً، دون أيما شك، ولكنه ليس عديم المبادئ، ولقد عرف كيف يرتقي من وضعه الأول إلى مرتبة أعلى، وعندما وافته المنية في باريس، في شارع سانت أوغوستان، يوم ٥ آذار ١٧١٧، كان يملك ثروة طائلة؛ ولقد أحصي في عداد ممتلكاته أكثر من ٢٥٠ لوحة لكبار الفنانين من بينها لوحات لروبنز وفيرونيز وتيتيان... وبما أنه لم يتزوج، فلقد أوصى بمعظم ثروته إلى فقراء باريس.

وكان يتمتع كذلك، يوم وفاته، ببعض الشهرة بصفته عضواً في الأكاديمية، ومؤلفاً، وبالأخص مستشاراً للملك العظيم؛ ولكن ما كان ليبقَ من ذكراه أي أثر، لا شيء يتيح تخليده، لولا ذلك الكتاب المدهش الذي أصدره في آخر سنة من حياته، والذي كان جواز سفره الحقيقي نحو الخلود.

٦

ذاك الذي كان يهمس في أذن الملك

إذا عرف فرانسوا دو كاليير أن يشقَّ سبيله إلى مجلس لويس الرابع عشر، فإن خلفه، أندريه-هرقل دو فلوري، الكاردينال ورجل الدولة من طراز ريشوليو ومازارن، سيذهب أبعد من ذلك بكثير: فأثناء عهده، سيصبح المقعد التاسع والعشرون في الأكاديمية موقع أرفع سلطة في فرنسا بعد عرش الملك.

عندما انتخب في نيسان ١٧١٧، لم يكن يحكمُ المملكة بعد، ولكنه كان شخصية جليلة القدر. فلقد شغل منصب الكاهن المعرِّف للملكة، ثم الكاهن المعرِّف للويس الرابع عشر نفسه الذي عيَّنه، قبيل وفاته، مدرِّساً خصوصياً للويس الخامس عشر. لم يكن هذا الأخير قد بلغ من العمر سنتين حين أصبح بسبب سلسلة من المآتم وليَّ عهد جده الأكبر، وخمس سنوات حين اعتلى العرش. كان الطفل يحبُّ رجل الدين ولا يثقُ في شخص آخر سواه. وعندما تمرُّ العربة الملكية

ويتدافع الناس على الطرقات لرؤية ملكهم اليافع من خلال الستائر، كان فلوري الرجل الذي يقف قربه ويبتسم له ويهمس في أذنه.

كانت لفلوري، بحكم ذلك، مكانة غير عادية، ولم يكن يتحرَّج في أن يذكِّر بها أولئك الذين يقتربون منه، بدءاً من زملائه في الأكاديمية. فلقد قال لهم في حفل استقباله المهيب في الأكاديمية: «أيها السادة، عندما منحتموني شرف قبولي بينكم بإجماع جمعيتكم، لا ريب أنكم شئتم أن تكرِّموا في شخصي اختيار حاميكم الجليل. ولقد اعتبرتم موقع عضو الأكاديمية بمثابة تركة مرتبطة بذاك الذي كلَّفني به هذا الأمير في الأيام الأخيرة من حياته».

توفي لويس الرابع عشر في ١ أيلول ١٧١٥. وكان قد اعتلى العرش عام ١٦٤٣، وحكم البلاد طوال اثنين وسبعين عاماً. وقلائل هم الفرنسيون الذين يذكرون الوقت الذي لم يكن فيه ملكهم. ومما لا شك فيه أنهم عانوا الأمرَّين جرّاء الحروب الطويلة والاستنزافية التي خاضها، ولاموه على ذلك، بل وكرهوه، وقيل إنه أعرب عن ندمه على فراش الموت لأنه خاض حروباً كثيرة؛ غير أن فرنسا كانت تنعم بالنظام والاستقرار، وأبهة عهده كانت موضوع فخر مشروع، وتساءل الكثيرون إذا كان رحيله لن يعيد البلاد إلى حقب البلبلة والعصيان.

ذكَّر فلوري زملاءه بأنه «الأول منذ ذلك اليوم المشؤوم» الذي ينضمُّ إلى جمعيتهم. ثم حدَّثهم عن الملك الراحل بأسلوب سيبدو غريباً بل ومنافياً للياقة، لو بدر عن أي شخص آخر غير كاهنه المعرِّف

السابق: «ما أجمل أن نتخيل لويس ذليلاً في قبضة الله، يتلقى الشرور وكأنه اعتادها على الدوام، وينظر إليها مثل عقاب عادل عن الأخطاء التي يرتكبها البشر، والمرتبطة بعهد طويل وحروب مديدة اضطر إلى خوضها. ولا أخشى أن أعيد إلى ذاكرتكم تلك الأيام المريرة التي تكاد تتسم جميعها بخزي جديد، لأنها قد أسهمت في تعزيز عظمته».

وعندما حيًّا، أمام زملائه، ذكرى الكاردينال ريشوليو، مؤسِّس جمعيتهم، لم يتحرَّج العضو الجديد في رفع الكلفة قليلاً:

«أرمان الذي يوحي اسمه، مجرد اسمه، بأنه وزير من الطراز الرفيع؛ هو الذي لم تقتصر عبقريته الفذة على أن يجعل فرنسا، أثناء اضطلاعه بمنصبه، مملكة أعلى شأناً من جميع الممالك الأخرى، بل شملت الأجيال المقبلة في مشاريعه الطموحة؛ أرمان الذي كان يعتبر أن أمجاد الدولة أمجاده، أدرك أنه سيرفع لغتنا إلى أعلى مصاف الكمال بجمع شمل كل هؤلاء المتفوِّقين الذين دفع بهم حبُّ الآداب وتوافق الأهداف إلى الارتقاء بها، وأنه سيجعل الفرنسيين قادرين على خوض أرقى المواضيع بقوة وبلاغة يرقيان بعظمتهما إلى عظمة روما وأثينا».

ذلك الأسلوب في الكلام الذي لا ندري إذا كان قد انتزع إعجاب السامعين أو أثار حفيظتهم، يوحي بأنه كان قد بلغ أعلى مراتب السلطة في حين أنه كان في مستهل صعوده. وفي أحد الأيام، سيصبح «هرقل»، مثل «أرمان» و«جول»، في عداد رجال الدين الذين حكموا فرنسا. ولكنه كان المدرس الخصوصي للملك فقط، يوم استقباله في الأكاديمية، في ٢٣ حزيران ١٧١٧.

ولقد نال الحظوة والشرف في مرحلة متأخرة، وهذا ليس أقل الجوانب المميزة في مسيرته: فتولي زمام الحكم في الثالثة والسبعين والإمساك به بحزم حتى بلوغه التسعين، ذلك لَعَمْري إنجازٌ قلَّ نظيره في التاريخ.

كان فلوري نقيض الرجل العجول، ورغم كونه طموحاً على نحو مخيف، لم يظهر مطلقاً بمظهر الانتهازي. كان ينتظر، بصبر لا يعرف حدوداً، أن تحين اللحظة المؤاتية.

بدأت مسيرته مثل شبان كثيرين في محيطه. فلقد أبصر النور في مقاطعة لانغدوك، ببلدة لوديف، لأسرة من صغار النبلاء، وتقرَّر، منذ طفولته، أن يدخل في سلك الكهنوت. بدأ دراسته في مونبلييه عند الآباء اليسوعيين وتابعها في باريس. كان طالباً متفوقاً، ورجلاً وسيماً، ومحدِّثاً لبقاً، استفاد من دعم بعض أصدقاء والده من أصحاب النفوذ، وفي الرابعة والعشرين من العمر، أصبح الكاهن المعرِّف للملكة، ثم للملك بعد سنوات معدودة. وبفضل هذا المنصب، انتقل إلى قلب السلطة، ولكنه لم يصبح شخصية بارزة في الصفوف الأمامية. كان هناك «سلك كنسي» يعمل في خدمة الملك، يديره «كاهن معرِّف أكبر»، هو عادة أسقف، ويضم عشرات الكهنة المعرِّفين من الرتب والأعمار كافة. ولذلك، حين أصبح فلوري أسقف فريجوس عام ١٦٩٩، كان

ذلك التعيين بمثابة ترقية، وإن عاشه كالمنفى بعض الشيء، لأنه ابتعد عن بلاط فرساي، وعن احتفالاته ودسائسه على السواء.

في ذلك الوقت، كانت فريجوس مدينة حدودية، قريبة من دوقية سافوا التي ما زالت تضم مدينة نيس، وستصبح يوماً ما النواة التأسيسية لإيطاليا الحديثة. وكانت علاقات لويس الرابع عشر شائكة مع هذه الجارة، مثل سائر الجيران، تقوم على التحالف والقطيعة، وعلى حروب استنزافية ومصالحات هشة.

ولقد احتدمت التوترات وبلغت أشدَّها في أيار ١٧٠٦ عندما أرسل الملك أربعين ألف جندي لمحاصرة تورينو، عاصمة سافوا. فاستنجد الدوق الحاكم، فكتور-أميدي الثاني، بالنمساويين الذي هبُّوا لنجدته، بقيادة الأمير أوجين، أحد أشهر القادة العسكريين في عصره. وبعد أربعة أشهر من الحصار، حُرِّرت المدينة، ومُنيت الجيوش الفرنسية بهزيمة نكراء. وما زال أهل تورينو يحتفلون حتى اليوم كل عام، في ٧ أيلول، برفع الحصار عن مدينتهم.

وقرَّر الدوق والأمير، بعد انتصارهما، المضي قدماً واجتياح أراضي ملك فرنسا، وكان هدفهما الوصول إلى مرفأ تولون. فشنَّا عليه هجوماً في آب ١٧٠٧، بدعم من الإنكليز، واضطر الأسطول الفرنسي إلى إغراق نفسه لئلا يقع بين أيدي المعتدين.

كانا قد وصلا أثناء هجومهما المضاد إلى مشارف فريجوس التي

اشترطا استسلامها. وتوقع الجميع أن يظهر الأسقف في هذه المحنة ولاءً للملك الذي كان كاهنه المعرِّف. غير أنه أشار بوضوح إلى أن شغله الشاغل هو الحفاظ على رعيته. فتفاوض مع الغازِيَيْن واقترح عليهما صفقة: فإذا ما أحجما عن ارتكاب أي إساءة بحق سكان المدينة، سيقيم قداساً إلهياً على نيتهما في كاتدرائية المدينة. وفي الواقع، أقام فلوري القداس مرتدياً جبة الاحتفالات على نية دوق سافوا والأمير أوجين اللذين منعا جيوشهما من التعرُّض للسكان أو للمحاصيل. ولقد سُرَّ أبناء الأبرشية بالغ السرور بهذا الاتفاق ولكن حملة شعواء شُنَّت في فرساي ضد «السيد دو فريجوس»، كما كان يلقب آنذاك. أفيقيمُ قداساً تمجيداً لأعداء ملكه؟ واتهم الأسقف بالجحود والرياء.

أما الشخص الوحيد الذي لم يستهجن تصرفه فكان الرجل الذي يفترض بأنه خانه وهو لويس الرابع عشر. أقلّه، وبوسعنا أن نعتقد ذلك، لأن الملك في اليوم - غير البعيد - الذي كان عليه أن يختار مدرساً خصوصياً لوريثه الطفل، اختار فلوري، لا بل حرص على إضافة ملحق إلى وصيته ذكره فيه بالاسم تحديداً وكرَّسه في هذا المنصب.

***

عاش ذاك الذي سصبح لويس الخامس عشر، وهو في عامه الثاني، مأساة سيتحوَّل بسببها طوال حياته إلى رجل بائس، هش، لا يعرف الرضى، ولكنها مأساة سيعتلي بفضلها العرش. فلقد خطف وباء الجدري والدته ووالده وشقيقه البكر في ظرف شهر، ولم يخلف غيره

وليَّ عهد لجده الأكبر. وكان رجل الدين الذي عهد إليه بتعليمه يؤدي دوراً يتجاوز دور المدرِّس الخصوصي. فلقد عوَّض به اليتيم الملكي عن غياب والديه، فكان المعلم والمرشد والرفيق والمستشار، وكذلك السند الصلب الذي يرتكز عليه لمواجهة عالم الراشدين.

لن يفتر يوماً ذلك التعلق الطفولي للويس الخامس عشر بمرشده الروحي. ولو ترك له القرار، لعيَّنهُ، منذ بداية عهده، في أرفع المناصب. غير أن أحزاباً قوية كانت تتناحر في البلاط، والملك الشاب ومدرِّسه الخصوصي العجوز لا يتمتعان بعد بالسلطة اللازمة لفرض مشيئتهما.

ففي البداية، استلم فيليب دورليان، ابن أخ لويس الرابع عشر، السلطة الحقيقية التي تولاها بصفته وصياً على العرش. واتسمت ولايته بأسوأ إفلاس في تاريخ فرنسا هو إفلاس «النظام» الذي أنشأه المصرفي الإسكتلندي جون لو. وسعياً لتسديد الدين الهائل الذين خلفه العهد المبذِّر للويس الرابع عشر، والذي كان يعادل إيرادات عشر سنوات، أذن الوصي على العرش لجون لو بطباعة أوراق نقدية وأطلق يده في مالية المملكة؛ ولكن هذه الأوراق النقدية سرعان ما فقدت قيمتها، ما تسبَّب بإفلاس عدد كبير من الأشخاص. ففقد الحكم مصداقيته، وتعرَّض لانتقادات شديدة اللهجة لم تنلْ من الملك الذي كان صغر سنه يشفع له وما زال الشعب يحبه.

ولقد أعلن أنه بلغ سن الرشد لدى بلوغه الثالثة عشرة. غير أن السلطة الحقيقية ظلت بين يدي الوصي السابق على العرش. وعندما

توفي هذا الأخير بصورة مفاجئة في كانون الأول ١٧٢٣، والملك لم يبلغ الرابعة عشرة بعد، عرض «أمير نسيب» آخر، هو الدوق لويس- هنري دو بوربون، أن يشغل منصب الوزير الأول، وكان شخصاً معروفاً بفسقه وعدم كفاءته. لم يشعر الملك الفتي بالقدرة على صدِّه. غير أنه استطاع أن يشترط ألا يبحث معه الرجل القوي الجديد شؤون المملكة بدون حضور فلوري.

وقبل بوربون بذلك الشرط على مضض، متعهِّداً بأن يتخلَّص منه حالما يجد إلى ذلك سبيلاً.

فتصرف على مرحلتين. أولاً، سعى إلى كسب ثقة لويس الخامس عشر بتلقينه مسرَّات الرجال من مقامه، ولا سيما الصيد والميسر. ثم، وبعد أن أدرك أن الملك الشاب بدأ يهتمُّ بالنساء، وعده بأن يزوِّجه على وجه السرعة.

كان الملك قد عقد خطبته بالفعل، بموجب معاهدة، على أميرة إسبانيا. وجرى ذلك أثناء حكم الوصاية على العرش في عام ١٧٢١. وكان لويس في الحادية عشرة من العمر، وخطيبته في الثالثة من عمرها. ولكنها جاءت رغم ذلك للعيش في فرنسا، إنما ليس تحت سقف واحد. كانت تسمى «الأميرة-الملكة». وعندما أعرب الملك لدى بلوغه الخامسة عشرة عن رغبة ملتهبة في الزواج، لم تكن خطيبته تتجاوز السابعة، ومنْ غير الوارد أن يُعقد قرانهما قبل انقضاء عدد من

السنوات. فقرَّر دوق دو بوربون أن يفسخ خطبتهما. واعترض فلوري على ذلك، ولكنه أدرك أن تلك هي مشيئة الملك، ولم يسع إلى نهيه عن ذلك. وجرَّ فسخ الخطبة عواقب وخيمة. فاستوجب الأمر إعادة الأميرة إلى ديارها، واعتبر الإسبان ذلك بمثابة إهانة لهم، تكاد تكون إعلان حرب. ولكن الوصيَّ على العرش لم يدع شيئاً يثنيه عن عزمه، ومضى يبحث عن خطيبة أخرى.

واستقرَّ خياره على ماري، ابنة ستانيسلاس ليزينسكي، وهو نبيل بولندي اعتلى العرش لفترة وجيزة بمساعدة الأسوجيين قبل إطاحته. ووفق معايير العصر، كانت مصاهرة غير موفَّقة لملك فرنسا، ولكن الأميرة تمتعت بمزايا أخرى، وبالأخص أنها كانت تبلغ الثانية والعشرين، أي تكبر زوجها بسبع سنوات، وبوسعها أن تتزوج دون مماطلة أو تسويف.

كان لويس الخامس عشر يبدو مبتهجاً وعاشقاً لدى وصول «بولنديته». وهناك رسالة كتبها الدوق دو بوربون إلى والد العروس في أيلول ١٧٢٥ يخبره فيها بنبرة متحمسة أن الملك منح زوجته، في ليلة دخلتهما، «سبع دلائل على محبته»...

وبعد عدة أسابيع، قرَّر بوربون، وقد تأكد من امتنان الزوجين الملكيين نحو ذاك الذي كان مهندس سعادتهما، أن الوقت قد حان للتخلص من فلوري. حدث ذلك في ١٨ كانون الأول، في بداية السهرة. حضر الدوق إلى أجنحة الملكة وطلب منها أن ترسل فارس

الشرف التابع لها إلى الملك ليرجوه أن يوافيها. وكان لويس الخامس عشر يتحدث بالفعل مع مدرِّسه الخصوصي، ففارقه على الفور لموافاة زوجته.

ولقد فوجئ بوجود الوزير عندها، ولكن بوربون أوضح له أنه اضطر إلى اللجوء إلى هذه الحيلة لأنه كان يحتاج إلى التحدث إليه على انفراد، وذلك لاطلاعه على رسالة هامة قد تلقَّاها. وهذه الرسالة التي بعث بها أحد كبار رجال الدين الذي كان يزور روما تتضمن اتهامات خطيرة بحق «السيد دو فريجوس»، وهو اللقب الذي ما زال فلوري يُلقَّب به. فتناولها الملك، وقرأها بعناية حتى النهاية، ثم أعادها إليه دون أن ينبس ببنت شفة.

سأله الدوق: «ما رأيكم؟»؟

«لا رأي لدي».

فأعرب بوربون عن دهشته لأن الملك لم يشأ التعليق على ما أطلعه عليه. ألا يريد أن يتخذ تدابير، أن يصدر أوامر؟ ما هي مشيئته؟

قرر لويس الخامس عشر بجفاء: «أن تبقى الأمور على حالها».

ففهم الآخر أن مناورته قد باءت بالفشل.

«هل جررتُ على نفسي بلاء استياء جلالتكم مني؟».

- أجل.

- ألا يشاء جلالتكم إغداق نعمه عليَّ بعد اليوم؟

- كلا.

- مولاي، هل السيد دو فريجوس هو الوحيد الذي ينال ثقتكم ؟
- أجل.

ارتمى الدوق تحت قدميه والتمس الصفح والمغفرة. فهمس الملك دون أن يرمقه بنظرة: «أنا أصفح عنك». ثم غادر القاعة.

كان ساخطاً، ولكنه يريد أن يعتبر بأن الحادثة انتهت عند هذا الحد. فعاد إلى أجنحته، وفي صباح اليوم التالي، عند الفجر، ذهب إلى الصيد، مثلما كان يفعل في كثير في الأحيان. ولدى عودته، طلب التحدث إلى مدرِّسه الخصوصي، فقيل له إنه قد غادر قصر فرساي.

وعندئذ فقط أدرك الملك ما جرى بالأمس، بغير علم منه. لقد فطن فلوري إلى المكيدة. فتوجَّه إلى أجنحة الملكة، ولكن رجال الدوق منعوه من الدخول. هل يعقل أن يكون تلميذه قد قرَّر أن يتخلى عنه، تحت تأثير زوجته ووزيره؟ لم يكن يصدِّق ذلك، ولكنه لا يستبعده.

وكانت ردة فعله، في ذلك المساء، من أعظم مظاهر الحنكة السياسية: فقد أمر بتهيئة عربته وغادر القصر تاركاً رسالة وداع إلى الملك يقول له فيها إنه يرغب في الاعتزال في دير الرهبان السولبيسيين في إيسي ما دامت خدماته لم تعد مجدية، وذلك لقضاء الأيام الأخيرة من حياته في الصلاة والإعداد لخلاصه. كانت الرسالة مكتوبة بأسلوب يمتزج فيه الإجلال بالود، وعندما استطاع لويس الخامس عشر أن يقرأها في اليوم التالي، اقتنع أن الرجل موضع ثقته قد ابتعد عنه إلى غير رجعة. فأمضى النهار والليل ينتحب. وفي صباح اليوم التالي، شوهد

ممتقعاً ومتداعياً. أبى أن يوجِّه الكلام إلى زوجته المتهمة بأنها شاركت في مؤامرة تهدف إلى تضليله؛ ولشدة ما ظهرت على محياه أمارات الحزن والأسى والحنق، لم يكن لدى بوربون من خيار آخر سوى أن يرسل بنفسه موفداً إلى إيسي يرجو غريمه بأن يعود أدراجه.

وافق فلوري على العودة إلى قصر فرساي. وبقي الدوق بضعة أشهر في البلاط، وزيراً بالاسم، ولكنه مجرَّد من أي سلطة فعلية. وفي ١١ حزيران ١٧٢٦، أحضر له أحد الضباط رسالة مكتوبة بخط يد الملك أملاها مدرِّسه الخصوصي على أغلب الظن: «إننا نأمرك، وإلا اتهمت بعصيان مشيئتنا، بأن تذهب إلى شانتيي، وأن تبقى هناك حتى إشعار آخر». ولقد ذهب لويس- هنري دو بوربون للعيش على أراضيه، وتوارى عن الأنظار.

وتحسباً لاحتمال دفاع الملكة عن الوزير المخلوع، ذهب فلوري بنفسه إلى أجنحتها، حاملاً رسالة أخرى كان قد أملاها على تلميذه الملكي: «أرجوك، سيدتي، وإذا ما اقتضى الأمر، آمرك، أن تمتثلي لكل ما سيقوله له الأسقف دو فريجوس من جانبنا، وكأن كلامه صادرٌ عنا». وحملت الرسالة التوقيع التالي: «لويس».

***

وفور عودة فلوري من دير إيسي، عرض عليه الملك أن يصبح وزيره الأول ويحلَّ محل دو بوربون. فقبل بالمسؤولية ولكنه لم يقبل بالمنصب. أوضح للملك أن ليس بوسعه، لأنه بلغ من العمر عتياً،

أن يربك نفسه بكل المستندات التي يتوجب عليه أن يوقعها لو كان وزيراً بصفة رسمية. وفي جميع الأحوال، لم يكن بحاجة إلى الألقاب، فثقة الملك تكفيه؛ وما دام يحظى بها، فبوسعه أن يتولى زمام الحكم كما يشاء؛ وإذا ما خسرها، فلن يعود عليه لقبه بأي فائدة، كما أثبتت تجربة التعس دو بوربون. غير أنه قبل بحماسة، وقد سئم كونه «أسقف فريجوس سابقاً» فقط، أن يتوسَّط له الملك عند الحبر الأعظم ويلتمس حصوله على قلنسوة الكاردينال.

كان في الثالثة والسبعين حين تولى دفة القيادة، واعتقد الجميع أنه سيبقى بضعة أشهر. ولكنه عاش عمراً مديداً، وتولى زمام الحكم، دون أن يبدو متأثراً بمرور السنين. ثمانون، أربعة وثمانون، ستة وثمانون – لم يكن بوسع الناس من حوله أن يمتنعوا عن عدِّ السنوات التي عاشها. سبعة وثمانون، ثمانية وثمانون. في البلاط، كان الجميع ينظرون إليه مذهولين. وعندما بلغ مبتهجاً عامه التسعين، بكامل عقله، وبسلطته غير المنقوصة، متمتعاً بثقة الملك، أصبحت سنُّه، بالنسبة إلى المقرِّبين والخصوم على السواء، موضوع انبهار. في العلن، كانوا يدعونه بالطبع «صاحب النيافة»، ولكنهم يهمسون في غيابه «صاحب الخلود»...

كان الدوق سان-سيمون الذي أظهر فائق الاحترام والتقدير لفرانسوا دو كاليير، يكره خَلَفَهُ في الأكاديمية ويتظاهر بازدرائه. ويعترف فقط بأن «فلوري كان وسيماً ومتناسق القسمات في صباه، ولقد حافظ

على ذلك بقية حياته». كان يلومه على أنه انبطح طوال حياته أمام علية القوم، وتردَّد بمثابرة على بيوتهم، «حيث كان في الحقيقة بلا شأن، وغالباً ما يؤدي وظيفة جرس الدار قبل اختراعه».

لم يستطع الدوق أن يتقبَّل ارتقاء نبيل متواضع من الأرياف إلى مقام أعلى من مقامه. لا ريب أن كاليير كان من منبت أكثر تواضعاً، ولكنه ظلَّ خادماً للملك؛ أما فلوري فقد أصبح، حسب التعبير الممتعض الذي لجأ إليه كاتب المذكرات، «ملكاً مطلقاً عوضاً عن وزير».

وكان لمرشد لويس الخامس عشر، في عهده ثم لاحقاً، مناوئون آخرون. ولم يكن بوسع حكمه الذي أعقب عهداً مجيداً من الترف والعظمة، إلا أن يبدو مقتراً وفاقد الألق. كان شغله الشاغل إحلال السلام وترشيد المالية وتثبيت قيمة العملة وتحفيز العجلة الاقتصادية. وسيُوجَّه إليه اللوم لأنه لم يقف بالمرصاد لإنكلترة في المعركة للسيطرة على أميركا الشمالية؛ فلو شاء فعلاً أن يجعل من القارة الجديدة فرنسا جديدة، كان يجدر به أن يؤمِّن الموارد لذلك، ولا سيما أن يبني قوة بحرية عظيمة؛ ولكن ذلك كان سيستتبع نفقات هائلة، فاختار ألا يفعل. كانت إدارته حذرة، ربما مُبالغةً في الحذر، تُفضِّل مكابدة بعض الخسائر أحياناً عوضاً عن خوض مغامرة تنطوي على المجازفة. كان موقفاً قريباً من مبدأ كاليير أكثر من مبدأ لويس الرابع عشر. وعندما يطالع المرء بعناية الكلمة التي ألقاها في حفل استقباله في الأكاديمية، يستشفُّ فيها

نقداً للملك الراحل الذي كانت معاناته في أيامه الأخيرة «عقاباً عادلاً» من السماء، لا على «آثامه غير المنفصلة عن طبيعة البشر»، كالفسق والزنى، إلى ما هنالك - بل على «حروبه المديدة».

تلك النظرة إلى السياسة ومؤداها أنه من الأفضل للبلد ترشيد ماليته وتطوير شبكة طرقاته عوضاً عن غزو مقاطعة جديدة تشبه الموقف الذي نؤمن به اليوم. ولقد سُئل فاليري جيسكار ديستان مرة عن الحقب التاريخية التي كان فيها بلده يتمتع بإدارة حصيفة، فأجاب دون تردد أنه كانت «تلك الحقبة المجيدة، بين عامي ١٧٢٦ و١٧٤٣، التي تولى فيها حكومة فرنسا الكاردينال دو فلوري، أفضل رئيس وزراء شهدناه، وكان رجلاً من الأرياف، منضبطاً، نجح في ترشيد حسابات البلد دون أن يغتني شخصياً».

وفي القرن الثامن عشر أصلاً، حصل دو فلوري الذي كانت إدارته تمزج بين الحصافة والصرامة، على بعض التقريظ غير المتوقع. فلقد كتب فولتير في مؤلفه موجز قرن لويس الخامس عشر بشأنه: «كنا بحاجة إلى ذلك السلام الذي كان يحبه... ترك فرنسا بهدوء تعوِّض عن خسائرها وتغتني بفضل تجارة واسعة دون أن يقوم بأي تجديد، متعاطياً مع الدولة مثل جسد قوي وصلب يتعافى من تلقاء نفسه». كان رأياً متمايزاً لا يخلو من الثناء يعرب عنه رجل لا يؤيده وقد قال عنه قبيل ذلك إنَّ «طبعه ينقصه السمو» وإنَّ ذهنه «محدود»...

أما الماركيز دو كوندورسي الذي كان يمقت الكاردينال ويجلُّ

الفيلسوف الذي كرَّس له سيرة مميزة، فكان لا يخفي امتعاضه من هذا التسامح. وقد برَّر ذلك بقوله: «كان فولتير يخالطه، لأنه يشعر بفضول لمعرفة نوادر حكم لويس الرابع عشر، وفلوري يروق له أن يحكيها»، ثم يسارع فيضيف إن فلوري كان بالنسبة إلى الفيلسوف «سلطة مستترة تضطهده عوضاً عن سلطة تشمله بحمايتها».

تشير هذه الملحوظة الأخيرة إلى طبعٍ كان جميع مناوئي فلوري يلومونه عليه، فيجاهرون بذلك حيناً ويلمِّحون إليه بين السطور أحياناً أخرى، ويتهمونه كذلك بأنه قد لقَّنه لتلميذه الملك، وهذا الطبع هو النفاق. ويتعذر على المرء ألا يصدق كل هذه الشهادات المتطابقة؛ ولكن من الصحيح أيضاً أن هذا العيب لم يكن نادراً على الأرجح بين روَّاد البلاط.

وهناك تهمة أخطر يشير إليها كوندورسي: «أراد فلوري أن يمنع الفرنسيين من الكلام بل والتفكير، لكي يحكمهم بصورة أسهل». وفي الواقع، لم يتردد الكاردينال في التصرف بحزم كلما اشتبه بعصيان أوامر الكنيسة أو المشيئة الملكية. ولقد نكَّل بالجانسينيين الذين كانوا يدافعون عن رؤية صارمة للدين ويعربون عن ارتيابهم بالملكية المطلقة. وفي عام ١٧٣١، أمر بإغلاق نادي أنتروسول الذي كان يضم زهاء عشرين مثقفاً ويجتمع مساء السبت في فندق خاص كائن في ساحة فاندوم للتحدث بحرية عن الإصلاحات الاجتماعية والسياسية مع أن عدداً من الزملاء الأكاديميين كانوا يرتادون هذا النادي الذي يستلهم تقليداً إنكليزياً وكان له دور في استهلال عصر التنوير.

وساور فلوري القلق فيما بعد بسبب ظاهرة جديدة وفدت كذلك من إنكلترة، وكانت تستقطب الكثيرين، لا سيما في أوساط النبلاء والمثقفين، وهذه الظاهرة هي الماسونية التي تضرب جذورها عميقاً في التاريخ ولكن من المتعارف عليه عموماً بأن شكل تنظيمها الحديث بدأ مع إنشاء محفل كبير في لندن عام ١٧١٧. ولقد صاغ القواعد التي ترتكز عليها عدد من الشخصيات المؤسسة، ومن بينها قس بروتستانتي، من مواليد لاروشيل، اسمه جان تيوفيل ديزاغولييه، اضطر إلى الهروب من فرنسا مع أسرته لدى إلغاء مرسوم نانت.

كانت المحافل الأولى قد بدأت تنتشر في باريس، أولاً مع رعايا بريطانيين، ثم مع فرنسيين رفيعي المقام. وفي البداية، طلب فلوري إلى الشرطة أن تتحرَّى الأمر، وبعد أربعة أشهر، خلص إلى أن هذه المحافل يجب أن توقف أنشطتها، نظراً إلى أنها «لم ترق لجلالته». ولعل الحقيقة كانت عكس ذلك: فيبدو أن لويس الخامس عشر كان يرغب في أن يدخل في الماسونية، وقد لقي تشجيعاً في هذا الاتجاه من بعض المقرَّبين الذين سبقوه إلى ذلك، وأراد مدرَّسه السابق أن يضع حداً لذلك. وكان القمع محدوداً جداً؛ فكلما أبلغت قوات الأمن باجتماع سيعقد في مكان عام وقامت بمداهمة لحظره، صادفت فيه شخصيات من علية القوم في المملكة، أمثال الدوق دانتان أو الكونت دو كليرمون. فيكتفي رجال الشرطة، حرصاً على عدم التعرُّض لمنغِّصات، بفرض عقوبة خفيفة على أصحاب الحانة.

وفي الحقيقة، يبدو أن مشاعر فلوري كانت ملتبسة في هذا الشأن. فلقد اتصل به الماسونيون منذ أن حطُّوا الرحال في فرنسا، لكي يعربوا له عن رغبتهم في أن يقبل الملك نفسه رتبة السيد الأكبر. وبعد التفكير ملياً، رأى الكاردينال أنه سيكون ضرباً من التهوُّر بالنسبة إلى الملك أن يسلك مسلكاً قد يؤدي إلى خصومة مع البابا الذي كان ينظر نظرة الريبة إلى هذه الحركة ويتهيأ لإدانتها. وفي الوقت نفسه، لم يشأ فلوري على الإطلاق أن يدخل في عداوة حول هذه المسألة مع أصدقاء الملك وأنسبائه.

ولقد أظهر فلوري قدراً وافراً من الحنكة والبراعة في إدارة هذا الملف وفق بعض المؤرخين. فلما علم بأن الفاتيكان سيصدر مرسوماً بابوياً لإدانة الماسونية ومنع الكاثوليكيين من الانتساب إليها، استبق الأمر فحظَّرها بنفسه في آب ١٧٣٧، وبالتالي، يوم صدر بالفعل المرسوم البابوي المعنون *In eminenti apostolatus specula* بعد بضعة أشهر، رفض أن يطبقه في المملكة، معتبراً أن المشكلة قد سُوِّيت.

***

وداخل الجمعية، كان الشخص الذي شغل المقعد التاسع والعشرين يتصرّف أحياناً مثل ملك مطلق عوضاً عن عضو في الأكاديمية شأنه شأن الأعضاء الآخرين. وعندما أراد الشاعر لويس راسين، ابن الكاتب المسرحي الشهير، أن يقدِّم ترشيحه لعضوية الأكاديمية، أبعده فلوري الذي كان يشتبه في تعاطفه مع الجانسينيين عن باريس فعيَّنه

مفتش المالية الملكية في مرسيليا، ثم في مدن أخرى؛ ولم يستطع أن يعود إلى العاصمة قبل انقضاء ربع قرن، بعد وفاة الكاردينال.

وعرقل الكاردينال أيضاً، لبعض الوقت، انتخاب مونتسكيو الذي كانت رسائله الفارسية تتضمن انتقادات بالكاد مبطَّنة للسلطة الملكية. ولقد ادعى الكاتب أن ناشره أضاف من عنده الفقرات المدانة لا بل بلغ به الأمر أن نشر نسخة منقحة عرضها على أنها هي الوحيدة الأصلية. ولم ينخدع فلوري بالطبع ولكن الندم الذي أظهره مونتسكيو كان يكفيه، فتظاهر بأنه صدَّق تفسيره وسمح بأن ينتخب عضواً في الأكاديمية.

كان ذلك في عام ١٧٢٨. ومما لا شك فيه أن الأديب العظيم قد اضطر، عملياً، إلى «الانحناء» قليلاً لكي يعبر باب الأكاديمية، ولكن دخوله إليها بشَّر بحلول عهد جديد سيفقد فيه رجال الدين نفوذهم شيئاً فشيئاً أمام الفلاسفة. فمن الآن فصاعداً، ولشدة ما سينقلب ميزان القوى بين أنصار الفريقين، سيطمع فولتير، وهو زعيم المعسكر الخصم بلا منازع، لدى وفاة الكاردينال دو فلوري في كانون الثاني ١٧٤٣، بشغل مقعده.

إنه لنصرٌ مبين للفلاسفة لو تيسر لهم انتزاع هذا المقعد الرمزي!

٧

ذلك الذي أعطيت له الأسبقية على فولتير

«الأكاديمية والملك والجمهور اختاروني لكي أحظى بشرف خلافة السيد الكاردينال دو فلوري بين الخالدين الأربعين؛ ولكن السيد دو ميربوا لم يشأ ذلك، ولقد وجد أخيراً، بعد شهرين ونصف الشهر، أسقفاً لكي يشغل المكان الذي كان مُعدّاً لي. وأعتقد أنه يجدر بعلمانيٍّ مثلي أن يعدل إلى الأبد عن الانضمام إلى الأكاديمية، وأن يكتفي بما يجودُ عليه الجمهور من كرم...».

فولتير الذي كتب هذه الرسالة إلى أحد أصدقائه في ٤ نيسان ١٧٤٣، لن يعدل عن ذلك بالطبع «إلى الأبد». وسيعود فيقدِّم ترشيحه بعد ثلاث سنوات ويُنتخب بالإجماع. ويُذكِّر حظه العاثر موقتاً بما جرى لكورناي، قبل مائة عام؛ وكان السبب بالنسبة إلى مؤلف مسرحية السيد هو العداوة التي أضمرها له ريشوليو الذي كان قد توفي ولم يشأ أحد أن يسيء إلى ذكراه. أما في حالة مؤلف زاديغ الذي يجسِّد كذلك

العظمة الأدبية للقرن الذي عاش فيه، فالأسباب متشابهة وإن كانت أكثر خفية.

كان هو نفسه يتهم الأسقف ميربوا، وهو عضو من أعضاء الأكاديمية معروف بعدائه لفلاسفة عصر التنوير، اتخذ في هذه المسألة منحى يخالف تمنيات لويس الخامس عشر؛ ولكن كوندورسي، وهو بمثابة الابن الروحي لفولتير، يعترض على هذه الرواية. فلقد تحرَّى ما جرى بعد وفاة معلِّمه، وعلم بأن «الملك نفسه لم يشأ أن يُنتخب فولتير خلفاً للكاردينال دو فلوري في الأكاديمية، لأن جلالته رأى أن شدة التنافر بين هذين الرجلين لا تسمح بأن يتغنى أحدهما بأمجاد الآخر، ما سيجعل الجمهور يسخر من هذا التقارب».

كان التبرير مقنعاً، ولا بد أن فولتير قد فطن إلى ذلك، ولكن لم يكن بوسعه أن يقول ذلك جهاراً؛ فمن مصلحته الادعاء بأن الملك يؤيده إذا كان يطمع بأن ينتخب يوماً عضواً في الأكاديمية.

أما الأسقف الذي «عُثر» عليه لكي «يشغل المقعد» الذي يطمع به الفيلسوف فكان أسقف دو بايو، بول دالبير دو لوين. أفيخلف رجلُ دين رجلَ دين آخر؟ وبوسعنا أن نضيف بأن من سيشغل المقعد التاسع والعشرين هذه المرة، على غرار سلفه، كان سيرتدي عما قريب جبة الكرادلة، وسيشغل كذلك منصب الكاهن المعرِّف لدى الأسرة الملكية. ولكن أوجه الشبه تلك ظاهرية فحسب، لأن ما من قواسم

مشتركة بين الرجلين. ففلوري كان يطمح إلى الحفاظ على السلطة الملكية، أما لوين فلم يكن سوى الشاهد على اهترائها، حتى النهاية تقريباً لأنه توفي عام ١٧٨٨، أي قبيل انهيار النظام الملكي.

ألم يقل الدوق دو سان-سيمون عن الأول أنه قد احتفظ في شيخوخته «ببقايا» وسامته؟ والصيغة تصلح كذلك للفترة التي تولى فيها زمام الحكم. فطوال الفترة التي تولى فيها فلوري شؤون الدولة، نَعِمَ النظام القديم ببقايا جميلة. ومن بعده، كان الأمر أشبه «بالطوفان»، أو أقلّه بانزلاق محتوم نحو الجحيم.

استطاع المدرِّس الخصوصي للويس الخامس عشر أن يحميه من شراسة العالم، وكذلك من هواجسه. ولدى وفاة الرجل العجوز، شاء الملك أن يتولى مقاليد الحكم بمفرده، على غرار سلفه الجليل، ولكنه كان محكوماً من خليلاته المتعاقبات، فتداعت هيبته في البلاد والبلاط على السواء.

وفي هذا الشأن، ثمة حادثة معبِّرة تستحق أن تروى. ففي آب ١٧٤٤، أثناء رحلة إلى مدينة ميتز، اعتلَّ الملك واعتقد أن أجله قد حان. وطلب منه كاهنه المعرِّف الذي استدعي إلى فراشه لإعطائه المسحة الأخيرة أن يطرد محظيته التي كان يعاشرها آنذاك في الحال ويعترف علناً بآثامه. وسيُدوَّن هذا الاعتراف ويُعمَّم على أبرشيات كثيرة في المملكة، الأمر الذي سيسيء بشدة إلى صورة الملك. ولو كان فلوري ما زال على قيد الحياة، لما حصلت مثل هذه الإهانة قط.

وحالما استردَّ الملك عافيته، طرد الكاهن المعرِّف، واستعاد بنهم صلته بكل ما تندَّم عليه قسراً. ولكن تلك المغامرة العاثرة انطبعت بذهنه لفترة طويلة. وبسببها، أصبح ينقم نقمة شديدة على المتزمتين دينياً. وليس من قبيل المصادفة أن الخليلة التي اتخذها آنذاك، والتي أصبحت عملياً ملكة فرنسا، السيدة دو بومبادور، كانت من أشد المعجبين بالفلاسفة. كانت ابنة للسيد بواسون، وهو تاجر باريسي ثري، وحفيدة فلاح، التقت الملك أثناء حفل تنكري راقص في شباط ١٧٤٥، بعد ستة أشهر على حادثة ميتز. فمنحها لقب ماركيزة، وجعل مقرَّها في قصر فرساي، واعتاد، إذ افتتن بذكائها وحسنها على السواء، أن يستشيرها في شؤون المملكة، ما أثار سخط رجال الإكليروس الذين اعتبروها مجرد آثمة، ونقمة النبلاء الذين نظروا إليها باعتبارها من عامة الشعب وامرأة انتهازية. وكانت «لابومبادور» هي التي أقنعت الملك بألا يعترض بعد اليوم على دخول فولتير إلى الأكاديمية.

وبما أن الاقتراع أصبح مضموناً بالإجماع، كما يُروى لنا، نفترض بأن لوين أيَّد هذا الخيار، ومن المؤكد أنه فعل على مضض، لأنه لم يكن على انسجام بتاتاً مع طائفة الفلاسفة، إنما بصورة راقية. فذلك الرجل الذي يتميز بآرائه الراسخة والبسيطة لم يكن يضمر أي نوع من اللؤم. وقد يتردَّد المرء في الاقتناع بذلك لو لم يؤكد معاصروه على اختلافهم – ولا سيما كوندورسي نفسه الذي كان يسخر بعض الشيء من أمير الكنيسة ذاك، ولكنه يصفه بعبارات ودودة بالأحرى: «سعى الكاردينال دو لوين، الغيور على الدين، بواسطة العظات والإرشادات الرعوية أن

يحول دون انتشار الإلحاد في صفوف الرعية التي عهدت إليه؛ ولكن هذه الغيرة التي لا تعرف الكلل أو الملل لم تكن مشوبةً بأية مرارة. كان صادقاً في إيمانه ويعتقد أن بوسع الآخرين أن يكونوا كذلك في إيمان مغاير، وأن من واجبه، لمصلحة الدفاع عن قضيته، أن يكون مثالاً على الحلم والعدل». ويخبرنا كوندورسي أنه قد حدث للكاردينال بالتالي أن اقترع في الأكاديمية لمصلحة أشخاص كان يعتبرهم «غير مؤمنين»، حين كانت شمائلهم الفكرية والإنسانية تجعلهم يستحقون أن ينتخبوا. ومما لا شك فيه أن الفيلسوف كان يجد رجل الدين من ناحية أخرى «مملاً»، ولكن ذلك لم يجرِّده من الصفات الحميدة التي اعترف له بها.

في ما عدا ذلك، لم يكن نفوذ الكاردينال دو لوين داخل جمعية الأكاديميين يُذكر. فخلافاً لسلفه، لم يكترث على الإطلاق للسلطة. لم يكن سياسياً ولا مخطِّطاً استراتيجياً أو شخصاً يحوك المؤامرات. كان محباً للدراسة، متأملاً، شغوفاً بعلم الفلك وعلم الظواهر الجوية، يمضي أوقات فراغه يرصد السماء برفقة بعض العلماء من أصدقائه، ويصنع آلات للقياس - وهي هواية كانت تروق المثقفين الأثرياء في عصره.

***

ولد عام ١٧٠٣ وكان الابن الأصغر للدوق دو شوفروز وحفيد الدوق دو لوين، سليل أسرة تجلَّت مآثرها طوال قرون في السلك العسكري، وكان بدوره مُعداً للانخراط في الجيش. وفي السادسة

عشرة، كان قد ارتقى إلى رتبة عقيد. غير أن هناك حادثة حادت به عن هذا الطريق. فلقد وجَّه إليه أحدهم إهانة بليغة، وكان قانون الشرف يقتضي أن يغسل العار الذي لحق باسمه بالدم. ولكن الضابط الشاب لم يستطع أن يحسم أمره، واعتبر أن مثل هذا السلوك يتنافى مع إيمانه. كان يتردَّد ويتمهل، وفي نهاية المطاف فرضت عليه والدته أن يختار: فإما أن يخوض مبارزة، وإما أن يدخل في سلك الكهنوت. فآثر الذهاب إلى الدير. وتشير السيرة العالمية القديمة والحديثة الضخمة والثمينة التي نشرت في القرن التالي إليه بهذه العبارات: «لقد تخلَّى عن مهنة خطرة واختار دعوة يبدو أن ميوله الرقيقة والتقية قد هيأته لها».

ما من شك في أن ذاك الذي سيصبح عضواً في الأكاديمية قد تصرف بما يمليه عليه ضميره وطبعه. ولكن من الصعب ألا يعتبر خياره الشخصي دليلاً جلياً على الحالة الذهنية السائدة في الطبقة التي ينتمي إليها، أي طبقة منهكة من النبلاء ما زالت تملك النفوذ والامتيازات، ولكنها عافت القتال.

انطلق في أعلى مراكز الكهنوت بفضل حسبه ونسبه عوضاً عن طموحه، فعُيِّن في السادسة والعشرين أسقفاً لبايو، قبل أن يصبح رئيس أساقفة سانس، «رئيس أساقفة بلاد الغال وجرمانيا»، ثم كاردينالاً. ومن بعد، أصبح الكاهن المعرِّف الأول لولية العهد، ماري-جوزف، زوجة الأمير وولي العهد لويس- فردينان، الملقَّب بلويس فرنسا الذي ارتبط معه بصداقة.

كان الكثيرون يعقدون الآمال في ذلك الحين على ولي العهد،

الابن الشرعي الوحيد للويس الخامس عشر. كان يبدو أكثر تبصراً من والده وأقلَّ انصرافاً إلى ملذاته، ولا يمارس الصيد والزنى. ففي حين لم يعد الملك والملكة ماري ليزينسكا زوجين إلا على الورق، وكفا عن تبادل الكلام، بل راحا يخوضان حرباً صامتة يومية، كان ولي العهد وزوجته مخلصين الواحد للآخر على ما يبدو، يكرِّسان الوقت لأولادهما، ويظهر عليهما أنهما مغرمان، وهو أمر كان يحظى بتقدير كل الذين تهمُّهم أحوال المملكة.

كان لويس فرنسا يثق بالكاردينال دو لوين، ولو اعتلى العرش، من المرجح أنه كان سيدعوه إلى أداء دور مماثل لذاك الذي اضطلع به فلوري. ولن نعرف ذلك أبداً، لأن وليَّ العهد أصيب بمرض رئوي خطير، لعله السلّ، وفارق الحياة وسط آلام مبرحة في كانون الأول ١٧٦٥. كان في السادسة والثلاثين. ولقد توفيت زوجته التي أصيبت بالداء نفسه لأنها بقيت إلى جانبه، بعد رحيله بخمسة عشر شهراً. وحظي رجل الدين بامتياز حزين وهو أن يرافقهما، الواحد ثم الأخرى، لحظة نزعهما الأخير.

ويعتبر بعض المؤرخين أن وفاة الأمير حرم النظام القديم آخر فرصة لتفادي الكارثة التي كانت تلوح في الأفق. فلو كان خلف لويس الخامس عشر الذي توفي عام ١٧٧٤ هو ابنه، وهو رجل في الرابعة والأربعين، ناضج، ومتبصِّر، ومحنَّك، لكانت المملكة بلا شك بين أيادٍ أفضل من أيادي حفيده لويس السادس عشر الذي اعتلى العرش

في التاسعة عشرة. غير أن هذه مجرد تكهنات. هل كان بوسع ذلك أن ينقذ الملكية؟ هل كانت الملكية ستنعم بفترة سماح؟ هل كانت رياح التاريخ ستكنسها في جميع الأحوال؟ ليس بوسعنا أن نجزم بذلك بكل يقين.

لا ريب أن وفاة ولي العهد بالنسبة إلى الكاردينال دو لوين كانت فصلاً أليماً، وكذلك خيبة مريرة. وستليها خيبات أخرى. فخلال العقود التي سبقت الثورة الفرنسية، سيكون الشخص السابع الذي شغل هذا المقعد شاهداً مكتئباً، ومرتبكاً، لا حول له ولا قوة، على غرق النظام الاجتماعي الذي ترعرع فيه.

ولقد وقع أسوأ الحوادث في عام ١٧٦٣ عندما طرد اليسوعيون من مملكة فرنسا. كانت رفقة يسوع تشهد، في ذلك الوقت، أحلك مرحلة من مراحل تاريخها، فقد طردت من البرتغال ومستعمراتها، وستطرد كذلك من إسبانيا ونابولي وصقلية ودوقية بارما، قبل أن يلغيها البابا رسمياً عام ١٧٧٣.

والأسباب التي ذكرت لفقدان هذه الحظوة كثيرة ومتنوعة. ففي الأميركيتين، اتهمت الرهبانية بتشجيع السكان الأصليين على تنظيم أنفسهم وإدارة شؤونهم بل وتُهيئهم للاستقلال؛ وفي الصين، اتهم اليسوعيون بأنهم يريدون تيسير توطينهم من خلال القبول ببعض المساومات بين العقيدة المسيحية والممارسات الطقوسية القديمة؛

وفي أوروبا، اتهموا بالتبجح، وبأن نفوذهم قد اشتدَّ لا ريب أكثر مما ينبغي، نظراً إلى أن لديهم اليد الطولى في تعليم النخب. وكثر خصومهم ومن بينهم الجانسينيون وكذلك الماسونيون الذين حاربوهم بالإصرار نفسه، وأنصار الملكية المطلقة الذين رأوا فيهم دولة ضمن الدولة، شأنهم شأن أتباع عصر التنوير الذين كانوا يعتبرونهم الرهبان – الجنود للتطير. ولحظة كتابة هذه السطور، يشغل عرش القديس بطرس رجل دين ينتمي إلى رفقة يسوع؛ ولكن هذه المرة الأولى التي نشهد فيها مثل هذا الحدث. ففي الماضي، كان الأحبار العظماء يشعرون في كثير من الأحيان بالنقمة على رهبانية لديها آراؤها وأساليبها وتراتبيتها الهرمية الخاصة التي يتربع على قمتها رئيس يحمل لقب «البابا الأسود».

كان الكاردينال دو لوين مناوئاً لطرد اليسوعيين؛ ولقد وجَّه رسائل بهذا المعنى إلى لويس الخامس عشر والبابا دون جدوى. فلقد كانت قوى كثيرة قد تكتلت ضدهم في جميع أنحاء العالم؛ وعلى الرغم من لقب «رئيس أساقفة بلاد الغال وجرمانيا» المهيب، لم يكن بوسعه أن يؤثر في مسار الأحداث. فبحث عن العزاء في مجال العلوم، ولم يصدر سوى مؤلف واحد في تلك السنوات، هو دراسة عن خصائص الزئبق في البارومترات.

***

ومن الإجراءات المتخذة ضد اليسوعيين أثناء طردهم من مملكة فرنسا إغلاق مؤسساتهم ومصادرة أملاكهم. ولقد أصبح ديرهم

الباريسي، وهو مبنى مهيب يقع قرب كنيسة سان-سولبيس، لبضع سنوات، مقراً لمحفل الشرق الأكبر. وبهذه الصفة، استضاف أحد أبرز الاحتفالات في تاريخ الماسونية الفرنسية من ناحيتها الرمزية، وهو انتساب فولتير إلى المحفل المعروف باسم محفل «الأخوات التسع».

ولقد أنشئ هذا المحفل عام ١٧٧٦ بمبادرة من السيدة هلفيتيوس، أرملة الفيلسوف العقلاني، تكريماً لذكرى زوجها. وكان القصد من ذلك جمع شمل العلماء والفنانين والفلاسفة والشعراء في إطار مشغل ماسوني واحد؛ و«الأخوات» هُنَّ ربات الإلهام التسع في الميثولوجيا الإغريقية. وضمَّ هذا المحفل في أكثر مراحله ازدهاراً أكثر من مئة وستين «أخاً» ومن بينهم شخصيات مشهورة كثيرة في ذلك الحين، مثل بنجامين فرانكلين، أحد آباء الاستقلال الأميركي، والنحَّات هودون، والمخترع جاك-إتيان مونغولفييه، وعالم الفلك لالاند، وعالم الحيوانات لاسيبيد، أو الطبيب غييوتان - بالإضافة إلى بعض أعضاء الأكاديمية. ومع ذلك، لم يخرج هذا المحفل إطلاقاً إلى العلن لو لم يحظَ بفرصة استقبال الشخصية العظيمة في ذلك العصر، أي فولتير.

حدث ذلك عام ١٧٧٨. لم يكن شيخ فيرني الجليل قد رجع إلى باريس منذ ثمانية وعشرين عاماً؛ فلقد أفهمته السلطات مراراً بأن حضوره غير مرغوب. ولكنه حرص هذه المرة على العودة. كان يريد أن يرى عاصمته ثانية، مهما كلَّف الأمر. وماذا بمقدور خصومه

أن يفعلوا؟ أن يزجوا به في سجن الباستيل؟ وهو في عامه الثالث والثمانين؟ فليفعلوا! ولقد وصل إلى باريس في ١٠ شباط وأقام عند أحد الأشخاص الذين ينعمون بحمايته، وهو الماركيز دو فيليت، الذي كان يقطن في جسر تياتان الذي أصبح فيما بعد معروفاً باسم جسر فولتير ؛ ولقد توفي هناك بعد عشرة أيام، في ختام إقامة كانت مفخرة حقيقية.

وتعتبر المراسلات الأدبية والفلسفية والنقدية التي ألفها البارون دو غريم في تلك السنوات، بمساعدة من ديدرو، ومن معاونين آخرين أحياناً، من مصادر المعلومات الثمينة بشأن هذه الرحلة الأخيرة. وكانت هذه المراسلات تأريخاً متنبهاً للحياة الثقافية بين عامي ١٧٤٦ و ١٧٩٣، وتتوجّه بانتظام إلى عدد محدود من المشتركين الذين تُحاط أسماؤهم بالكتمان، ولكن من المعروف أن كاترين الثانية، إمبراطورة روسيا، كانت في عدادهم.

ويوم الاثنين ٣٠ آذار، ذهب فولتير إلى قصر اللوفر حيث كانت الأكاديمية الفرنسية ما زالت تحتفظ بمقرها. واحتشد السكان على الجسور وفي الشوارع التي سيمرُّ بها. كانت الجماهير تتنحّى ببطء أمامه، وتهرع على الفور خلفه وسط التصفيق والهتافات المتكرِّرة، كما تروي لنا المراسلات، قبل أن تضيف: «خرجت الأكاديمية لاستقباله في القاعة الأولى، وهو شرف عظيم لم تخصِّصه لأي من أعضائها، ولا حتى للأمراء الأجانب الذين تكرَّموا وحضروا اجتماعاتها. ولقد

أُجلس في مكان المدير، وطُلب إليه بالإجماع وبإلحاح أن يقبل ذلك المنصب الذي سيصبح شاغراً في نهاية الفصل... وكان المجلس يغصُّ بالحاضرين إلا السادة الأساقفة الذين تغيبوا جميعاً، إما من باب المصادفة، وإما لأن الروح القدس الذي لا يفارق هؤلاء السادة قد قرَّر ذلك إنقاذاً لشرف الكنيسة أو لكبرياء تاج الأساقفة؛ ولا يخفى على أحد أن الأمر سيان». ولا عجب أن نقرأ هذه الغمزة من قناة رجال الدين بقلم أحد المعجبين بفولتير، ولكن ما جرى صحيح، فالكاردينال دو لوين والكهنة الآخرون في الجمعية لم يجدوا أمامهم خياراً آخر سوى عدم الحضور، نظراً لعدم قدرتهم على منع زملائهم من تكريم العائد الجليل.

وبعد ظهر اليوم نفسه، ذهب فولتير إلى مسرح الكوميديا الفرنسية التي خُصِّص له فيها استقبال تاريخي من جانب فرقتها والجمهور. ثم خرج منها بعد بضع ساعات، وقد هبط المساء، وكانت الجماهير الغفيرة المتقدة حماساً تنتظره: «كان الناس يصرخون: «أحضروا المشاعل، أحضروا المشاعل، لكي يتسنى للجميع الرؤية!»». وعندما ركب العربة، تجمهر الناس من حوله؛ وارتقوا عتبتها، وتعلَّقوا بأبوابها لكي يلثموا يديه... وتوسلوا إلى الحوذي أن يسير على مهل لكي يستطيعوا اللحاق به، وهكذا رافقته مجموعة من الناس يهتفون: «يعيش فولتير!» حتى الجسر الملكي».

ويشير مؤلف المراسلات في حاشيةٍ سفلية: «بما أن أبسط تفاصيل

ذلك اليوم المشهود تكتسب أهمية، لن نفوِّت في هذا المقام التذكير بالزي الذي كان يرتديه السيد دو فولتير. كانت يعتمر جمته الضخمة الرمادية الضفائر التي كان يمشطها يومياً بنفسه والتي تشبه تماماً تلك التي كان يعتمرها منذ أربعين عاماً؛ وكان يرتدي قميصاً بأكمام طويلة مخرَّمة، ومعطفاً فاخراً من فرو الزيبلين أرسلته له منذ بضع سنوات إمبراطورة روسيا، تعلوه قطيفة قانية جميلة، إنما خالية من الزخارف الذهبية...».

ومن المفيد التوضيح أن هذا الأسلوب في معاملة شخصية مشهورة مثل أيقونة حية كان غير معهوداً حتى ذلك الحين. ولقد دخلت النجومية منذ ذلك الحين في العادات - بالنسبة إلى الممثلين والمطربين والرياضيين أو الزعماء السياسيين. وربما يسعنا القول إن الاستقبال الذي حظي به فولتير في آخر زيارة له إلى باريس كان يشير إلى ولادة سلوك اجتماعي سيُكتب له مستقبل واعد.

وبعد ثمانية أيام، أي يوم الثلاثاء ٧ نيسان، أقيم الاحتفال الماسوني في دير اليسوعيين القديم. ولقد جرت مراسمه في الصباح. وكانت القاعة الكبرى «مزينة بستائر زرقاء وبيضاء تعلوها زخارف ذهبية وفضية، فضلاً عن أعلام المحافل وراياتها»، كما يروي لنا مصدرٌ ماسوني.

وهنا كذلك، احتشد الكثيرون لمشاهدة الشيخ الجليل. وعندما ظهر أمامهم، متكئاً على ذراع بنجامين فرانكلين، أي أوروبا الأنوار

تدعمها أميركا الثورة، وفي هذا المكان الشديد الرمزية، شعر الحضور بأنهم شهودُ عيان على تحوُّل العالم.

إنه انقلابٌ، أجل، إنما في جو من الاحتراس والحيطة، بل ووسط التوافق. ففي القاعة حيث أقيم الاحتفال، وُضع تمثال نصفي لفريديريك الثاني، ملك بروسيا، وتمثال نصفي آخر للويس السادس عشر، الأول لأنه كان صديق فولتير وماسونياً شهيراً، والثاني لأن المحفل كان يريد الإعراب عن الإجلال لسلطات المملكة. ولقد اختصر الاحتفال احتراماً لسنِّ «الأخ» الجديد. وكان يبدو هزيلاً، وابتساماته لا تخفي أوجاعه. كان المقرَّبون يعلمون أنه لا يستطيع تسكين أوجاعه إلا بجرعات كبيرة من الأفيون التي يغرق بسببها أكثر فأكثر في نوبات من الارتخاء والنعاس. ولقد أسلم الروح منهكاً بسبب المرض والتكريم، بعد بضعة أسابيع، في ٣٠ أيار.

وقُدِّر للكاردينال دو لوين أن يعيش عشر سنوات بعد، مكرِّساً وقته لأبحاثه العلمية ولفقراء أبرشيته. ولقد فارق الحياة في ٢١ كانون الثاني ١٧٨٨، أي قبل عام ونصف العام على سقوط الباستيل، وقبل خمسة أعوام بالضبط على قطع رأس لويس السادس عشر.

ولا ندري إذا كان الأمر يتعلق بسخرية القدر أو ببادرة ماكرة من زملائه، ولكن الخلف الذي اختير له في الأكاديمية كان شاعراً شاباً يحلو لفولتير أن يعتبره مثل ابن أخيه الأصغر.

٨

ذاك الذي أصبح رمزاً لمنطقة لانغدوك

ماذا يبقى في ذاكرتنا من مؤلفات فلوريان، ثامن شخص يشغل المقعد؟ تبقى كلمات تلك الأغنية التي ندندنها أحياناً حتى اليوم:

إذا كانت متعة الحب تدوم لحظة
فشقاء الحب يدوم مدى الدهر

في العصر الذي عاش فيه، كان الناس يعرفون بالأخص قصصه على لسان الحيوانات التي قيل إنها الأفضل بعد قصص لافونتين. ولا يخلو هذا القول من التضليل. فالكاتبان لا ينتميان إلى الفئة نفسها. فلافونتين هو، بلا شك، من أعظم كتاب القصص الخرافية في الأدب العالمي، بجميع اللغات. ولقد خاض فلوريان غمار هذا النوع الأدبي، ويعثر القارئ لديه أحياناً على بعض الشذرات الثمينة، ولكن قصائده بمعظمها تفتقر إلى ملامح متميزة.

وكان يدرك ذلك تماماً. ففي التوطئة التي كتبها لديوان شعري نشره في عام ١٧٩٢، يقول على لسان محاور مجهول الهوية قد يكون حقيقياً أو من نسج الخيال: «لا تحرق قصصك الخرافية، وكُن على ثقة أن لافونتين بلغ مصاف الألوهة بحيث أن مراتب كثيرة أدنى من مرتبته تبقى رفيعة جداً».

وهذا الانتفاء للغرور صادق، ويميز هذا الرجل كما وصفه معاصروه، ولكنه كذلك حذق. فما دام فلوريان يقارن بمثاله الأعلى، لن يجد القارئ في أعماله ما يستحق إنقاذه من النسيان؛ أما إذا استطاع القارئ أن يضع «الآخر» جانباً، فسيكتشف في نهاية المطاف، وهو يتصفَّح الصفحات الكامدة، عدداً من الصيغ التعبيرية الموفقة، والتي كتب لها البقاء، وإن شاع استعمالها اليوم دون أن يعرف الناس قائلها على غرار هذين الجوابين في قصة: «الفلاحان والسحابة»:

- أما وهذا هو الحال، فلن أنبس ببنت شفة!
فلننتظر أن تصل الأمور إلى خواتيمها؛
يضحك كثيراً من يضحك أخيراً!
الحمد لله أنني لست من يبكي هنا.

أو في قصة راعي البقر وحارس الصيد:
ثم قال له: لو لازم كل صنعته،
لوجدت البقرات من يحسن حراستها.

أو كذلك في قصة الجدجد:
من استتر وتوارى عاش في نعيم وغضارة

في بعض الأحيان، بقي عنوان القصة، ولكن أسيء فهم أمثولتها، كما في قصة الكفيف والكسيح. ففلوريان، على غرار إيزوب الذي استلهمه، كان يريد أن يشيد بنباهة المعوَّقين اللذين وحَّدا قواهما للتغلب على إعاقتهما:

سأحملك، وستكون أنت دليلي
فترشد عيناك خطاي المتعثرة؛
وستمضي ساقاي، بدورهما، حيث تشاء.
ودون أن تقرِّر صداقتنا
من منا يؤدي مهمته على أكمل وجه،
سأكون ساقيك وستكون عينيَّ.

غير أن أمثولة «تعاضد الكفيف والكسيح» اتخذت منذ القرن التاسع عشر دلالة مناقضة لتلك التي توسَّلها المؤلف، ربما بسبب خطأ من رسام الكاريكاتير أونوري دوميه الذي استخدمها للتهكم من تاليران ولويس- فيليب، وأصبحت تشير إلى شركة غير مجدية، بل وتثير السخرية بعض الشيء.

كان فولتير هو الذي أطلع فلوريان على قصص لافونتين. فلقد أقام فلوريان في صباه أكثر من مرة في ملكيته بفرني. وكان الفيلسوف يعطف كثيراً على هذا الفتى الدمث والنبيه الذي أصبح عملياً مثل ابن أخيه الأصغر.

ولد جان-بيار كلاريس دو فلوريان في جبال سيفين، في قلب منطقة لانغدوك، يوم ٦ آذار ١٧٥٥، لأب ينتمي إلى أسرة نبيلة محلية وأمٍّ من أصل إسباني. ونظراً إلى أنه تيتَّم وخسر ثروته باكراً، فلقد أخذه تحت كنفه عمُّ أبيه، الماركيز دو فلوريان الذي كان يعيش في باريس وقد تزوج ابنة أخت فولتير.

وفي مراسلات فولتير، يعثر القارئ على هذه الرسالة المؤرخة في فرني، ١ تشرين الثاني ١٧٦٥: «إلى السيد الماركيز دو فلوريان. إنني مستاء أشدَّ الاستياء، سيدي، لأنك وصلت باكراً جداً إلى باريس، فلوددتُ أن أستبقي عندي طويلاً السيد والسيدة دو فلوريان والسيد دو فلوريانيه».

كان الفتى في العاشرة آنذاك. وفي مراسلات تعود إلى كانون الثاني ١٧٧٥، تطالعنا هذه الرسالة الأخرى الموجهة إليه مباشرة هذه المرة: «إلى السيد الفارس دو فلوريان. يتوجَّه شيخ فرني العليل بجزيل الشكر إلى السيد دو فلوريانيه، ويقبِّله بحرارة... حين سيأتي إلى فرني، سيلتقي شقيقة لعمته الجديدة، تبلغ من العمر حوالى ستة عشر عاماً، وهي جديرة بأن تقترف زنى المحارم مع السيد دو فلوريانيه، لو لم

يردعها خفرها الشديد... هذا كل ما بوسعي أن أطلب من أسرتك التي يُشرِّفني أنني أنتمي إليها بصورة غير مباشرة».

وسيسلك الشاب بعزم المسار الذي رسمه «عمه الأكبر» الجليل. أفلم ينتسب هذا الأخير إلى محفل الأخوات التسع في نيسان ١٧٧٨؟ وها هو «فلوريانيه» ينتسب إليه بدوره في السنة التالية. وفي الوقت نفسه، استهلَّ مسيرة أدبية غزيرة الإنتاج؛ أولاً في المسرح، حيث أصابت بعض مسرحياته نصيباً من النجاح، ثم في أنواع أدبية أخرى مثل الشعر، والرواية الرعوية، والقصة التاريخية، والأقصوصة الشعرية، والأقصوصة النثرية، والقصة الخرافية، والقصيدة الريفية، والخرافة الأخلاقية. وفي عام ١٧٨٢، توجَّت الأكاديمية أحد أعماله الذي يحمل عنوان فولتير وقن جبل الجورا حيث كان يدين نظام القنانة الذي كان ما زال قائماً في بعض نواحي مقاطعة فرانش-كونتي والذي لن يلغى قبل اندلاع الثورة الفرنسية.

وفي عام ١٧٨٤، لحَّن الموسيقار الفرنسي-الألماني جان-بول-إيجيد مارتيني قصيدة راعي الماعز التي ستشتهر تحديداً بكلماتها الأولى: «متعة الحب»، وهي مقتطفة من قصة قصيرة بعنوان سيليستين تروي المغامرات العاثرة ليتيمة من غرناطة، ويسبقها تمهيد يشيد فيه فلوريان بإسبانيا وأدبها ولغتها التي كانت لغة أمه، ويؤكد فيه على وجه الخصوص أن الرجال الذين ألَّف الكاردينال دو ريشوليو منهم الأكاديمية الفرنسية «كانوا يجيدون جميعهم تقريباً الإسبانية

ويترجمون أو يقلِّدون أدباء هذا البلد». ولقد كرَّس سنوات لكتابة اقتباس حر لرواية دون كيشوت سيعتبره معاصروه والأجيال اللاحقة للأسف دون أهمية تُذكر.

وفي ٦ آذار ١٧٨٨، يوم بلغ الثالثة والثلاثين من العمر، انتخب لشغل المقعد الذي شغر بوفاة الكاردينال دو لوين. ولا شك أنه كان قد صنع لنفسه اسماً في عالم الآداب والفنون، ولكنه كان يعرف حق المعرفة أن شهرته تعزى أولاً إلى المكانة الرفيعة التي يتمتع بها «عمه الأكبر».

ولقد قال لزملائه في حفل استقباله الرسمي في الأكاديمية: «شاء بعضكم من أصدقاء وطلاب ورفاق مجد أن يسدِّدوا لي ما ظنوا أنه يتوجب لي. ومدَّ لي جميع الذين ما زال فولتير حياً بالنسبة إليهم يدهم، وساندوا خطواتي المتعثرة، وسحبوني رغم ضعفي، وقادوني في أعقابهم، حتى دخلت هذا المعبد. وعلى هذا النحو، يقوم بعض النقباء المقدامين أحياناً بتكريم جندي شاب لأنهم لمحوه طفلاً يخدم في خيمة قائدهم».

غير أن شبح فيلسوف عصر التنوير لم يكن الحامي الوحيد لفلوريان. فقد كان لديه نصيرٌ كبير القدر وبالغ النفوذ سيساعده طوال حياته، وكان حاضراً في القاعة عندما ألقى العضو المنتخب حديثاً كلمة الشكر، وحظي بنصيبه من المديح. كان ذلك الشخص هو دوق بينتييفر، حفيد لويس الرابع عشر من زواج «غير شرعي»، فجدته كانت

السيدة دو مونتسبان. وعندما بلغ فلوريان الثالثة عشرة، أُلحق كتابع لدى الدوق الذي تعلَّق به على الفور مثل أخ أصغر. ولن يفرِّقهما منذ ذلك الحين سوى الموت.

كان بينتييفر الذي يتحدَّر من سلالة نبيلة لدى أفرادها أملاكٌ وفيرة وموعد مع الموت غالباً في ريعان الصبا قد حصل على تركات كثيرة، وجمع على هذا النحو دون أن يبذل جهداً إحدى أعظم ثروات أوروبا التي نجح في إدارتها ببراعة، حسبما قال معاصروه. كان يملك أراضي لا عدَّ لها ولا حصر في مختلف المقاطعات؛ فقصر رامبوييه كان ملكه إلى أن طلب لويس السادس عشر الحصول عليه لتحويله إلى استراحة للصيد؛ وفي باريس، كان للدوق «مستقرٌّ» في فندق تولوز وهو مبنى فخم سيصبح مقرَّ البنك المركزي.

كان رجلاً يفتقر إلى الطموح وإلى التعالي، عطوفاً كريماً وكئيباً، والأمير الحقيقي الوحيد الذي يتمتع بشعبية حقيقية، ولذلك، لم يتعرَّض له أحد إبان الثورة. ولئن أعدم الملك بالمقصلة في ٢١ كانون الثاني ١٧٩٣، فإن «نسيبه» دوق بينتييفر أسلم الروح في فراشه بعد ذلك بستة أسابيع، في ٤ آذار، غماً وحزناً، وفقاً للمقرَّبين.

غير أن من كان يتمتع بحمايته لم يسلم من الأذى. فلقد أُبعد عن باريس بموجب مرسوم يُحظِّر على النبلاء الإقامة في المدينة، وذهب واستقرَّ في مدينة سو، في بيت ريفي وضعه الدوق بتصرفه منذ بضع سنوات لكي يستطيع أن يكرِّس نفسه لمؤلفاته وسط السكينة. ومن

ملاذه، كتب إلى أحد أصدقائه يقول: «أمضي حياتي بهدوء قرب المدفئة، أقرأ فولتير وأبتعد عن المجتمعات التي أصبحت مضامير مروِّعة يكره فيها الجميع العقل، ولا أحد يشيد فيها بالفضائل بعد اليوم، ويحقِّر فيها الجميع الإنسانية، وهي أولى الفضائل، والاعتدال، وهو أولى الشمائل. إنني راضٍ كل الرضى عن وحدتي...».

ولكنه لن يهنأ طويلاً بوحدته. فلقد جاء من يعتقله في عقر داره، ويسوقه تحت حراسة مشدَّدة، ويرميه في السجن؛ ولولا تدخل بعض الأصدقاء النافذين، لما أفلت من نصل المقصلة.

ولم يُطلق سراحه إلا عندما انتهت فترة الرعب، مع سقوط روبسبيير، في ٢٧ تموز ١٧٩٤. فعاد ليستقرَّ في بيته الريفي، عاقداً العزم والنية، فيما يبدو، على سرد مغامرته العاثرة في رواية، أو في قصيدة طويلة؛ ولكنه كان قد أنهك جسدياً ومعنوياً، بسبب ما تعرَّض له من تنكيل؛ وربما كان يعاني كذلك داء السل. فتوفي في ١٣ أيلول بعد أيام قليلة على خروجه من السجن، ولقد ووري الثرى في مقبرة مدينة سو، حيث أقيم نصبٌ متواضع إحياءً لذكراه، تعلوه تلك العبارة التي تخلو من الادعاء: «هنا يرقد الأديب فلوريان».

***

وعلى غرار كينو، سلفه التليد، غالباً ما اتهم ثامن شخص شغل المقعد بأنه كتب نصوصاً مغرقةً في عاطفيتها. والنبذة التي خصصتها له السيرة العالمية القديمة والحديثة بعد وفاته ببضعة عقود لا تخلو من

القسوة: «لم تُنعم الطبيعة على فلوريان بالصفات التي تميزه بوصفه كاتباً إلا بقدر يسير لم يسمح بانتشاله إطلاقاً من الضحالة. لم يرتقِ كثيراً فلم يسقط قطّ من عل؛ ولم يرتكب أي خطأ جدير بالذكر لأنه لم يجازف. يستمتع القارئ بمطالعة أعماله، وقد ينساها بعد أن يطالعها، دون أن يشعر بأيما حاجة أو رهبة لمطالعتها مرة أخرى». وكانت رقة مؤلف قصيدة متعة الحب تبدو لا تغتفر لا سيما وأن العصر كان عنيفاً. «كانت المأساة تُضرِّج الشوارع بالدماء، فيما حظائر الغنم تزدهر في المسرح»، هذا ما سيكتبه شاتوبريان وهو يفكر تحديداً بتلك السنوات، وربما بفلوريان نفسه، الذي قيل أحياناً إن حظيرة غنمه تفتقر إلى ذئب.

سيجد كينو المتهم بفرط الرقة في فولتير نصيراً جاء من بعده؛ أما فلوريان فسيكون نصيره إميل زولا. «لديَّ خمس أو ست قصص غرام تؤنب ضميري، ودائماً قصة الغرام نفسها، دافني وكلوي، بول وفرجيني، إستيل ونيموران، قلبان شابان يتفتحان على مشاعر الحب، ويمضيان عبر الدروب، وسط افتتان الشمس. من يدري، يا إلهي، ماذا كان سيحلُّ بهؤلاء العشاق لدى بلوغهم من العمر مائة عام؟ ربما ستفوق تجاعيدهم تجاعيد خرفان فلوريان اللطيفة. لقد أسف البعض لعدم وجود ذئب في حظيرة غنمه. وللأسف، ففي حظيرة غنمي المكتظة بالذئاب، ألن يقال إنه كان حرياً بي أن أُدخل إليها خروفاً؟ ولذلك، لا يجدر بنا قطعاً أن نسخر من الأسلاف لأن كل ما أقدموا عليه

من سلوك مثير للاستهزاء هو أنهم بالغوا في الرقة والحنان، وشاهدوا في الحياة حلماً ساحراً، حياة من الضياء، تعمُّها سعادة سرمدية عارمة».

ولهذه المرافعة لمصلحة فلوريان الرقيق قصةٌ تشكل حاشية غير متوقعة لمصيره.

فلقد ألف عام ١٧٨٨ قصيدة رعوية بعنوان إستيل تتضمَّن منذ الصفحة الأولى هذه المناشدة المضطرمة: «السلام عليك يا أوكسيتانيا البهية! أيتها الأرض الأزلية المعشوقة من الشعوب التي عرفتها... أيتها الأرض التي أنجبت الأبطال، والثمار، والكنوز، السلام عليك!» وهذه الرواية القصيرة التي تسرد عشق إستيل ونيموران مكتوبة نثراً، وتتخلَّلها قصائد مغنَّاة. وبالطبع، كانت بالفرنسية، ولكن في الفصل الثالث، وفي أعقاب قصيدة تقول:

آه، لو كان في قريتكم
راعٍ رهيف لطيف
يأسر القلوب في الحال،
ثم نزداد به وجداً وتولهاً،
إنه صديقي؛ ردُّوه لي،
فلديَّ عشقه، ولديه إيماني.

ويضيف فلوريان، خلافاً للتوقعات، ترجمة لهذه الأبيات باللغة البروفنسالية. ويوضح ذلك بقوله : «يقتضي الواجب ترجمة إحدى الأغنيات التي تغنيها إستيل باللغة التي كانت تتكلم بها راعية الغنم تلك. وها هي، كما حفظت في تلك المنطقة:

Aï! s'avé din vostre villagé
Un jounin'é téndre pastourel!... ».

كان بوسع هذا الأمر أن يبدو عادياً؛ ولكنه ليس كذلك. فلم تكن نصوص باللغات المحلية تطبع بتاتاً في تلك الأيام على هذا النحو... ففي ذلك تكريم لا يبدو أن «اللهجات» تستحقه.

وهذا التجاوز للتقاليد الذي ارتكبه فلوريان تكريماً للغة طفولته ستكون له تبعات.

وستبدأ الأمور، مرة أخرى، مع فولتير. فالعبادة التي أُحيط بها الشيخ الجليل في حياته، والتي بلغت ذروتها خلال زيارته الأخيرة إلى باريس، ستستمرُّ بعد مماته. وستقام على الدوام احتفالات إحياءً لذكراه، في جميع أنحاء فرنسا، ولا سيما في شاتوني-مالابري، وهي مدينة صغيرة في الضاحية الباريسية كان يقول إنها مسقط رأسه. ولطالما اعتبرت المصادر بمعظمها أنه قد أبصر النور في العاصمة، ولكنه كان يزعم خلاف ذلك؛ ولقد تبنى صديقه كوندورسي، أثناء سرد سيرة حياته، هذا التأكيد.

وبسبب هذا الخلاف بين المؤرخين على وجه التحديد، لطالما حرص أشدُّ المعجبين بالرجل العظيم على النأي بأنفسهم عن الرواية الرسمية. وكان ذلك حال الأديبين بول أرين وفاليري فيرنييه اللذين أرادا عام ١٨٧٨ أن يحتفلا على طريقتهما بالذكرى المئوية لرحيله. ويروي الأول: «لقد ذهبنا إلى شاتوني حيث ولد فولتير. ذهبنا إليها لإحياء ذكرى الفيلسوف الشهير، فساورتنا الرغبة في أن نتنزه في النواحي. ولما وصلنا إلى سو، شاهدنا النصب البسيط والجميل الذي تعرفونه، متكئاً إلى الكنيسة، تعلوه هذه العبارة: «هنا يرقد الأديب فلوريان». وفي طريق العودة من شاتوني، تفتَّق في أذهاننا موقف تعاطف، وفي المساء، فيما كان أصدقاؤنا يتبادلون الأنخاب على شرف فولتير، اختلسنا من العراب فانوسين بندقانيين لإحضارهما إلى الابن بالمعمودية. ومنذ ذلك الحين، ونظراً إلى أننا علمنا بأن فلوريان كان جنوبياً، أردنا أن نقيم له احتفالاً لوحده. ولذلك، نحتفل كل عام بعيد القديسة إستيل، وسنظل نحتفل به، في مدينة سو».

كان هذان الصديقان اللذان يتنقلان «في محجة» بدورهما شاعرين جنوبيين، من أنصار اللغة الأوكسيتانية التي حمل لواءها فريديريك ميسترال الحائز جائزة نوبل للآداب لاحقاً. ولكنهما لم يكونا على علم بعد بتلك الأبيات المنظومة بالأوكسيتانية التي أدرجت في قصيدة إستيل، ويبدو أن «تعاطفهما» فقط مع شاعر مهمل قد دفعهما إلى تكريم ذكراه ثم إلى اكتشاف أعماله. ومن المؤكد أن الذكرى السنوية

المئوية لرحيل العم الأكبر كانت، «بصورة غير مباشرة»، نقطة الانطلاق لاحتفال دوريٍّ بابن أخيه الصغير الذي أصبح الشخصية الرمزية لجمعية «فيليبريج»، وهي حركة أدبية مكرَّسة لإحياء اللغة الأوكسيتانية وأدبها وثقافتها.

ومنذ ذلك الحين، تُنظَّم كل عام في مدينة سو احتفالات على شرف فلوريان يحضرها عرَّابون مرموقون أمثال ميسترال بالطبع، وكذلك إرنست رونان أو أناتول فرانس أو إميل زولا؛ ولقد ألقى هذا الأخير بهذه المناسبة كلمته التي دافع فيها دفاعاً نبيلاً عن حظائر الغنم الخالية من الذئب.

وخلال الاحتفالات التي أقيمت عام ١٨٨٤، نُظِّم احتفال رمزي أعلن خلاله ميسترال، بالبروفنسالية، وبمهابة: «منذ أربعة قرون، قالت المجالس العامة في منطقة بروفانس القديمة لفرنسا: منطقة بروفانس، ببحرها اللازوردي، وجبالها الألبية وسهولها، تتحد معك يا فرنسا بطيب خاطر ورضى، لا كشيء ثانوي يُلحق بالأساس، بل كأساس يُضمُّ إلى أساس آخر، أي إننا سنحتفظ بامتيازاتنا وعاداتنا ولغتنا».

وبينما كان كاتب رواية ميراي يلقي هذا الخطاب-البيان، كانت زوجته تضع بمهابة إكليلاً من الزهور على التمثال النصفي لفلوريان الذي من المؤكد أنه لم يكن ليتوقع إطلاقاً مثل هذا التكريم.

***

وبالعودة إلى الأكاديمية الفرنسية، كاد «ابن الأخ الأصغر» لفولتير أن يكون آخر من يشغل المقعد التاسع والعشرين. فلدى وفاته، لم يُنتخب خلف له، والسبب أن الجمعية التي أنشأها ريشوليو «ألغيت» بمرسوم صادر عن المؤتمر الوطني الفرنسي قبل ثلاثة عشر شهراً، في آب ١٧٩٣، وتعرَّضت مكاتبها في قصر اللوفر للتخريب والنهب.

كان أعضاؤها يموتون دون أن يُستعاض عنهم بمن يخلفهم، بعضهم لأسباب طبيعية، وبعضهم الآخر على المشنقة، وآخرون في السجن على غرار كوندورسي الذي فضل أن ينتحر عشية إعدامه، مع أنه كان من شخصيات عصر التنوير التي استلهمتها الثورة. ولكن هذه الثورة دخلت في جموح دموي جعلها تطالب بقطع المزيد والمزيد من الرؤوس، وبإهراق مزيد من الدماء. وظهرت الأكاديمية بمظهر مؤسسة تنتمي إلى النظام البائد، ولم يكن كافياً لإنقاذها من الاضطرابات أنها أصبحت معقلاً لفلاسفة عصر التنوير.

في هذه الظروف التي لا يسعنا أن نصفها بالعادية على الإطلاق، من اللافت للانتباه - بل يكاد يكون من قبيل الأعجوبة - أن يخلف فلوريان أخيراً رجلٌ يعرفه خير معرفة، ويكنُّ له من الإعجاب والمودة الأخوية ما جعله يعرب عن الرغبة، على فراش الموت، في أن يُوارى الثرى إلى جانبه في مقبرة سو، وكأن الخوف من انصرام سلسلة الخلافة أثار رغبة التأكيد عليها بمزيد من القوة والإصرار.

٩

ذاك الذي كان يؤله موليير

كان يحلو لخصوم جان-فرانسوا كايافا القول إن موليير يحقد عليه (أو «يحمل ضرساً ضده» كما يقال بالفرنسية). ولا بد لنا من أن نأخذ التعبير بمعناه الحرفي لأن كايافا، الشخص التاسع الذي شغل المقعد، شهد في زمن الثورة، يوم ٦ تموز ١٧٩٢، نبش رفات الرجل العظيم، فارتأى أن ينتزع من الجثة ضرساً ثم أن يرصِّع به خاتماً لكي يحمله معه على الدوام - أو لنقل «ضده».

من الصعب ألا يعتبر الفعل الذي أقدم عليه شائناً بل وتدنيسياً؛ ولقد كان في جميع الأحوال فعلاً يفتقر تماماً إلى الذوق. ولكنه فعل كان في ذهن المعني بالأمر تكريماً للعبقري الذي لطالما أحاطه بالتبجيل.

قبل ثلاثة عشر عاماً، أصدر كايافا في أمستردام، دون الكشف عن هويته، مؤلفاً بعنوان خطاب ألقاه موليير يوم استقباله بعد مماته في الأكاديمية، استهلّه على هذا النحو:

«أيها السادة،

بلغني أنكم ارتضيتم، بعد وفاتي بمئة وخمسة أعوام، أن تمنحوني مكاناً بينكم. لن أشتكي من الحكم المسبق الجائر الذي كان يحظّر عليّ في حياتي دخول الأكاديمية، ولن أنتحب على القرن الذي انصرم بين مماتي وهذه الحياة الجديدة التي أتلقاها، فأنا أحسب أن شهرتي أصبحت أنقى بفضل ذلك، وليس بوسع أحد أقلّه أن ينسب انتخابي إلى مؤامرة. فأنا لم أتملَّق لجهة حامية رفيعة المقام...».

تدعو بعض الفقرات من الخطاب للاعتقاد أنه كتب في عام ١٧٧٨، غداة وفاة فولتير؛ ووفق كايافا، كان مؤلف كاره البشر سيشغل مقعده، بعد مماته. إنها «بُنوَّةٌ» ليست بديهية. فلئن كان عدم انتخاب الكاتب المسرحي العظيم آنذاك وسيظل إلى الأبد من أكثر القرارات التي تندَّمت عليها الأكاديمية، فالحديث عن بُنوَّة روحية بينه وبين فولتير ليس مقنعاً جداً. وفي الحقيقة، لا يسعنا تفسير ذلك إلا بأن مؤلف الخطاب المنتحل كان يشعر بنفسه مرتبطاً بهذين الرجلين العظيمين ارتباطاً وثيقاً.

وفي ما يتعلق بموليير، فقد اتخذه كايافا قدوة في مرحلة مبكرة جداً، وسعى إلى أن يكوِّن لنفسه اسماً في عالم المسرح. فكتب عدة مسرحيات، واستطاع أن ينقلها إلى الخشبة، أولاً في تولوز، مسقط رأسه، ثم في باريس، في مسرح الكوميديا الفرنسية. ولكن ما من مسرحية من مسرحياته تيسَّر لها أن تشقَّ طريقها نحو الخلود، لا مسرحية الأنانية، ولا مسرحية الوصي المخدوع، ولا مسرحية الزواج

الباطل ولا مسرحية المغرور الشاب ولا مسرحية أرلوكان محمد أو الحنطور الطائر. ولقد أصدر أيضاً مؤلفات عن المسرح، لا سيما دراسة تقع في أربعة مجلدات بعنوان في فن الملهاةعام ١٧٧١،، وكان يتصدر صفحة الغلاف عنوان ثانوي طويل هو التالي : وصف مفصَّل معلَّل لمختلف أجزاء الملهاة وشتى أنواعها تعقبه دراسة عن المحاكاة حيث نقارن محاكاة موليير والحديثين بالأعمال الأصيلة، من خلال أمثلة مستقاة من أفضل ممثلي الملهاة من جميع الأمم، وفي الختام عرض لأسباب انهيار المسرح وسبل إعادة إحيائه. ثم، وبعد ثلاثين عاماً، أصدر مؤلفاً آخر عنوانه دراسات حول موليير أو ملاحظات عن حياة هذا الكاتب وعاداته وأعماله، وعن طريقة تمثيل مسرحياته. كما شرع «يردُّ الاعتبار» إلى واحدة من أوائل المسرحيات التي ألفها مثاله الأعلى، وهي مسرحية تعاسة الحب التي اعتبر النقاد أن من الصعب تمثيلها؛ فبسَّط الحبكة، مع الاحتفاظ بفصولها الخمسة، مع أنها تُمثَّل غالباً، حتى في أيامنا الراهنة، في فصلين.

وكما نرى، احتلَّ موليير مكانة هامة في حياة كايافا، ما يفسر رغبته في إلقاء «كلمة استقبال في الأكاديمية» باسمه، ويبرِّر ما أجاز لنفسه القيام به حين أخذ «ذخيرة» من جسده عندما نُبشت رفاته من مقبرة سان-جوزيف الباريسية التي قررت السلطات الجديدة إغلاقها. ولقد دُفن فيها جان-باتيست بوكولين دون مهابة، في ليلة باردة من شهر شباط ١٦٧٣. وحتى لجنازةٍ بهذه البساطة، اضطر لويس الرابع عشرأن يتدخل شخصياً لدى رئيس أساقفة باريس للالتفاف حول حظر دفن

الممثلين الكوميديين وفق الشعائر المسيحية. فنبشت عظامه، خلال الثورة، ووضعت في تابوتين من خشب التنوب، وأهملت طوال سبع سنوات، قبل أن توضع في ناووس حجري وتُعرض في متحف. ولن يقام قداس رسمي لموليير وتحظى رفاته بدفن مهيب في مقبرة بير-لاشيز إلا في عام ١٨١٧، أي بعد مرور مئة وأربعة وأربعين عاماً على وفاته، وخمسة وعشرين عاماً على نبش رفاته.

وبالطبع، قصة الضرس هي على سبيل التندر، شأنها في ذلك شأن الخطاب المنتحل لاستقباله في الأكاديمية، ولكن من الواضح أن مُؤلِّه موليير كان يحلم بالظهور بمظهر الشخص الجدير بخلافة معبوده، ولقد وجد بين معاصريه شخصاً أقلّه وافقه الرأي. ويتعلق الأمر بالكاتب ميشال دو كوبيير الذي ألقى يوماً هذه الأبيات متوجهاً إلى طيف موليير:

... كايافا، أوفى تلامذتك
سبرت ملهمته جميع أسرار فنك،
أبصر النور بمشيئته تعالى
لكي يأتي من بعدك ويشرح أعمالك.

غير أن الشاعر الذي نظم هذه الأبيات لم يكن يُعتدُّ برأيه كثيراً في هذا المضمار. فإلى جانب كونه صديقاً مقرَّباً لذاك الذي قرَّظه

هذا التقريظ، كان معروفاً بشطحاته المفرطة ونزعته إلى التملُّق. ومن الأرقى لذكرى «المعلّق» الإشارة إلى أن دار نشر موقَّرة في جنيف أعادت إصدار مؤلفه في فن الملهاة عام ١٩٧٠، بعد قرنين على صدور طبعته الأولى، وإلى أن هذا المؤلف غالباً ما يُذكر حتى الساعة في البحوث الجامعية. ولذلك، ما دام الحكم التقريظي لكوبيير لا يمكن أن يؤخذ على محمل الجد، والمسرحيات الكوميدية التي ألفها كايافا لن تخرج على الأرجح من غياهب النسيان، يُملي علينا العقل أن نعتبر بأنه لا يجوز إنكار قيمة الدراسات التي كرَّسها للمسرح، ولا سيما لأعمال موليير.

وفي ما يتعلق بفولتير، لا يسعنا الحديث عن شغف مماثل. فكايافا لم يسعَ إلى تقليده، ولم يكرِّس له أي دراسة، ولكنه عرفه شخصياً وفي ظروفٍ لا تنسى.

عندما انضمَّ شيخ فيرني الجليل إلى الماسونية رسمياً، في ٧ نيسان ١٧٧٨، خلال زيارته الأخيرة إلى باريس، كانت اللجنة التي كُلِّفت بامتياز شرح تعاليمها له تضمُّ بين أعضائها «الأخ» جان-فرانسوا كايافا الذي كان أحد الأعضاء المؤسسين لمحفل الأخوات التسع.

ولقد انضم فلوريان إليه في السنة التالية - وهو حدث أقلُّ أهمية بكثير من استقبال «عمه الأكبر بصورة غير مباشرة»، ولكنها مصادفة تتسم برمزية فائقة بل شبه عجائبية بالنسبة إلى مصير المقعد التاسع

والعشرين في الأكاديمية، لأن «تسليم العصا» سيتمُّ، بحكم ذلك، في أكثر الظروف وداً، في حين أنها كانت تبدو متعثرة تعثراً لا شفاء منه.

ومع ذلك، فهذان «الأخوان» الماسونيان اللذان تقارب مسار كل منهما مع مسار الآخر بطريقة غريبة، انتهجا، وسط صخب الثورة، مواقف متباينة للغاية. ففيما وجد فلوريان لنفسه ملاذاً في مدينة سو، في بيته الريفي الذي خصَّصه للتأليف والكتابة، متوهماً أن التاريخ سينساه، حاول كايافا الذي كان أقلَّ سذاجة وأقلَّ نزعة نحو التأمل أن ينخرط في معمعة الأحداث بكل جوارحه. فانضم إلى نادي اليعقوبيين، وهو أكثر الأندية الناشطة آنذاك؛ وفي عام ١٧٩١، انتسب إلى الحرس الوطني، وكان قد بلغ من العمر ستين عاماً. وعندما بحث جان–سيلفان بايي، عمدة باريس – وأول من يحمل هذا اللقب في التاريخ، وكان عالم فلك شهيراً، وعضواً في الأكاديمية الفرنسية وفي محفل الأخوات التسع – عن متطوِّع للإشراف على نقل شحنة من الدقيق آتية من منطقة نورماندي، ولم يجد متطوِّعاً لشدة ما كانت العملية محفوفة بالمخاطر في تلك الأيام التي تنتشر فيها المجاعة والريبة، عرض كايافا أن يؤدي هذه المهمة، وكاد أن يُعدم بدون محاكمة. وفي عام ١٧٩٣، عُيِّن «مفوضاً مراقباً» في ثلاث محافظات جنوبية. وفي هذه الحالة كذلك، كان يجازف مجازفة شديدة، فلقد احتجزته السلطات المحلية لبضعة أسابيع، واستوجب الأمر أن يتدخل وزير الداخلية بقوة لكي يطلق سراحه.

وكما نرى، كان المواطن كايافا مستعداً للمجازفة بحياته لأداء دور في المسرحية العظيمة التي تدور أحداثها أمامه. كان دوراً ثانوياً، إنما يكفي لكي يقيم الدليل على رغبته في خدمة بلده. وإذا كان لديه طموح أعظم، فهذا الطموح لم يكن في مضمار السياسة. كان حلمه، كما يتجلى في كتاباته في تلك السنوات، أن يصبح بمثابة «الموكَّل بشؤون المسرح» في فرنسا خلال سنوات الثورة، فلقد أمعن النظر في «أسباب انحطاط المسرح» وكتب عنها كثيراً - وهذا هو بالضبط عنوان المؤلف الأخير الذي أصدره-، وكان يتمنى أن تتيح له الأزمنة الجديدة فرصة اقتراح حلول علاجية، لا سيما دفاعاً عن حقوق كتاب المسرح التي اعتبر أنها مهضومة بسبب متعهِّدي الحفلات ومديري الفرق المسرحية. ولإلقاء الضوء على هذا «الانحطاط»، كان يذكِّر معاصريه على الدوام بالعصر الذهبي للمسرح في القرن السابع عشر، ويحتفي، على طريقته، بعبادة موليير.

***

لم يكن الاختلاط المثابر لكايافا بالعظام كافياً بالطبع لارتقائه إلى مصافهم، لا بل كان بوسعه، بحكم المقارنة، أن يزيد من تحجيمه. وكان بوسع هذا الأمر أن يمرَّ دون أن يثير انتباهاً لو لم يخطر لأكثر مؤلفي الكراريس الهجائية قساوةً في عصره أن يصطفيه ويجعل منه أنموذجاً للضحالة الأدبية. ففي الدليل الصغير لرجالنا العظام، وهو مؤلف ممتع ومسمومٌ على السواء، شنَّ أنطوان دو ريفارول هجوماً ضارياً بلا رحمة على عددٍ من معاصريه، ولم يُوجِّه إليهم انتقادات

مباشرة بل انتهج الغلوَّ في مديحهم. كان كايافا قد انتخب توّاً رئيس «متحف باريس»، وهي جمعية تضمُّ علماء وفنانين وأدباء، تأسست قبل سنوات قليلة بمبادرة من بنجامين فرانكلين، وكانت مكرَّسة للنهوض بجودة التعليم ومنبثقة في الواقع عن محفل الأخوات التسع.

ورأى ريفارول في لقب «الرئيس» الذي تسربل به كايافا بمثابة استفزاز. فظهر الرجل المسكين أمامه على حين غرة تجسيداً للكاتب المدَّعي والتافه على السواء. وعوضاً عن الاكتفاء بصلبه مثل المئات من المكتتبين غيره، فقد ميَّزه عنهم جميعاً إذ أهداه عمله برمته.

«إلى السيد كايافا دو لستاندو، رئيس متحف باريس الكبير.

«سيدي الرئيس، نهديكم بأكثر أمارات الرضا هذا الدليل لجميع العظام الذين ينتشرون في متاحفنا منذ تأسيسها وحتى سنة النعيم ١٧٨٨. كم تلقيتم من تكريم إما شعراً وإما نثراً! فأنتم لستم مثل ملوك هذه الدنيا الذين لا يطلبون من رعيتهم سوى توقير يُوزن ثقله بالمال؛ فخزينتكم لا تمتلئ إلا بالكراريس الخفيفة، والمسرحيات الزائلة، والنصوص الارتجالية والأغاني، وأكبر عملة نقدية في إمبراطوريتكم لم تتجاوز قط الرسالة المهداة؛ ولكن جميع هذه الأعمال التي تعرب عن حبهم للمتحف وتذوقهم للأدب كانت ستفنى دون رجعة بدوننا، وكنا سنشاهد الكثير من الأزهار تذبل على مذابحكم!

«وإذا كان الدليل الملكي، وهو الكتاب الوحيد الذي يضم بين دفتيه الحقيقة، يعطي أفضل فكرة عن موارد دولة بوسعها أن تتحمل هذه الأعباء والنفقات، أبوسع دليلنا ألا يبالي بعظمتكم وعظمة الأمة،

عندما نثبت فيه أن بمقدور رئيس متحف جباية أكثر من مئة ألف بيت شعر سنوياً من الشبيبة الفرنسية، والسير في العاصمة على رأس خمسمئة أو ستمئة شاعر؟».

لقد وجد جميع الذين قرأوا ريفارول مُؤلَّفه ممتعاً وبارعاً ولاذعاً في ما عدا المساكين المذكورين فيه بالطبع. واليوم، لا يسعنا إلا أن نبدي إعجابنا بإبداعاته الهجائية وفنِّه المتقن الذي يقوم على إعدام ضحيته دون محاكمة.

هل ردَّ كايافا على هذا الهجوم القاتل؟ لعلَّه لم يفعل. وفي جميع الأحوال، لا يعثر المرء على أي أثر في المراجع لجدال قام بينه وبين الناقد الذي اضطهده. وهذا لا يهمُّ أصلاً. فهذه الخلافات الباريسية ستبدو تافهة بعد فترة قليلة. وتعود الطبعة الأولى من دليل الرجال العظام إلى عام ١٧٨٨ والطبعة الأخيرة إلى عام ١٧٩٠. وفي غضون ذلك، كانت فرنسا قد دخلت في مرحلة مختلفة تماماً من تاريخها، مرحلة لم تعد فيها الإعدامات الأدبية الخالصة تثير البكاء أو الضحك أو تشحذ الضغائن.

***

اجتاز كايافا تلك السنوات العاصفة بهذا القدر أو ذاك من المشقة. لم يُخلِّف فيها بصمته، ولكنه تحاشى أقلّه أن يزهق فيها حياته مثل الكثيرين من معاصريه، ومثل الكثيرين من أعضاء محفله - دانتون، وديمولان، أو العمدة وعالم الفلك بايي. ولدى تصفُّح محفوظات الأخوات التسع، يتراءى لنا أحياناً أن فرنسا بأكملها انتسبت إلى هذا

المحفل. وربما يجدر بنا توضيح هذه المسألة: فالسنوات التي أعقبت الانضمام الرسمي لفولتير كانت بمثابة عصر ذهبي بالنسبة إلى «محفله». فلقد انضمَّ إليه علماء وفنانون وأدباء وسياسيون، بعضهم لخدمة مُثُلهم العليا، وبعضهم الآخر لخدمة مسيرتهم المهنية؛ فانتشر حضورهم في كل مكان - في المجالس التشريعية، وفي النوادي الثورية، وفي الحكومة، وفي الأكاديمية ... وأحياناً قرب منصة الإعدام. وسيدوم كل ذلك خمسة عشر عاماً؛ ومن بعدها، سيتداعى المحفل، ثم يندثر، ولن يبقى منه سوى حفنة من الأسماء المرموقة وبعض الذكريات المجيدة.

أما في ما يتعلق بكايافا، فانتماؤه إلى محفل الأخوات التسع لا يعزى إطلاقاً إلى هذا الولع بالطبع لأنه كان من بين أعضائه المؤسسين العشرة. ولم يتبوأ بفضله كذلك مناصب عليا خلال الحقبة الثورية. ولكن من المحتمل جداً أن يكون قد استفاد من صداقاته مع الماسونيين عندما استصوبت السلطات، إبان الخروج من سنوات الرعب والحمى التدميرية، إعادة إنشاء الأكاديميات، بشكل أو بآخر.

وابتداء من عام ١٧٩٥، أنشأ المؤتمر الوطني «معهد العلوم والفنون» الذي سيصبح اسمه، على هوى الحقب وأنظمة الحكم، «المعهد الوطني» أو «المعهد الإمبراطوري» أو «المعهد الملكي» أو بكل بساطة «المعهد الفرنسي»، وسينتخب كايافا لعضويته عام ١٧٩٨. وفي عام ١٨٠٣، توزع المعهد على «فئاتٍ» كانت الثانية منها هي فئة اللغة والآداب؛ وسرعان ما ستستعيد اسم الأكاديمية الفرنسية. ولقد انتخب فيها كايافا خلفاً لفلوريان. ومما يدعو للمفارقة أن يأتي الكبير

خلفاً للأصغر سناً. فالعضو الجديد الذي ولد عام ١٧٣١ كان في الثانية والسبعين من العمر، أما سلفه فقد ولد عام ١٧٥٥.

سيشغل جان-فرانسوا كايافا المقعد التاسع والعشرين طوال عشر سنوات. وسيكون فيه، إذا ما صدقتِ المحفوظات، أكاديمياً مُجداً ومثابراً.

في البداية، ظلَّت الاجتماعات تُعقد في اللوفر، كما كان الحال في النظام القديم. ولكن الإمبراطور نابوليون قرَّر عام ١٨٠٥ أن ينقل المعهد إلى كوليج الأمم الأربع القديم الكائن في رصيف كونتي. ولقد تحوَّل هذا المبنى الذي شُيِّد بفضل دعم مالي من الكاردينال مازاران لفترة وجيزة إلى سجن خلال سنوات الثورة العاصفة. وستصبح كنيسته القديمة التي تعلوها قبة مهيبة صالة الاجتماعات الرسمية، والمكان الرمزي للأكاديمية الفرنسية الجديدة.

وبالتالي، يجدر بنا القول، توخياً للدقة، إن كايافا كان أول شاغلي المقعد التاسع والعشرين الذي يجلس «تحت القبة».

وستوافيه المنية في ٢٧ حزيران ١٨١٣ في مدينة سو، على غرار فلوريان. كان قد قصد بعض الأصدقاء الذين يقيمون فيها، فألمت به وعكة مفاجئة. وطلب أن يدفن، إذ خالجه الشعور أن أجله قد حان، قرب النصب المتواضع المخصَّص لسلفه.

وسيظلان جارين إلى أن نُقل الآخر - دون رفيقه - إلى حديقة فيليبر.

١٠

ذاك الذي حُكم عليه بالإعدام مرتين

كان جوزيف ميشو ثالث وآخر شخص شغل المقعد وعاش في ظلِّ الثورة الفرنسية، وهو كذلك ذاك الذي حفلت مسيرته أكثر من أقرانه بمغامرات عجيبة غريبة.

ولد في منطقة سافوا عام ١٧٦٧، وغادرها في طفولته مع والديه؛ ودرس في المدرسة القديمة للآباء اليسوعيين في بور-أن -بريس؛ وعمل لبعض الوقت موظفاً في مكتبة بمدينة ليون وكان يؤلف في الوقت نفسه نصوصه الأدبية الأولى؛ ثم انتقل إلى باريس في سن الثالثة والعشرين، وكتب مقالات في صحف متنوعة مقرَّبة من بلاط لويس السادس عشر. ولكن ذلك النصير للملكية لم يكن مؤيداً للنظام القديم بكل ما للكلمة من معنى. كان معجباً بالفلاسفة وعاشقاً للحرية ومناهضاً لكل أشكال القمع، وسيعيش لفترة طويلة هارباً ومنبوذاً، في ظلِّ حكومات مختلفة، قبل أن يحظى بالتقدير والتكريم.

في سنوات النشوة التي أعقبت سقوط الباستيل، استهوته الأفكار

الثورية، فنظم قصيدة يُمجِّد فيها جان-جاك روسو لا بل كتب في عمل نُشر عام ١٧٩٤:

إذا خضعت جبهتي الجمهورية
لنير الملوك والاستبداد الكافر،
فاللحد سيعيد لي حقي وحريتي
وملاذي الأخير هو الخلود!

وسيزعم فيما بعد أن هذا الرفض المتكلِّف للملكية كان مجرد ذريعة للإفلات من حملات الاضطهاد دون الاضطرار للعيش في المنفى، وأن مبادئه الراسخة لم تتغير. ومن المؤكد أن هذا التبدل في الآراء، سواء أمتصنعاً كان أم صادقاً، كان عابراً. وخلال الأحداث الدامية التي وقعت في ٥ تشرين الأول ١٧٩٥، دافع دفاعاً متحمساً عن الملكيين وكاد أن يقضي نحبه.

وهذه الحادثة المعروفة بتاريخها في التقويم الجمهوري بأنها «انتفاضة ١٣ فنديميير»، تشكل منعطفاً في تاريخ الثورة. فبعد سقوط روبسبيير، وانتهاء حقبة الرعب، بادر أنصار الملكية الذين اعتقدوا أن البلاد شهدت ما يكفي من الاضطرابات وأن الوقت قد حان لعكس مسار الأمور، بالدعوة لتظاهرات حاشدة يحدوهم الأمل بإرغام المؤتمر الوطني على إعادة النظام الملكي دستورياً. ولكن المؤتمر رفض الإذعان، وبعد أن ضمن الحصول على دعم الجيش، أمر بإطلاق

النار على المتظاهرين. ولقد سقط، حسب تقديرات المعاصرين، ما يقرب من ثلاثمئة قتيل، بمعظمهم قرب كنيسة سان-روك. وبالتالي، سُحقت الانتفاضة، وأُنقذت الجمهورية، ولكنها أصبحت تحت رحمة العسكريين، ولا سيما ضابط شاب كان دوره حاسماً في ذلك اليوم، فلُقِّب لبعض الوقت، بلقب «الجنرال فنديميير»، وهو نابوليون بونابارت.

واضطر ميشو بسبب دعوته إلى الانتفاضة في صحيفته التي كانت تحمل عنوان اليومية إلى مغادرة باريس على وجه السرعة. ولقد وجد ملاذاً لدى بعض الأصدقاء، في نواحي مدينة شارتر؛ ولكن قوات الأمن سرعان ما اكتشفت مخبأه وساقته إلى العاصمة سيراً على الأقدام مخفوراً بدركيين من الخيَّالة. ولقد سُجن، بانتظار محاكمته، في كوليج الأمم الأربع القديم الذي كان قد تحوَّل إلى سجن. كان وضعه لا يُبشِّر بالخير. فالسلطات الجمهورية التي خافت كثيراً مما جرى، كانت حريصة على الضرب بيد من حديد لثني الملكيين عن تكرار المحاولة.

وكان السجين يقتاد كل يوم، تحت حراسة مشدَّدة، من مكان احتجازه إلى قصر التويلري حيث يوجد مقرُّ المحكمة العسكرية التي ستحاكمه. وكان يُستجوب هناك بشأن مقالاته المتمردة، واتصالاته مع المهاجرين، ودوره في التظاهرات. وخشي ميشو بئس المصير. ولقد توسط له المقرَّبون لدى نائب من منطقة ليون كان يتمتع ببعض النفوذ، ولكن ذلك النائب قال إن السيف سبق العذل.

وكان شخص واحد لا يبدو راضياً ومذعناً لصدور حكم بحقه: وهذا الشخص هو نيكولا جيغيه الذي درس مثله في بريس وانتقل بدوره إلى باريس طمعاً بالشهرة في مضمار الآداب والفنون. كان موجوداً في جادة الشانزيليه يوم رجع الدركيان بميشو من شارتر. فلقد جعلا الأسير يمرُّ بهذه الجادة، وتعرَّف إليه جيغيه، واستاء لرؤيته مهاناً ذليلاً على هذا النحو. ولكن ماذا بوسعه أن يفعل؟ اكتفى بأن وجَّه إليه تحية مودة من بعيد، ثم تبعه على مسافة لكي يعرف إلى أين يساق.

وفي اليوم التالي، وكذلك في اليوم الذي تلاه، عاد يحوم حول كوليج الأمم الأربع. وعلى هذا النحو، استطاع أن يتحقَّق من الطريق الذي يسلكه الدركيان لسوْقِ صديقه إلى التويلري من أجل التحقيق معه، ثم يعودان به إلى السجن. وفي كل مرة، كان يقتفي أثرهم من بعيد خفيةً. وفي غضون ذلك، كان يسعى إلى استجلاء المصير الذي ينتظر السجين. وفي صباح ٢٦ تشرين الأول، سرت إشاعةٌ أن التحقيق قد انتهى وأن الحكم سيصدر بحق ميشو اليوم نفسه، أو في الغد. فقرَّر جيغيه أن يتدخل، مهما كلَّف الأمر.

في ذلك اليوم، قبيل الظهيرة، تدبَّر أمره ليصادف الموكب الصغير عند مخرج الجسر الملكي. فتظاهر بأنه يلتقي صديقه لأول مرة بعد طول غياب، وسأله عما أتى به إلى هنا، وعن وجهته، وإذا كان يقبل بتلبية دعوته إلى الغداء.

أدرك ميشو في الحال أن جيغيه يخطِّط لأمر ما. وخشية إيقاظ شكوك مرافقيه، تظاهر بأنه لم يكترث للدعوة ويريد متابعة طريقه.

قال له: «لا أستطيع أن أتناول الغداء في الحال. لديَّ قضية بسيطة عليَّ تسويتها في التويلري. ليس هناك شيء خطير، يجب أن أجيب عن بعض الأسئلة فقط لا غير. لن يستغرق ذلك وقتاً طويلاً. سأوافيك لاحقاً».

ولكن جيغيه أصرَّ: «لن تتخلَّص مني بهذه السهولة! لا شيء يدعو للعجلة للذهاب إلى التويلري. سيكون المكان مزدحماً بالناس، ولن يبدأوا بك. فلنتناول الغداء أولاً!». وأشار إلى الدركيين: «لا ريب أن هذين السيدين لم يتناولا الغداء بعد، وأنهما لن يرفضا شريحة من لحم الضلع وكأساً من النبيذ الأحمر! وها هو المطعم على بعد خطوتين منا!».

وبعد تردُّد، اقتنع «هذان السيدان». أوحى جيغيه لهما بالثقة. كان رجلاً متقدماً في السن، وراقصاً سابقاً، وممثلاً قديماً، يتمتع بالهيبة واللباقة الاجتماعية. فوجد السجين والصديق والحارسان أنفسهم على مائدة الطعام. طلبوا نبيذاً، وبعض المقبّلات، وتجاذبوا أطراف الحديث بخفة. ووجَّه صاحب الدعوة حديثهم نحو منطقته الأم، لابريس، المعروفة كما قال، بمطبخها الشهي، ومدح بالأخص الدجاج فيها الذي لا يضاهى. سال لعاب الدركيين على ما يبدو. فهتف قائلاً: «أيها السيدان، بما أنكما لا تعرفان دجاج منطقتنا، فأنا حريص على إقناعكما بأن ما من دجاج يضاهيه في المقاطعات الثلاث والثمانين. أيها النادل، آتنا بدجاجة من بريس! ولا تغشنا! فلتكن من بريس حقاً يا صاح وليس من لومان... وأنت يا ميشو، الخبير فيها، إذهب إلى

المطبخ وتحقّق من أن هؤلاء المحتالين لن يخدعوننا! بصحتكما أيها السيدان!».

وبينما كانوا يتبادلون الأنخاب، نهض ميشو، متمهلاً، ونزل الدرجات القليلة التي تفضي إلى مطبخ المطعم. وبعد بضع دقائق، بدأ القلق يساور الدركيين. ولكن مضيفهما طمأنهما: فصديقه يشرف بالتأكيد على شيٍّ الدجاج. وانقضت بضع دقائق أخرى. وعندما قرر «هذان السيدان» أخيراً النزول إلى المطبخ، إذ تبين لهما أن السجين قد تغيَّب أكثر من اللازم، كان هذا الأخير قد اختفى.

لقد خرج من باب موارب وأفلت من براثنهما. وكان ذلك لحسن حظه لأن المحكمة التي يجب أن يمثل أمامها حكمت عليه في اليوم التالي بالإعدام لأنه «أثار الفتنة ودعا إلى عودة النظام الملكي»، من خلال مقالاته. وسيعدم بالمقصلة - إنما صورياً فقط! - في ساحة غريف التي ستصبح ساحة قصر بلدية باريس فيما بعد.

وأُلقي القبض على جيغيه الجسور وأُخضع لاستجواب مشدَّد وتعرَّض للتهديد بأنه سيلقى المصير نفسه لذاك الذي ساعده على الفرار. ولكنه احتفظ برباطة جأشه حتى النهاية، مؤكداً كل يوم حسن نيته وبراءته. ورغم ذلك، أمضى شهراً في السجن، قبل أن يطلق سراحه.

أما ميشو فلقد لجأ لبعض الوقت إلى سويسرا، ثم عاد في الخفاء إلى الأراضي الفرنسية، واختبأ عند بعض أقاربه. في هذه الأثناء، كان

قد أنشئ نظام جديد، هو حكومة المديرين، وعد بتضميد جراح الأمة؛ وسرعان ما استطاع السجين الفار أن يحصل على تخفيف الحكم الصادر بحقه، قبل أن يتمكن من إلغائه نهائياً.

وشرع يتهيأ لاستئناف حياته الطبيعية عندما وقع انقلاب سياسي جديد في باريس: فلقد نكث «المديرون» الثلاثة الذين كانوا يحكمون البلاد فجأة بوعودهم للمصالحة وقاموا بانقلاب حقيقي عُرف في التاريخ باسم «يوم الفروكتيدور». فلقد شعروا بتهديد المتطرفين من كل المشارب والمذاهب، وقرروا أن يعيثوا في الأرض فساداً؛ ولكنهم امتنعوا عن اللجوء إلى الإعدامات الجماعية التي تعيد إلى الأذهان بشدة حقبة الرعب البغيضة. فاختاروا إعداد قائمة بالشخصيات المنبوذة، ضمت جنباً إلى جنب، على نحو غريب، جمهوريين عنيدين وملكيين متطرِّفين؛ وكان اسم جوزف ميشو يحتل مكانة بارزة فيها.

أرسل المعتقلون أولاً إلى ميناء روشفور في أقفاص حديدية، ثم نقلوا فقراء معدمين إلى غيانا على متن سفن، ومن بينهم حوالى ستين نائباً وصحافيون وعسكريون ورجال كنيسة، وغيرهم. ولدى وصولهم إلى هناك، لم يسجنوا، ولكنهم أُسكنوا في أماكن موبوءة، فأصيبوا بالملاريا والحمى الصفراء وغيرها من الأمراض الاستوائية؛ ويُقدَّر عدد الذين قضوا نحبهم بما كان يدعى آنذاك «المقصلة الجافة» بمئة وسبعة وثمانين شخصاً.

ولم يتيسَّر لذاك الذي سيصبح عضواً في الأكاديمية أن يفلت من هذا المصير إلا بالعودة إلى حياة التشرُّد. وفي تلك الفترة، نظم دبيع

رجل منبوذ وهي قصيدة مطوَّلة سينال بعض الشهرة الأدبية بفضلها بعد سنوات. ولكنه تفادى حينذاك الظهور علناً، وأمضى معظم وقته قرب جبال الألب، على ضفاف نهر الأين.

هائماً على هذه الصخور،
مهب العواصف الديجور
استعدت في وحشة مغاورها
سكينةَ وطني، واحسرتاه، فقدها...

***

عندما استولى بونابارت على السلطة عام ١٧٩٩، بواسطة الانقلاب الذي حصل بتاريخ ١٨ برومير، انتابت الفارّ مشاعر ملتبسة. لم يكن مستاءً لرؤية القادة الذين نبذوه يسقطون، فسارع في وضع حد لتشرُّده والعودة إلى العاصمة. غير أنه لم يستطع أن ينسى أن الرجل المنتصر كان ذاك الذي أمر بإطلاق النار على رفاقه الملكيين، منذ أربع سنوات. ولذلك، كتب ميشو، بعيد عودته، مقالة هجائية بعنوان وداعاً بونابارت، أكد فيها أن الضابط الكورسيكي قد أثار آمالاً عريضة، ولكنه خانها حين استأثر بالسلطة. ولم يكن «الوداع» المذكور وداعاً «لبونابارت» بل لصورة جامع الشمل - وربما كذلك الشخص الذي سيعيد ملكية آل بوربون - التي أراد بعضهم أن يجسدها. ولاقت المقالة

استحساناً شديداً، وأعيد طبعها عدة مرات، وتوزعت على نطاق واسع سراً، فأُلقي القبض على مؤلفها وزُجَّ به في سجن تامبل.

حمله هذا الاعتقال الجديد على التفكير ملياً. فهل يستمرُّ في حياة المناضل، ويعيش في خطر دائم، وفي حالة من الهروب المتواصل؟ كان بونابارت قد استقرَّ في الحكم، وعرف كيف ينشر السلام في البلاد بعد سنوات عاصفة كثيرة؛ وكان الناس يؤلهونه، لا سيما وأنه قد بدأ يحرز انتصارات في الخارج أولها معركة مارنجو، بمنطقة بييمون، في شهر حزيران من عام ١٨٠٠ . فماذا يستفيد إذا ما واصل محاربته؟ كان الأمر أشبه بمحاربة طواحين الهواء!

لطالما كان ميشو شغوفاً أشدَّ الشغف بالتاريخ. ولكنه قال لنفسه إن هناك أساليب مختلفة لممارسة هذا الشغف. فبوسع المرء أن يشارك شخصياً في الأحداث، لمحاولة تغيير مسار الأمور؛ وهذا ما فعله حتى الحين، دون أن يحالفه النجاح، ومع مواجهة الكثير من المتاعب. وبوسع المرء كذلك أن ينتهج نهجاً مغايراً كلياً في تناول التاريخ، وهو نهج البحث والاختصاص العلمي والتأليف، أي باختصار نهج المؤرخين. وقد تعهَّد بأن يسلك هذا الطريق الأخير بقية حياته.

فانغمس بكل جوارحه في هذا المجال منذ خروجه من السجن. وبعد مرور عام، نشر مؤلفاً عن الهند يكفي عنوانه للتشديد على اعتزامه البقاء بمنأى عن الخلافات السياسية الفرنسية وهذا العنوان هو تاريخ ارتقاء امبراطورية مايسور وأفولها في عهدي حيدر علي وتيبو صاحب.

وفي أسفل صفحة الغلاف، ذُكر عنوان الناشر: طبع في باريس، لدى مطبعة ومكتبة جيغيه وشركائه، شارع غرونيل-سانت-أونوري. هكذا، أصبح منقذه ناشراً لمؤلفاته...

وبعد سنتين، في عام ١٨٠٣، صدرت له قصيدة ربيع رجل منبوذ التي كانت راقدة في كراريسه. نظمها في فترة تشرُّده، وعنوانها يوحي بعمل نضالي، ولكن هذه القصيدة المطوَّلة كانت تأملية وريفية بصفة أساسية. وعلى الصفحة الأولى، بوسع القارئ أن يصادف هذه المرة: طبع في باريس، لدى مطبعة ومكتبة جيغيه وشركائه، شارع بونزانفان...

وستنطلق دار النشر بمقرِّها الجديد في مشروع ضخم هو المعجم المعنون السيرة العالمية القديمة والحديثة الذي أشير إليه مراراً في هذه الصفحات، وهو معجم تضمن، في ذروته، أربعة وثمانين مجلداً، وستلاقي طبعاته الكثيرة رواجاً في جميع أنحاء أوروبا. وفي التصدير الذي أعدَّه الناشرون، أعطي لهذا العمل الطموح تعريف بأنه «التاريخ، بالترتيب الأبجدي، للحياة العامة والخاصة لجميع الرجال الذين تميزوا بمؤلفاتهم وأعمالهم ومواهبهم، وفضائلهم أو جرائمهم». وساهم فيه مؤلفون كثيرون تظلُّ مقالاتهم التي تتميز في أغلب الأحيان بتوثيقها المحكم وأسلوبها الممتع مصدراً لا غنى عنه لمعرفة الحياة الثقافية في فرنسا حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر.

والصانع الحقيقي لهذا العمل الموسوعي هو لويس- غابرييل ميشو، الأخ الأصغر لجوزيف. فقد توفي صديقهما جيغيه عام ١٨١٠،

فيما كانت المجلدات الأولى من السيرة العالمية قيد الإعداد؛ أما ذاك الذي سيصبح عضواً في الأكاديمية فسرعان ما انصرف عن هذا المشروع النشري وكرّس وقته وطاقته لموضوع واحد لن يكلَّ أو يملَّ منه، وسيرتبط به اسمه ألا وهو الحروب الصليبية.

تفتَّق لديه هذا الشغف يوم عهدت إليه أديبة اسمها صوفي كوتان كان يعرفها معرفة حميمة، مخطوطة رواية، راجيةً منه أن ينشرها ويكتب لها توطئة. كانت الرواية بعنوان ماتيلد، وتروي قصة حب بين شقيقة ريشار قلب الأسد وشقيق صلاح الدين الأيوبي. وعلى الرغم من أن الرواية من نسج الخيال، فهي لم تفتقر إلى أسس واقعية، لأن ملك إنكلترة اقترح بالفعل على عدوِّه مثل هذا الزواج بين الأسرتين ، ويؤكد ذلك مؤرخون مشهود لهم بالرصانة. وكان الأمر بالطبع مجرد مناورة سياسية لا أمل في أن تصيب هدفها، ولكننا نتفهم أن تشكل مصدر إلهام لأعمال روائية. وكانت رواية السيدة كوتان محكمة السرد، أنيقة الأسلوب، وتعكس حرصاً على احترام الحقائق التاريخية. ولكن الأديبة نفسها لم تكن راضية عن معلوماتها في هذا المجال، وكانت ترجو أن يقدِّم ميشو الذي قد أصدر للتو كتابه عن مايسور بعض المفاتيح إلى القراء غير المتآلفين مع أمور الشرق لكي يفهموا العصر والأحداث.

وقبل أن يكتب هذه التوطئة، انبرى ذاك الذي سيصبح عضواً في الأكاديمية يطالع كل ما يقع بين يديه عن الحروب الصليبية.

وكان الأمر بمثابة حقيقة تجلَّت له. وكلما تبحَّر فيها، زادت رغبته في البحث والتنقيب عن الشخصيات والبلدان والدوافع والرهانات والمواجهات والتحالفات. ولن يكفَّ بعد ذلك عن الكتابة والنشر حول هذا الموضوع، ولكنه استهلَّ ذلك بالتأكيد بما وعد به السيدة كوتان: وعندما صدرت رواية ماتيلد عام ١٨٠٥، كانت التوطئة تحمل توقيع «ج. ميشو، ناشر» وتقع في ١١٤ صفحة في مجلَّد يضمُّ ٢٤٤ صفحة...

ويبدو لنا هذا النص الذي شاء به أن يصدِّر كتاب صديقته، مع مرور الوقت، بمثابة تمهيد لأبرز أعماله وأضخمها وهو تاريخ الحروب الصليبية، الذي سينشر منه الأجزاء الأولى عام ١٨٠٨، وسيواظب على تصحيح بعض فصوله حتى وهو على فراش الموت، بعد ثلاثين عاماً. فهذا الصحافي الذي تحوَّل إلى مؤرخ كان يعتزم أن يصدر طبعة جديدة كلما اكتشف وثيقة لا يعرفها بعد أو شرحاً لم يفكِّر فيه من قبل. وفي الواقع، ستصدر طبعات كثيرة بعضها يضمُّ أكثر من ستة آلاف صفحة من القصص والخرائط والرسوم و«المستندات الإثباتية»، وكذلك إحصاءً دقيقاً لكل ما كتب عن هذا الموضوع حتى ذلك الحين.

زدْ على ذلك أن ميشو، في اليوم الذي شاهد أضخم هذه الإصدارات يخرج من المطبعة، أحسَّ بالندم والعار لأنه ما زار قط تلك البلدان التي وصفها، وقرَّر، على الرغم من اعتلاله، أن يزورها.

كان ذلك عام ١٨٣٠، في الأسبوع الأخير من شهر أيار. وتشاء

صدف التواريخ أن يتسنى له، في اللحظة التي كان يركب فيها السفينة في ميناء تولون، أن يشاهد الأسطول الفرنسي مبحراً لفتح الجزائر. وكان هو على متن باخرة حربية تدعى «لو لواري»، يمضي في اتجاه آخر، نحو الشرق عوضاً عن الجنوب. وسيزور اليونان والأناضول والأرض المقدسة ومصر ويحضر معه من رحلته الطويلة سبعة مجلدات من الرسائل بعنوان مراسلات من الشرق هي بمثابة تكملة حديثة لمؤلفه تاريخ الحروب الصليبية.

وسوف يستحق عضو الأكاديمية مديح شارل-أوغوستان دو سانت-بوف، القارئ المرهف لمؤلفات عصره، على مشروعه الاستحواذي والحيِّ الضمير على السواء. ولقد اعتبر سانت-بوف في أحد أحاديث الاثنين أن «الشرف الراسخ يرجع إلى السيد ميشو لأنه كان أول من أدرك أهمية المستند الأصلي في مضمار التاريخ». لا ريب أن الناقد الأدبي كان يجده «أنيقاً، ولكنه ليس بليغاً... فليست لديه تلك المفردات التي تضطرم وتتوهَّج»؛ ولكنه كان يعترف له برغبة أصيلة في الموضوعية، ذلك أن «المؤلف، رغم كلامه المؤيد بالأحرى للصليبيين وللإلهام الديني الذي كان دافع حملاتهم، لا يعمد إلى تمويه الفوضى وأعمال السلب والنهب». وبما أنني قمت شخصياً ببعض الأبحاث عن الحروب الصليبية، ومن منظور مختلف عن منظور ميشو، لا يسعني إلا الموافقة على هذا التقييم الأخير.

***

وفي ٥ آب ١٨١٣، انتخب جوزيف ميشو لشغل المقعد التاسع والعشرين خلفاً لجان-فرانسوا كايافا الذي كان قد توفي قبل أربعين يوماً.

لا بدَّ أن استقباله في قصر المعهد كان يمثل بالنسبة إليه، أكثر من سائر أعضاء الأكاديمية، تجربة مؤثرة، لأنه سُجن قبل ثمانية عشر عاماً في هذا المبنى الأنيق الذي كان مقراً لكوليج الأمم الأربع فيما مضى.

وفي أكثر من ناحية، اتسمت الظروف المحيطة بوصوله تحت القبة بطابعها غير الاعتيادي. كانت باريس تعيش حينئذ، مثل فرنسا بأسرها، أوقاتاً حزينة وحالكة. فبعد حملة روسيا التي انتهت بهزيمة، خرجت البلاد مستنزفة، محبطة، مذهولة، تتوقع الأسوأ. كان النظام الإمبراطوري لايزال قائماً، ولكن الجميع يدرك أن أيامه معدودة. ألم يكن انتخاب ميشو، في ذاته، مؤشراً على أحوال العصر؟ فهذا الخصم القديم للسلطة، الذي تحالف معها بصورة ملتبسة ومتأخرة بدافع الانتهازية أو بسبب السأم، سيشنُّ هجومه على الإمبراطور منذ لحظة سقوطه، وينشر تاريخ الأسابيع الخمسة عشر أو العهد الأخير لبونابارت، وهو كُرَّاس هجائي يتوارى خلف شكل مؤلف تاريخي؛ تحدَّث فيه عن «الأسابيع الخمسة عشر» لئلا يتحدث عن «الأيام المئة» وهو تعبير دخل بأناقة في الميثولوجيا النابوليونية...

في هذا المناخ من الحداد، وأمام أكاديمية لم تستأنف بعد عاداتها ولم تستعد اسمها، لن يكون هناك أيُّ احتفال، أو أي كلمة استقبال، أو

أي مديح للسلف، مع أن كايافا وميشو كانا يعرفان الواحد منهما الآخر. ومن الصعب الجزم إذا كان الرجلان يتبادلان التقدير أو الصداقة، إنما من المؤكد أنهما التقيا نظراً إلى صداقاتهما المشتركة في فترة من فترات حياتهما.

كان أول مكان ربما التقيا فيه هو صالون أدبي باريسي عرف بعض ساعات المجد وهو صالون فاني دو بوهارني. كانت هذه السيدة المثقفة والثرية، نسيبة الإمبراطورة جوزفين بحكم الزواج، قارئته الأولى وكاتمة أسراره، وهي التي أتت بميشو إلى باريس. كان الشاب يعمل حينئذ في مكتب بمدينة ليون، حسب ما تفيد النبذة المخصصة له في السيرة العالمية التي نشرها شقيقه.

«كان لا يزال مقيماً في هذه المدينة عندما زارتها الكونتيسة فاني دو بوهارني عام ١٧٩٠... ولا يجب السؤال إذا كان ظهور امرأة ثرية ولامعة، مرتاحة مادياً، يحلو لها أن تظهر بمظهر حامية الأدب وأن تطلق مواهب شابة، قد ألهب قريحة كل من ينظم الشعر في ليون. وكان ميشو أحد الذين أرسلوا قصائدهم إلى السيدة الجليلة، ومن دواعي سروره أنها استقبلتها بعين الرضى. فتبعها إلى العاصمة وقد اطمأن إلى أنه سيجد في باريس برعايتها موقعاً يضاهي ذوقه...».

كانت تقطن في شارع تورنون وتستقبل في صالونها شخصيات مرموقة؛ ومن المعلوم أن توماس جفرسون قصد صالونها مرة، حين كان ممثلاً للجمهورية الأميركية الفتية لدى فرنسا، ولكن أجواءه لم ترق له فلم يعد الكرة.

أما كايافا وميشو فيفترض المنطق أنهما التقيا عدة مرات في صالونها، ولعلهما التقيا كذلك على الأرجح في مناسبة أخرى. وفي ١٤ تموز ١٧٩١، وهي الذكرى السنوية الثانية لسقوط الباستيل، نظمت الجمعية الوطنية للأخوات التسع - وهي المؤسسة العامة المنبثقة عن المحفل - احتفالاً تكريماً لذكرى بنجامين فرانكلين الذي كان قد توفي في العام السابق. وكانت قُبلة الاحتفال قصيدة طويلة نُظمت وألقيت تمجيداً للراحل الكبير:

حفظ من أحسن إلى بني البشر
الأرض من صولجان الصواعق والطغيان
فلنذرف الدمع على رحيل أعظم إنسان؛
فلنذكر مصيره على قبره المقدس؛
ولنقسم بفضائله، وبرماده الغالي،
أن نعشق البشرية جمعاء، ونخدم الوطن...

ولم يكن مؤلف هذا القصيدة المدحية سوى جوزيف ميشو!

ولما كان فرانكلين شخصية بارزة، ويتمتع بالشهرة في فرنسا والولايات المتحدة على السواء، وقد رافق فولتير يوم انضمامه إلى الماسونية، وكان هو بنفسه على رأس المحفل، بوسعنا الافتراض أن جميع «الإخوة» المشهورين كانوا حاضرين على الأرجح - ومن بينهم

كايافا بالتأكيد، وربما كذلك فلوريان. وعلى هذا النحو، أيكون الرجال الثلاثة الذين تعاقبوا على المقعد التاسع والعشرين أثناء تلك الحقبة المضطربة، حقبة الثورة، قد التقوا في أحد الأيام هم الثلاثة؟ لاريب أنه يجدر بنا الاكتفاء، في هذا المجال، بصيغة الاحتمال، وبعلامة الاستفهام.

ولا يعني أن ميشو انضمَّ إلى الماسونية لأنه نظم هذه القصيدة. فخلافاً للمحفل المذكور، كانت الرابطة الوطنية للأخوات التسع مفتوحة لأشخاص يؤمنون بالمثل العليا نفسها دون أن يكونوا قد دخلوا الماسونية. ولا يرد اسمه أصلاً في قائمة «الإخوة»، ما يحمل على الاعتقاد أن قربه من الماسونيين كان قصير الأمد - مثلما كانت أبياته الملتهبة ضد «الملوك والطغيان» في الفترة نفسها من حياته، أي بين الرابعة والعشرين والسابعة والعشرين.

***

بالطبع، كان مؤرخ الحروب الصليبية في حالة ذهنية مختلفة عندما تربَّع «الملوك» على العرش من جديد في شخص لويس الثامن عشر، لدى سقوط نابوليون. وكان أول المنضمين إلى صفوف أنصارهم، بل لقد كوفئ على إخلاصه فاختير عضواً في أول مجلس تشريعي أنشئ في حقبة عودة الملكية، وأطلق عليه الملك نفسه كما قيل اسم «المجلس غير الموجود» لأنه كان أكثر ملكيةً من الملك نفسه. وكان عضو الأكاديمية يمثل فيه مقاطعة الأين التي أمضى فيها قسماً من طفولته وبعض سنوات تشرُّده.

ولقد وقعت حادثة غريبة بسبب ترشيحه. فالموظف الذي كان مكلَّفاً بتسجيله طلب منه أن يبرز المستندات التي تؤكد جنسيته الفرنسية. كان مجرد إجراء شكلي، من الناحية المبدئية، إلا أن ميشو لم يحصل مطلقاً على الجنسية الفرنسية على ما يبدو. وهذا في جميع الأحوال ما تؤكده السيرة العالمية في النبذة التي تكرِّسها له، والتي إن لم يكتبها لويس-غابرييل فأقلّه ألهمها.

ويؤكد سانت-بوف أن البغضاء حلَّت بين الشقيقين في السنوات الأخيرة من حياتهما، وهو ما يوضح عدم رغبة الشقيق الأصغر في إخفاء حادثة محرجة للغاية لشقيقه البكر؛ غير أن هذا لا يعني بالتأكيد أنه قد لفَّقها.

حمل أصغر أبناء أسرة ميشو الجنسية الفرنسية لأنهم أبصروا النور في مقاطعة الأين، بقصر ريشمون؛ ولكن جوزيف ولد عام ١٧٦٧، قرب ألبينس، في منطقة سافوا، على أرض تابعة لمملكة سردينيا التي كانت تضمُّ كذلك نيس وكورسيكا، في ذلك الحين. وبالتالي، كان عضو الأكاديمية من رعايا سردينيا على غرار أبيه الذي ارتاد المدرسة الحربية في تورينو، وكان يعدُّ العدَّة للانخراط في جيش شارل-عمانوئيل الثالث، ملك سردينيا، أمير بييمون ودوق سافوا، عندما أرغمته حادثة خطيرة على الفرار من بلده الأم والهجرة إلى فرنسا.

وأكثر ما يدعو للدهشة أن جوزيف ميشو لم يطلب في حياته الجنسية الفرنسية. أكان ذلك بسبب الإهمال أم بدافع الاستهتار؟ هل كان يخشى أن يعرف من حوله بأنه لا يحملها؟ هل لأن هذا الهارب

الأبدي كان يريد أن يكون له موطنٌ يقصده إذا ما قررت فرنسا في عهد الثورة أو عهد الإمبراطورية عدم استضافته؟ ويسوق شقيقه هذا التفسير الأخير بخبث بل ويلمِّح أنه قد «أعاره» أوراقاً ثبوتية لكي يتسنى له أن يسجِّل ترشيحه، وأنه قد استطاع أن يصبح نائباً بفضل هذه «الحيلة البسيطة».

ولن يُكتب لمسيرته البرلمانية الاستمرار. فلقد حُلَّ «المجلس غير الموجود» بعد بضعة أشهر، وتبين أن هذه الزمرة من المتشدِّدين في مناصرتهم للملكية أكثر مدعاةً للحرج أكثر مما هي مجلبةٌ للفائدة بالنسبة إلى الملك نفسه. أما ميشو فلم يكن على ما يبدو يصلح للجلوس في الندوة البرلمانية. لا شك أنه كان يدبِّج بعناية خطاباته ومشاريع القوانين التي يقترحها، ولكن الكارثة تحلُّ كلما اضطر إلى إلقائها من على المنبر. فصوت هذا الرجل الهزيل، الفارع القامة إنما المقوَّس الظهر، كان خفيضاً ونفسه قصيراً، ويكاد الحضور لا يسمعه إلا بشقِّ الأنفس، فتفقد تنميقاته الأسلوبية وقْعَهَا. ولقد حدث أن تناول بعض الزملاء المشفقين أوراقه من بين يديه وتلوا نصه مكانه.

وبعد انتهاء هذه المرحلة، عاد مبتهجاً إلى حروبه الصليبية العزيزة على قلبه، فانصرف إلى التنقيب عن مزيد من المستندات غير المنشورة، وإلى التأليف والنشر بلا كلل. ويعتبر الأشخاص الذين عرفوه في سنواته الأخيرة أن هذه السنوات كانت سعيدة ومجدَّة بفضل وجود زوجة محبة وتلامذة شبان منبهرين كانوا يساعدونه في أبحاثه ويرافقونه في رحلاته.

لم يكن خطيباً مفوَّهاً ولكنه كان محدثاً فصيح اللسان يرتقب الجميع ملاحظاته الذكية في الصالونات وفي مجالس التحرير بل وفي الأكاديمية، ونحنحاته النزقة، وبالأخص، ذكرياته عن أيام الصبا. كان يحلو له القول إنه سجن إحدى عشر مرة، وحكم عليه بالإعدام مرتين، ويروي بلا ملل أو كلل لمن يرغب في سماعه ذلك النهار المشهود الذي ساعده فيه صديقه جيغيه على الإفلات من أيدي الدرك.

أسلم جوزيف ميشو الروح بهدوء وسكينة في بيته بمنطقة أوتوي، يوم ٣٠ أيلول ١٨٣٩، وكان طريح الفراش في الأسابيع الأخيرة من حياته، منكباً على تصحيح مسودات نصوصه، راجياً بعد، إنما بوهن، أن يستطيع النهوض. ولقد كتب إلى أحد أصدقائه يقول: «يقول لي الطبيب إنني سأنجو من هذه الوعكة. والطب، مثل السياسة، يقطع وعوداً كاذبة».

لم يكن بوسعه أن يعرف بأن حقبة مجيدة مكرَّسة للطب على وجه التحديد ستُستهلُّ من بعده في تاريخ المقعد التاسع والعشرين.

١١

ذاك الذي انتخب عوضاً عن فكتور هوغو

كيف لا نأسف أن يُفضَّل بيير فلورانس على فكتور هوغو مع أن هذا الأخير كان مستطير الشهرة ومرشَّحاً للمرة الثالثة، وذلك خلال انتخاب خلف ميشو في المقعد التاسع والعشرين الذي جرى في شباط ١٨٤٠؟ في أيامنا الراهنة، سقط اسم غريم الأديب العظيم في غياهب النسيان؛ ولكن من التعسف الاستنتاج أن أعضاء الأكاديمية في ذلك الزمن حطُّوا من شأنهم باختياره.

ويُعزى فشل الكاتب إلى أن خصومه نجحوا في عدم مجابهته في مضمار القيمة الأدبية، واقتراح غريم هو عالم وأستاذ مرموق في الفيزيولوجيا، تجتذب محاضراته جمهوراً عريضاً، ويشغل، علاوة على ذلك، منصب الأمين الدائم لأكاديمية العلوم. وكانت المنافسة على أشدّها. ففي ذلك اليوم، كان هنالك ٣١ مقترعاً، والأغلبية المطلقة هي ١٦ صوتاً. ولقد نال هوغو ١٤ صوتاً في الجولة الأولى و١٥ صوتاً في الجولة الثانية و١٤ صوتاً في الجولة الثالثة. ونال فلورانس ١٤ صوتاً

و١٤ صوتاً ثم ١٥ صوتاً. ثم فاز العالم في الجولة الرابعة فقط ونال ١٧ صوتاً مقابل ١٢ صوتاً.

اعتبر الشاعر أن موعده مع الأكاديمية أُرجئ فقط؛ وسينتخب بعد عشرة أشهر. ولكن معجبيه كانوا ساخطين في خضم الأحداث. وأعربت صحيفة كانت تصدر آنذاك عن غضبها: «الجذور التربيعية لا تُستخرج في الأكاديمية الفرنسية، والمعوجة وجميع الأدوات المخبرية ما خطرت قط ببال ريشوليو لدى إنشائها!». وأظهرت مقالات أخرى قدراً أكبر من الحذاقة، مع أنها أصدرت بدورها حكماً قاسياً، فأعربت عن أسفها لأن عالماً فيزيولوجياً موقراً «لجأ إلى مؤامرة لكي ينتخبه تكتلٌ من الكتاب الغريبين عن العلم بهذا القدر أو ذاك، من ناظمي أبيات الأوبرا الكوميدية، وأنصار الملكية المتجّهمين».

لا شك أن انتخاب البروفسور فلورانس كان نتيجة مخطَّط. ولكن وجود عالم في الأكاديمية الفرنسية لم يكن بالأمر الغريب أو العجيب أو المستهجن؛ وهذا ما سعى العضو الجديد إلى إثباته، بشغف، منذ الكلمات الأولى لكلمة استقباله في الأكاديمية:

«أيها السادة،

«يبدأ اتحاد الآداب والعلوم، في وطننا، على مستوى اللغة نفسها.

«لقد اخترع ديكارت في القرن السابع عشر هندسة جديدة وفلسفة جديدة ولغة جديدة. وفي القرن الثامن عشر، جعل فونتونيل العلوم تتكلم باللغة الشائعة؛ وجعلها بوفون تتكلم لغة البلاغة؛ وذاعت شهرة نيوتن بفضل لغة فولتير...

«إن فكراً فلسفياً جديداً يولدُ من رحم العلوم. وأليس هذا الفكر، المتفوِّق على العلوم نفسها، أيها السادة، من أبرز سمات أزمتنا الحديثة؟ ألم يمارس تأثيره على كل الميادين؟

«ألم يمارسه على الفلسفة؟ لقد سبق لنا أن شاهدنا أن عالم هندسة وضع أسس الفلسفة الجديدة.

«ألم يمارسه على اللغة؟ عالم الهندسة نفسه ذاك كتب *المقال عن المنهج*، أي أول عمل اتخذت فيه لغتنا شكلها الجديد. وهذا الشكل الجديد، فالذي ارتقى به فجأة إلى مصاف مذهل من السمو والكمال هو كذلك عالم هندسة، هو مؤلف *الرسائل الريفية*، وهو باسكال!

ألم يمارسه على التاريخ، أخيراً؟ لقد أراد كاتب وفيلسوف من القرن الماضي، هو دافيد هيوم، أن ينتهج التاريخ نهج العلوم. وشهد التاريخ اليوم، لأنه امتثل لهذا النهج، ولأنه تعلَّق بالوقائع، انطلاقة جديدة؛ وهي حقيقة لا تحتاج إلى إثباتات، بلا شك، ولكنها قد تجد دليلاً ساطعاً في أهمِّ مؤلفات عضو الأكاديمية الشهير الذي سأتحدث عنه اليوم».

كانت هذه التحليقة الأخيرة للخطيب، بالطبع، أسلوباً ملائماً للبدء بما يشكل، تقليدياً، «الطبق الرئيسي» في أية كلمة تلقى بمناسبة الانضمام إلى الأكاديمية، أي مديح السلف. وإنه انتقال وجيه تماماً؛ فاللجوء إلى توثيق غزير ومتقن، وهي السمة المعروفة لمؤلف *تاريخ الحروب الصليبية* لميشو، يمثل، بالفعل، خير مثال على اتباع النهج العلمي في دراسة التاريخ.

غير أن الجمل الأولى في كلمة فلورانس هي التي ظلَّت مطبوعة في أذهان الجمهور الذي اجتمع تحت القبة في ذلك اليوم، الخميس ٣ كانون الأول ١٨٤٠. كان الحضور يتوقع أن يردَّ عضو الأكاديمية الجديد، بطريقة أو بأخرى، على سورة الغضب المهينة التي قوبل بها فوزه على فكتور هوغو، ولكن فلورانس لم يكتفِ بتبرير وجوده في الأكاديمية الفرنسية. ففي بضع فقرات مقتضبة، استطاع التعبير عن ظاهرة حضارية حقيقية. فقد تجاوز الخلافات بين «الكلاسيكيين» و«الرومنسيين»، وبين الجمهوريين أو أنصار بونابارت أو أنصار آل أورليان أو أنصار الشرعية، بل والنزاعات الحتمية بين الأشخاص، وذكَّر زملاءه أن عالماً جديداً يبصر النور وسيؤدي فيه العلم وذهنيته وطرائقه وتطبيقاته دوراً حاسماً. ولن يقتصر ذلك على ميادين المعرفة أو التعليم؛ ففي فرنسا، كما في إنكلترة، وفي بلدان أخرى، سيؤدي انتشار الآلات إلى إقامة علاقات جديدة بين البشر، وظهور مذاهب سياسية وفلسفية جديدة، ستفضي إلى تحوُّل جذري في الوجود المادي والحياة الفكرية لسكانها أجمعين.

***

ولقد جعلت مصادفة الانتخابات الأكاديمية من المقعد التاسع والعشرين، في القرن التاسع عشر ثم في القرن العشرين، شاهداً متميزاً على هذا التحوُّل، بفضل تعاقب شخصيات تحظى بالتقدير على الصعيد العالمي في العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية على السواء.

وبنظرنا، لا يتألق نجم بيار فلورانس بالتأكيد بقدر نجم كلود برنار أو إرنست رونان أو كلود ليفي- ستروس؛ ولكن إسهاماته لا يُستهان بها على الإطلاق، أقلّه بحكم مساهمته في تشكيل أهم وسائل الطب الحديث وهي التخدير. ولشدة ما أصبح التخدير منتشراً ومألوفاً في أيامنا الراهنة، يصعب علينا أن نتخيل تلك الأزمنة الكارثية التي كان المرضى يظلون فيها صاحين ويعولون من شدة الألم فيما يقوم أحد الجراحين باستئصال زائدتهم الدودية أو بتر ساقهم. وكان فلورانس من أوائل الباحثين الذين درسوا خصائص الكلوروفورم وأطلع المجتمع الطبي عليها.

ولا يمكن أن يُنسب اختراع التخدير إلى أي شخص. فعلى غرار تقنيات مماثلة أخرى، كان نتاج تطوُّر طويل سواء على الصعيد المفاهيمي أو الصعيد التجريبي، ولا يجدر بذلك أن يحملنا على التنكر لأولئك الذين أتاحوا للعلم والتجربة، في كل مرحلة من هذه المسيرة، التقدم خطوة إلى الأمام. ففي مجال العلوم والتقانات، الباحث هو آلية أصيلة، وحتى إن كان الإنصاف يقتضي منا الاعتراف بفضل عالم معين، أو بعمله، أو بحدسه أو بعبقريته، يجب أن يظل ماثلاً في أذهاننا أن أي اكتشاف هو على الدوام نتيجة تعاقب طويل لتقدُّم بسيط أعقبه تقدُّم بسيط آخر، وأن الأفكار الجديدة تأتي بانتظام وتدحض المفاهيم السابقة، ثم تأتي مفاهيم أخرى بعدها ستتجاوزها بدورها.

وأليس ذلك أحد الاختلافات الرئيسة بين مضمار الفن ومضمار

العلم؟ الأول يتغير ويتحوَّل، ولكن لا يسعنا القول إنه يتقدَّم. فالمنحوتة التي أنجزت في آثينا قبل ألفي عام ونصف العام لا تتقادم بسبب منحوتة أنجزت في لوس أنجلوس في القرن الحادي والعشرين؛ والرسوم الجدارية في مغارة لاسكو لا يعفي عليها الزمن بسبب جداريات بيكاسو؛ وقصائد شكسبير لا يأكل عليها الدهر ويشرب بسبب القصائد المعاصرة. وبالعكس، فإن التقنيات التي استخدمها الأطباء في القرن التاسع عشر هي بالنسبة إلى الأطباء في عصرنا الراهن بالضبط على هذا النحو: «متقادمة»، «عفَّى عليها الزمن» و«أكل عليها الدهر وشرب». فالعلم من المفترض أن يكون، بحكم تطوره، جماعياً ومجهول الهوية إلى حد كبير، الأمر الذي لا ينتقص من عبقرية فرادى المكتشفين، أو من قيمة مساهمة كل منهم في ما يحرز من أوجه تقدم في عصره.

أما في ما يتعلق بفلورانس، فيبدو لي أنه كانت له استنباطات حدسية مجدية ومبتكرة. فلدى مقارنة سلوك رجل سكران بسلوك مدخِّن أفيون، لاحظ أن لدى الأول «ثمالة حركات» فيما لدى الثاني «ثمالة حواس»؛ ودفعت به التجارب التي قام بها على العصافير إلى الاستنتاج بأن الكحول يؤثر على المخيخ والأفيون على نصفيْ الكرة المخية. لطالما اعتبر المخ كتلة متراصة، دون إعارة اهتمام يذكر للأجزاء التي تؤلفه أو للوظيفة المحددة التي يؤديها كل منها؛ وبفضل علماء مثل فلورانس الذين كانوا يطرحون الأسئلة الصحيحة وإن لم يفلحوا دائماً في التوصل إلى إجابات سديدة، شُقَّ سبيل مثير للشغف،

ما زال يُستكشف حتى الآن، ويتبين كل يوم أنه يحمل مزيداً من الوعود. وفي ذلك، كان من روَّاد ما يعرف اليوم بالعلوم العصبية.

وعلى هذه الأرض المجهولة، غامر بشغف، إنما كذلك بتحفُّظ. ولم يكن ذلك حال جميع الباحثين آنذاك. فالاهتمام كان شديداً بتوغُّل العلم في متاهات الدماغ. لقد ظهرت بالأخص نظرية تزعم أنها تبني على الاكتشافات الجديدة رؤية كاملة عن الإنسان. وكان رائدها هو الطبيب الألماني فرانز جوزف غال، وأُطلق عليها اسم «فراسة الدماغ»، وشهدت في النصف الأول من القرن التاسع عشر رواجاً واسعاً تجاوز الأوساط العلمية. ويحمل مؤلفه التأسيسي الذي صدر في باريس وباللغة الفرنسية اعتباراً من عام ١٨١٠ العنوان التالي: تشريح وفيزيولوجيا الجهاز العصبي عموماً والدماغ خصوصاً، مع ملاحظات عن احتمال اكتشاف عدة ملكات فكرية ومعنوية لدى الإنسان والحيوان حسب شكل الجمجمة. وكان غال ومعاونوه مقتنعين بأنه من الممكن تحديد استعدادات الشخص للإجرام أو الكسل أو التديُّن أو الخيانة الزوجية بمجرد جسِّ «نتوءات» الجمجمة.

ولا تخلو هذه المقولات من الهمجية بنظر الرجال والنساء اليوم الذين لم ينسوا بعد انحرافات القرن العشرين. ولكن المسافة اللازمة لم تكن متوافرة منذ مائتي عام للإعراب بصورة عفوية عن نفورٍ من هذا القبيل.

ولذلك، كانت نظريات غال تستهوي الكثيرين، ومن جميع

المشارب والأطياف. فأنصار المادية رأوا فيها دحضاً للعقائد الدينية بشأن حرية الإرادة ولامادية النفس؛ أما مؤيدو الطوباويات الاجتماعية الداعية إلى المساواة فكانوا يرون فيها وسيلة من أجل «إعادة تشكيل» البشر على أسس موضوعية، «محسوسة» حرفياً، عوضاً عن المعايير التقليدية مثل الولادة أو الثروة؛ والمروِّجون لسياسة الاستعمار نظروا إليها على أنها وسيلة لإثبات وجود ملكات فطرية لدى «الأعراق المتحضرة» بصورة علمية. وكان هناك أيضاً، بصفة أشمل - وبوسعنا القول، أكثر براءة -كل الذين يؤمنون إيماناً صادقاً بأنهم أمام نظرية علمية شرعية؛ وقد ترأس جمعية فراسة الدماغ في باريس التي تأسست عام ١٨٣١ البروفسور بروسي الذي أعطى اسمه لمشفى شهير، ويعتبر حتى اليوم من كبار الأطباء الفرنسيين.

ولشدة ما اتسع نطاق هذه الظاهرة، قرَّرت سلطات البلاد التي تملَّكها الفضول وساورها القلق بعض الشيء أن تطلب إلى شخصية جليلة موقَّرة في الأوساط العلمية تقييم النظرية الجديدة وإبلاغها بالخبر اليقين. ووقع اختيارها منطقياً على فلورانس، فشاغل المقعد التاسع والعشرين في الأكاديمية الفرنسية كان يتمتع بما يلزم من سعة معرفة ومصداقية نظراً لكونه أستاذ الفيزيولوجيا المقارنة في متحف التاريخ الطبيعي، وعضواً مرموقاً في أكاديمية العلوم، والجمعية الملكية في لندن، والأكاديمية الملكية في ستوكهولم، وغيرها.

وقد أصدر عملاً عام ١٨٤٢ كان يحمل ببساطة العنوان التالي:

دراسة فراسة الدماغ. لم يكن كُرَّاساً بل تقييماً عقلانياً ومنهجياً ودقيقاً، ولكنه عديم الرحمة رغم ذلك.

ولقد سلَّم بأن بعض علماء فراسة الدماغ كانوا باحثين يتحلَّون بالموهبة والجرأة، ولكنه شكَّك في القيمة العلمية لنظريتهم، واعتبر تبعاتها الأخلاقية خطرة. فعلى سبيل المثال، استشهد بهذه الفقرة لغال: «فليعلم أولئك الرجال الماجدون الذين يذبحون الأمم بالآلاف أنهم لا يتصرفون بملء إرادتهم، وأن طبيعتهم هي التي وضعت في قلوبهم شراسة التدمير». وردَّ فلورانس على ذلك، بنبرة لا تخلو من السخط: «كلا! فما يجب أن يعلمه الإنسان، وما يجب أن يقال له، أنه يتمتع بقوة الحرية؛ وأن هذه القوة لا يجب أن تتداعى؛ وأن الكائن الذي يتداعى في داخله، أياً كانت الفلسفة التي يحتمي وراءها، هو كائن يهوي بنفسه إلى الحضيض».

منذ الصفحة الأولى من دراسته، أكد عضو الأكاديمية، بقوة ووضوح أن مهمته التقييمية تنطوي على تبعات أخلاقية تتجاوز الجانب التشريحي أو الفزيولوجي الخالص: «إن كل قرن مرتبطٌ بفلسفته. القرن السابع عشر يرتبط بفلسفة ديكارت؛ والقرن الثامن عشر بفلسفة لوك وكونديياك؛ أيجب أن يرتبط القرن التاسع عشر بفلسفة غال؟».

لن تستعيد فراسة الدماغ قواها بعد هذه الدراسة التي أخضعها لها فلورانس بلا رأفة. وستعتبر من الآن فصاعداً «علماً زائفاً»، وخير مثال على نظرية انطلقت من بحث رصين قام به علماء أصيلون ثم تاهت

في تعميمات ضبابية ومقزِّزة من الناحية الأخلاقية. ولم يبقَ من الرواج الواسع الذي لاقته في باريس في اللغة الفرنسية سوى تعبير «لديه حدبة الرياضيات» (أي موهبة طبيعية في الرياضيات) الذي يشيع استعماله دون أن يعلم الناس أن أصله يعود إلى نظريات الطبيب غال.

لقد أدى شاغل المقعد التاسع والعشرين في هذه القضية دوراً أكثر من مشرِّف لا بد أنه هدأ خواطر الذين اختاروه عوضاً عن هوغو العظيم. وفي عام ١٨٤٥، سيُعيِّن لويس- فيليب، ملك الفرنسيين، الرجلين بصورة متزامنة في مجلس الأعيان.

وسيتمتع فلورانس، في بقية مسيرته المهنية، بتقدير معاصريه. وستدعوه أكاديميات علمية كثيرة في أوروبا للانتساب إليها، وسيعهد إليه كوليج دو فرانس بكرسي التاريخ الطبيعي للأجساد المنتظمة. وعندما ستنتخب الأكاديمية خلفاً له، عند وفاته، أحد أشهر علماء عصره، لن يدهش هذا الأخير السامعين إطلاقاً بقوله لزملائه في كلمة استقباله في الأكاديمية: «لقد فقدتم فيزيولوجياً مرموقاً، واعتقدتم أنكم بموافقتكم على أن تضموا إليكم شخصاً كرَّس نفسه لثقافة العلم نفسه، ستكرمون تكريماً أكثر رفعة ذكرى ذاك الذين تأسفون لرحيله»، قبل أن يضيف إننا «ندين لتجارب السيد فلورانس بمعارفنا الأساسية بشأن مقرِّ الإدراك».

وعندما توفي الشخص الحادي عشر الذي شغل هذا المقعد في

٦ كانون الأول ١٨٦٧، عن عمر الثالثة والسبعين، بوسعنا القول إنه قد نال امتياز الهروب من الأحداث المأسوية التي ستعصف ببلده وتفجع أسرته وهي الهزيمة النكراء في الحرب الفرنسية - الألمانية الأولى عام ١٨٧٠، أعقبتها الانتفاضة الدموية المعروفة في التاريخ باسم «كومونة باريس» التي كان ابنه البكر، غوستاف فلورانس، أحد أتباع كارل ماركس، من قادتها قبل أن يُعدم دون محاكمة بنصل سيف أحد الدركيين الموالين للنظام.

***

وستضاف إلى حياة بيير فلورانس فيما بعد، إنما في مرحلة متأخرة، حاشية أقل حزناً.

ففي عام ١٩٩٤، صدرت رواية غير معروفة لجول فيرن بعنوان باريس في القرن العشرين ألَّفها فيرن في مطلع ستينيات القرن التاسع عشر وحاول فيها أن يتخيل ماذا ستكون عليه العاصمة الفرنسية بعد مرور مائة عام. ولم ينصحه ناشره، بعد أن قرأها المرة تلو الأخرى، أن ينشرها، معتبراً أنها تفتقر إلى الحقيقة وقد تسيء إلى مسيرته الأدبية. ولقد ارتضى الكاتب هذا الحكم ودفن مخطوطته في محفوظاته.

وفي الفصل السادس عشر من هذه الرواية، نقرأ بأن البطل، ميشال، «مرَّ أمام السوربون حيث ما زال السيد فلورانس يُدرِّس بنجاح باهر دون أن يفقد حيويته وشبابه». ولكن ماذا جاء عالمنا الفيزيولوجي يفعل في الستينيات من القرن العشرين؟ من الأرجح أنه تلميح طريف

من جول فيرن، ليس إلى «الخلود» الأكاديمي لفلورانس، بل إلى كتاب نشره هذا الأخير في عام ١٨٥٧، وحقَّق شهرة واسعة. وكان الكتاب الذي يحمل عنوان في تعمير البشر يحمل «آمالاً عريضة: قرناً من الحياة العادية، وحتى قرنين من الحياة الحيوية، وذلك بشرط وحيد إنما صارم: شرط السلوك المستقيم، والحياة المنهمكة دائماً، والعمل، والدراسة، والاعتدال، والاتزان في كل الأمور».

لا ريب أن الغمزة التي وجهها فرن إلى فلورانس الذي «لم يفقد شبابه»، وما زال يدرِّس في الجامعة وهو في السبعين بعد المائة، كانت ستنتزع ابتسامة من معاصري جول فيرن. وللأسف، بسبب صدور الكتاب متأخراً، كانت قلة قليلة من القراء بوسعها أن تفهم هذا التلميح.

١٢

ذاك الذي أراد أن يعيد اختراع الطب

عندما نهض كلود برنار لإلقاء كلمته تحت قبة الأكاديمية، يوم الخميس ٢٧ أيار ١٨٦٩، كان أحد زملائه يبتسم ابتسامة مختلفة عن ابتسامة الآخرين. إنه الناقد الأدبي سان-مارك جيراردان. لم يكن بوسعه ألا يستحضر، وراء القامة الجليلة لأكثر العلماء المرموقين في فرنسا، النظرة القلقة لذلك الشاب الطويل والناحل الذي قصده منذ خمسة وثلاثين عاماً لكي يعرض عليه مسرحية من تأليفه. قرأها جيراردان، وكوَّن عنها فكرة بسرعة فائقة: لم يكن كاتبها يفتقر إلى الموهبة الأدبية، ولكنه لا يتمتع بها بالقدر الكافي لكي يستحق الأمر أن يكرِّس لها حياته؛ فصارحه بذلك دون مراعاة.

حافظ زائره على رباطة جأشه، ولكنه كان بالطبع مضطرباً. فقد كان يأمل أن يسمع رأياً مختلفاً تماماً. كان المسرح عنده شغفاً، وكذلك خشبة خلاص في تلك السنوات الأولى من حياة كراشد. كان تلميذاً عادياً، رسب في البكالوريا ، فوضعه والداه اللذان كانا يزرعان الكرمة

في سان-جوليان بمنطقة بوجوليه عند صيدليٍّ في مدينة ليون ليتعلَّم منه أصول المهنة. ولكنه كان يشعر بسأم فظيع في صيدلية السيد مييه، حيث لا يزال يُحضَّر، كما في عصر ابن سينا، وفي اليونان القديمة، الترياق الذي لا غنى عنه ، المؤلف من عشرات المكوِّنات ومنها الأفيون والسوس والعرن وطيب القندس أو القير، ناهيك عن جلد الأفعى المجفَّف؛ وهذا العلاج العالمي الذي وصف فيما مضى ترياقاً للملك ميثراداتس ما زال يوصف بعد ألفي عام لشفاء جميع العلل.

لم يكن المتدرِّب الشاب يعيش إلا للاستمتاع بتلك اللحظات النادرة في الأسبوع التي بوسعه فيها أن ينزع مريلته ويهرع إلى المسرح. يا للمتعة! يا للانبهار! تلك هي الحياة الحقة!

وفي التاسعة عشرة، ألَّف مسرحية كوميدية بعنوان وردة نهر الرون عُرضت على خشبة مسرح السيليستان وعادت عليه بمئة فرنك. أليست هذه بداية واعدة؟ فشرع على الفور يكتب مسرحية ثانية، أكثر طموحاً من سابقتها، تراجيديا تاريخية تقع في خمسة فصول اختار لها عنوان أرتور البريتاني. وحالما فرغ من تأليفها، أطلع عليها بعض الأصدقاء فاقترحوا عليه أن يذهب إلى باريس ليعرضها على جيراردان. ولم يكن هذا الأخير قد أصبح عضواً في الأكاديمية الفرنسية بعد، ولكنه يدرِّس الأدب في جامعة السوربون، وينشر مقالاته في عدة صحف، وعالم المسرح يقيم لرأيه وزناً.

كان كلود برنار. في الحادية والعشرين عندما ذهب لزيارته،

وستظلُّ الكلمات التي سمعه يتفوَّه بها تُدوِّي طويلاً في ذاكرته: «قلت لي إنك درست الصيدلة؟ فادرسِ الطب إذن، ودعِ الأدب لتجزية ساعات الفراغ!».

لا ريب أن كبرياء الشاب جرحت في الصميم في تلك اللحظة، ولكنه تحلى بالشجاعة المعنوية والحصافة ولم يعاند وعمل حرفياً بنصائح الناقد المرموق.

فوضع حداً نهائياً لطموحاته الأدبية، وغاص مجدداً في كتبه المدرسية وقدم ثانية امتحان شهادة البكالوريا التي حصل عليها أخيراً، بشقِّ الأنفس، بعد بضعة أشهر؛ ثم انتسب إلى كلية الطب في باريس حيث لا بد من الإشارة العابرة إلى أنه لم يكن ألمع طلابها. وسيذكر صديقه بول بيرت الذي خلفه في كوليج دو فرانس: «لم يكن رفاقه يعرفون ماذا يخفي وراء تلك الجبهة العريضة ذلك الطالب الصموت، غير المبالي بمحاضرات الأساتذة الذين اعتبروا هدوءه التأملي دلالة على الخمول».

واستطاع أن ينجح في الامتحان للحصول على شهادة الطب في عام ١٨٣٩، إنما بمشقة، وكان ترتيبه السادس والعشرين من أصل تسعة وعشرين. وأصبح دكتوراً في الطب عام ١٨٤٣، ولكنه رسب في السنة التالية في المباراة لنيل شهادة التبريز في التشريح والفزيولوجيا، ولعلَّ ذلك على الأرجح لأنه لم يكن يجيد التعبير ويتعذَّر عليه تقديم أعماله كما ينبغي.

في الظاهر، لم يكن أي شيء في مساره يوحي بأن أهمَّ شخصية في تاريخ العلوم على وشك أن تبزغ. وربما يجدر بنا أن نتساءل إذا لم يكن غياب الألق هذا ما يبرِّر عظمته. فمن مآسي أطباء الماضي، على نحو ما أشبعهم موليير والكثيرون غيره سخرية وتهكماً، أنهم كانوا يمارسون المهنة باكتفاء، ويُسكتون غير المتخصِّصين بأقوال لجالينوس أو أبقراط أو الرازي، مبطَّنة بكلمات غامضة، وبلغة يجهلها العامة. ولكن كلود برنار كان نقيض ذلك تماماً. وسيقول عنه لويس باستور: «ليس لديه أي ادعاء، ولا أي عيب من عيوب العلماء، بل بساطة أصيلة، وحديث عفوي كل العفوية، يجهل التصنُّع أو التكلُّف، بل ينطوي على أفكار صحيحة وعميقة». وسينبهر به الأخوان غونكور لدى سماعه يتحدث عن اكتشافاته بصيغة المجهول «لقد اكُتشف».

لم يكن ذلك التواضع مجرد شكل من أشكال التهذيب والرقي الأخلاقي، بل كان كذلك تعبيراً عن نهج علمي جديد. فلم يكن هدفه التوصل إلى اكتشاف مذهل أو إيجاد علاج عجائبي. كان أكثر طموحاً من ذلك: لقد أراد بكل بساطة أن يؤسس لطب جديد. ولا بد، من وجهة نظره، إعادة بنائه من الصفر، وهذه المرة بوصفه علماً حقيقياً. وتطلب الأمر دراسة كل عضو، وكلّ إفراز، وكل نسيج، وكل عصب، لفهم وظيفته، وتبيُّن الأسباب الحقيقة لما يعتوره من اختلالات.

وسيناهض طوال حياته تلك الفكرة المترسخة في الأذهان ومفادها أن هناك اختلافاً أساسياً بين العلوم التي تتناول المادة والعلوم

التي تتناول الكائن الحي، فالأولى تمتثل لقوانين لا تتبدَّل، والثانية تفسح المجال لما يستعصي على الفهم، لما يصعب إدراكه، للواهي، والغامض، و«القوة الحيوية». وسيكتب في هذا الشأن: «عندما تتجلى ظاهرة غامضة أو غير مفهومة، عوضاً عن القول: لا أعرف، كما يجب أن يفعل كل عالم، اعتاد الأطباء القول: هذه هي الحياة؛ دون أن يبدو عليهم أنهم يشرحون الغامض والمستغلق بما هو أكثر غموضاً وأشد استغلاقاً...»، قبل أن يضيف، بنبرة استفزاز، إن «الحياة» التي يشار إليها في هذا الإطار، «ليست سوى لفظ يعني الجهل». فعلم الطب، مثل أي علم آخر، يجب برأيه أن ينطلق من التجربة والاختبار وصوغ القوانين؛ وكان يثير سخطه أن يُوصف بالفن.

ولقد اشتغل لسنوات طويلة دون ضجيج، في المختبرات، وفي قاعات التدريس، محاطاً بطلابه وزملائه وأساتذته. وكانت منشوراته آنذاك تحمل العناوين التالية: السائل المعوي ودوره في التغذية، تمثُّل سكر القصب، أبحاث عن عصب الحبل الطبلي، وظائف العصب الشوكي، تجارب حول العصب الوجهي، تشريح جثة ميت بداء السكري، وغيرها من المنشورات.

وفجأة، انقلبت الأمور رأساً على عقب. أصبح الباحث المغمور عملياً مرجعيةً وشخصيةً مشهورةً وأسطورة بين عشية وضحاها، لا بسبب اكتشاف مذهل أو شفاء عجائبي، بل «بفضل الأثر التراكمي»

نوعاً ما. لم تظهر الجموع الباريسية شغفاً مباغتاً بالعصب الشوكي، ولا بعصب الحبل الطبلي. ولكن، بكل بساطة، بدأت الإشاعة تسري، في الأوساط العلمية والأكاديمية أولاً، ثم في دوائر أوسع نطاقاً، بأن شخصاً اسمه كلود برنار يُحدث ثورة في عالم الطب، ويريد إحداث قطيعة مع المفاهيم البالية، وبأن كلَّ عمل من أعماله يختلف ويتميَّز عما سبقه.

ولما بلغ الأربعين، بدأت جميع الأبواب تشرع أمامه، الواحد تلو الآخر. وفي عام ١٨٥٤، انتخب عضواً في أكاديمية العلوم التي رفضته قبل أربع سنوات. وفي السنة نفسها، أنشأت جامعة السوربون له خصيصاً كرسي الفيزيولوجيا التجريبية. وفي كوليج دو فرانس، ورث كرسي أستاذه، البروفسور ماجندي، وكأنها تعود إليه حكماً. ووجَّهت إليه أكاديميات وجمعيات علمية أجنبية، من لندن إلى سانت بطرسبرغ، ومن ستوكهولم إلى القسطنطينية، الدعوة للانتساب إليها.

وعندما اضطرته وعكة صحية إلى الابتعاد عن أنابيبه المخبرية ومناضده التشريحية للراحة بضعة أشهر في قريته الأم، اغتنم الفرصة لكي يرتقي بنفسه ويشرع في كتابة مدخل لدراسة الطب التجريبي الذي سيكون الجزء الأول من عمل أشمل هو مبادئ الطب التجريبي. وسيظلُّ هذا العمل غير مكتمل؛ ولكن لا بأس في ذلك، فمؤلفه كان قد قال بيت القصيد.

واكتشف الأشخاص الذين لا يعرفون كلود برنار، وليس بمقدورهم كذلك أن يستوعبوا أبحاثه المتخصِّصة، بانبهار وعلى حين غرة، المفكر والإنساني بل والرؤيوي إلى جانب العالم. ففي الواقع، كانت قلة قليلة من الباحثين قادرة على أن تشمل بنظرتها موضوع البحث والعالم الرحب الذي يندرج فيه الموضوع والباحث. وسيقارن الفيلسوف هنري برغسون المدخل لدراسة الطب التجريبي بمؤلف المقال عن المنهج لديكارت. «لم يشهد التاريخ الحديث إلا مرتين ذهناً مبدعاً ينكفئ على نفسه ليجري تحليلاً ذاتياً ويحدِّد على هذا النحو الشروط العامة للاكتشاف العلمي».

وأصبح أعضاء الأكاديمية الفرنسية الذين لا يستطيعون تقييم مساهمته في ميدان العلوم، ينظرون إليه الآن باهتمام وإعجاب. وعندما شغر المقعد التاسع والعشرون بوفاة فلورانس، اختاروه لكي يشغله دون أن يتردَّدوا طويلاً. وقبل ثلاثة أسابيع من حفل استقباله الرسمي تحت قبة الأكاديمية، قام نابوليون الثالث بتعيينه عضواً في مجلس شيوخ الإمبراطورية.

***

كان كلود برنار في قمة المجد، ولكن القلائل يعرفون مدى تعاسته.

ففي الحادية والثلاثين، تزوَّج، بواسطة بعض الأصدقاء، زواجاً تقليدياً. ولم يكن هذا الأسلوب غير مألوف في ذلك الوقت، والظروف

تبدو مؤاتية لكي تسير الأمور على ما يرام بين الزوجين.فقد نجح كلود في الامتحان للحصول على شهادة الطب، وماري-فرانسواز، الملقَّبة بفاني، وابنة طبيب باريسي مرموق، تملك بائنة طائلة من شأنها أن تتيح للزوجين العيش بمأمن من الفاقة. غير أن الأمور سرعان ما تدهورت بينهما. كانت تتوقع أن تعيش حياة اجتماعية حافلة، بينما كان هو منهمكاً على الدوام في أبحاثه؛ وفي المرات القليلة التي يأخذ فيها إجازة، يذهب على الفور لزيارة والدته في منطقة بوجوليه. والأدهى من كل ذلك أن باكورة زواجهما، وهو صبي، لم يكتب له العيش سوى ثلاثة أشهر؛ ثم أنجبا بنتين وابناً آخر توفي بدوره رضيعاً. ولقد رسَّخت هذه التجارب الأليمة لدى الوالدين مشاعر المرارة والاستياء والريبة والجفاء. فاتسعت بينهما المسافة. ومما لا شك فيه أنه لم ينشأ بينهما انسجام، ولكنهما أصبحا يتباغضان ويتناحران بعد بضع سنوات من العيش المشترك.

ولقد عرفت خصومتهما عندما انخرطت فاني برنار بكل جوارحها في حملة شعواء ضد تشريح الحيوانات. كان زوجها يرى في هذه الطريقة نهجاً تجريبياً لا غنى عنه، وينصح به طلابه بشدة. أما هي فكانت ترى فيها تعذيباً وقسوةً وهمجيةً. ولقد أيَّدت الابنتان موقف والدتهما.

كان حاسدو العالم الباحث يسخرون من هذه المشاجرة؛ وأصدقاؤه يأسفون لها؛ ومعظم الناس يرون في المسألة موضوعاً

غريباً؛ أما في كنف الأسرة فكان الأمر بمثابة كابوس في كل لحظة. وفي نهاية المطاف، طلبت فاني من كلود ألا يقربها بعد اليوم «لأن رائحة الجيفة تفوح منه». فاضطر إلى مغادرة بيت الزوجية والإقامة في شقة صغيرة بشارع المدارس، قبالة كوليج دو فرانس، حيث ينتصب تمثاله اليوم. وطلب الطلاق الذي حصل عليه، بأمر من القضاء، في عام ١٨٧٠.

ولحسن حظه، كان قد التقى، قبل عام، شخصاً سيضيء حياته. لن يسكنا في يوم من الأيام تحت سقف واحد، ولا شيء يتيح الجزم بأن علاقتهما كانت غير أفلاطونية، وقائمة أساساً على تبادل الرسائل؛ ولكن تلك السيدة ستصبح عنده أهمَّ من أي كائن آخر في العالم، حتى لفظ أنفاسه الأخيرة.

كانت ماري سارة رافالوفيتش أماً لثلاثة أولاد، وتعيش، على ما يبدو، بوفاق مع زوجها هيرمان الذي تعرفه منذ الطفولة. كان الزوج مصرفياً في أوديسا حيث تزوجا وأنجبا أول طفلين من أطفالهما. ثم هاجرا إلى فرنسا غداة المذبحة الأولى في إمبراطورية القياصرة التي وقعت في أوديسا على وجه التحديد أثناء أعياد الفصح عام ١٨٥٩ وارتكبها البحارة اليونان في المرفأ وليس الروس وفقاً لشهودٍ عاصروها.

كانت ماري ثرية ومثقفة وفاتنة، بعينيها المشدودتي الأطراف

قليلاً، تتكلم عدة لغات، وتكتب أحياناً في الصحف، وتتابع الحياة الثقافية والاجتماعية عن كثب. ولقد التقت في كوليج دو فرانس الرجل العظيم الذي ستصبح كاتمة أسراره. كان من الشائع أن يأتي مستمعون لحضور محاضرات أستاذ ذائع الصيت. وفي بعض الأحيان، كانوا من الشخصيات المعروفة؛ ولقد تسنى لكلود برنار أن يلقي محاضرته بحضور غوستاف فلوبير، وتيوفيل غوتييه، وإمبراطور البرازيل، بيدرو الثاني، وكذلك أمير الغال الذي سيصبح الملك إدوارد السابع.

جاءت ماري المرة الأولى بدافع الفضول الصرف. لم يكن لديها اهتمام محدَّد بالمادة المدرَّسة ولكنها سمعت عن الرجل بالطبع، وعن طبعه، واكتشافاته، ورغبت في أن تراه عن قرب. ولقد لمحها بالتأكيد. كان الحضور يضمُّ حوالى خمسين شخصاً في المتوسط، ومن غير الممكن ألا يستقطب وجود امرأة بجمالها الآسر وزيِّها الراقي الأنظار.

ولقد حضرت مرة ثانية، ثم تكرَّر حضورها. وفي أحد الأيام، تركت له رسالة تطلب فيها استشارة صحية. ولا بد من القول إنها كانت حيلة من الحيل التي تلجأ إليها فتاة ريفية؛ فالجميع كان يعلم أن اهتمامات عالم الفيزيولوجيا تنصبُّ على البحث والتعليم. ولكنه ردَّ على رسالتها بكياسة، ونصحها باستشارة أحد معارفه من الأطباء الذي قصدته. وكتبت له مجدداً لتشكره على نصيحته وتقول له إنها تودُّ أن تدعوه إلى مائدتها، وقد قبل الدعوة دون تكلُّف.

دخلت هذه المرأة الودودة إلى حياته في أفضل لحظة ممكنة؛

فلقد كان يشعر بالتشتت والحيرة بسبب انهيار حياته الزوجية، بل ولقد زاد تشتتاً وحيرة بسبب الوفاة الحديثة العهد لوالدته التي كان متعلِّقاً بها للغاية؛ فكان حضور صديقة ذكية وكتومة ومحبة ومعجبة إلى جانبه هدية من السماء. ومنذ بداية تواصلهما، أحسَّ بأنه مطمئن إليها بالقدر الكافي لكي يُسرَّ لها بأتراحه: «لطالما كانت كأس حياتي طافحة بالمرارة واليوم أكثر من أي وقت مضى. غير أنني أحافظ على المظاهر وأظهر أمام الناس بمظهر رجل تغمره السعادة...»، وكذلك بأفراحه، فكتب لها يوماً أثناء وجوده في منطقة بوجوليه: «في الوقت الحاضر، تحولتُ إلى كرَّام. إنها اهتماماتٌ مألوفة عندي ولقد أبصرت النور في كنفها؛ وإنها تطيب لي بالتأكيد أكثر من كتابة خطابات أكاديمية».

وسيبعث لها، على مدى تسع سنوات، ما يقرب من خمسمائة رسالة محفوظة اليوم في مكتبة المعهد الفرنسي، وهي هبة ثمينة من السيدة رافالوفيتش مع أنها ستخفي الرسائل التي كتبتها، متذرعة بأنها ليست ذات أهمية. ربما كانت تتضمن ملاحظات بالغة الحميمية. ولا بد من القول إنها كانت تراسله على عنوان يعيش فيه بمفرده، ويفتح فيه بريده بنفسه، بينما كان يكتب لها على عنوان بيتها حيث بوسع أشخاص آخرين أن يطلعوا على رسائله. ولذلك، كان الحرص يقتضي منه أن يلجم عواطفه. ولا ريب أن القارئ يجد هناك بعض عبارات الود. «لديك سيدتي العزيزة تناسق تام فجمال الروح عندك يناظره

جمال الجسد». غير أنه لم يكن يكثر في رسائله من هذه الإطراءات. ولن يخاطبها يوماً باسمها الأول؛ فحتى النهاية، سيظل يدعوها «سيدتي العزيزة».

ومما يثير الاهتمام في هذه المراسلات أن كلود برنار يدلي فيها برأيه بحرية في موضوعات لم تسنح له الفرصة لتناولها علناً على الإطلاق، ومنها على سبيل المثال هزيمة فرنسا عام ١٨٧٠ في حربها ضد بروسيا. وكان حدثاً عاشه، على غرار عدد كبير من أبناء بلده، بوصفه مأساة شخصية.

«لم أحسب أنني سأشهد كل مصائب بلدي الذي يستطيع منتصرٌ بغيضٌ أن يتنقل في أرجائه الآن دون عراقيل وبصفاقة. لقد قُضي الأمر، وفرنسا تواجه عدواً عديم الرأفة في انتصاره، لا يريد أن يكتفي بتدميرها بل يريد أن يلطِّخ شرفها». وكان يأسه عارماً: «عندما سيفلت الوحش الجرماني الذي ما زال يجرؤ على التحدث باسم الحضارة فريسته، بعد أن يتلفها ويسحقها ويقطِّع أوصالها، ستكون قد ماتت حقاً. في القرن العشرين، سيقولون: هنا كانت توجد فرنسا؛ هنا كانت توجد باريس...».

ويبدو أن صديقته التي تراسله عاتبته على هذه التصريحات المتطرفة لأنه شعر بنفسه مضطراً للرد عليها، بعد تسعة أيام: «أستميحك المعذرة إذا كنت قد أعربت في رسالتي الأخيرة عن مشاعر لم تنسجم مع مشاعرك. وأصلاً، إحرقي رسالتي!». هل هو تشاؤمه الذي لم يرق

ماري أم خطابه القومي النبرة؟ ربما الاثنان معاً... ومن المؤكد أنها حرصت على عدم تنفيذ ما طلبه منها.

***

يصعب علينا اليوم أن نضع أنفسنا مكان الذين كانوا شاهدين على «جميع المصائب» التي حدثت عام ١٨٧٠. فلقد وقعت الكثير من المآسي منذ ذلك التاريخ بين ألمانيا وفرنسا - الحرب العالمية الأولى ثم الثانية على سبيل المثال لا الحصر - فأصبحنا ننظر حكماً إلى هذا النزاع بوصفه فصلاً من بين فصول أخرى في المواجهة الطويلة والدموية بين هاتين القوتين العظميين في القارة الأوروبية.

لم تكن النظرة إلى الأمور على هذا النحو بالنسبة إلى كلود برنار ومعاصريه. فمن الناحية التقليدية، كان الخصوم الذين حاربتهم القوات الملكية، ثم الجمهورية، ثم الإمبراطورية، طوال قرون عديدة هم إنكلترة وإسبانيا وآل النمسا وهولندا، وأحياناً دوقية سافوا، أو دولة إيطالية أخرى، ولكن ألمانيا لم تكن في عدادهم. وعندما أرسل ريشوليو قوات إلى الضفة الأخرى من نهر الراين، فعل ذلك لمساعدة أمير ألماني ضد أمير ألماني آخر. وطوال قرون عديدة، تحدث الأوروبيون عن «خصومات الألمان» مبدين أمارات الأسف والعجز، مثلما سيتحدثون لاحقاً عن النزاعات بين شعوب البلقان.

لم تكن ألمانيا كياناً سياسياً، بل أرضاً مجزأة إلى دول كثيرة، تُمارس فيها التجارة وتُحاك المؤامرات وتُخاض حروب كثيرة.

وكانت كذلك بالنسبة إلى قوى القارة العظمى خزاناً للجنود المتأهبين للمحاربة لحساب من يدفع لهم أجراً أعلى. وعندما استولت الحرب الأهلية الفرنسية (الفروند)، في طفولة لويس الرابع عشر، على باريس، اصطحب مازاران الملك خارج العاصمة التي عاد لمحاصرتها مع جيش من المرتزقة الألمان.

ولكن لا حاجة بنا للعودة إلى هذا الماضي السحيق. ففي عام ١٨٦٦، أي قبل أربع سنوات فقط من الحرب ضد فرنسا، عندما شنَّت بروسيا بقيادة المستشار أوتو فون بيسمارك حرباً على النمسا وهزمتها شرَّ هزيمة في موقعة سادوفا، احتفل الكثير من سكان باريس ابتهاجاً بهذا الحدث. ويروي نائب السين، ألفريد داريمون: «هذا المساء، تجوَّلتُ في الجادات الكبرى ورأيت كل النوافذ مزيَّنة بالأعلام. وقيل لي إن جادة سانت-أنطوان قد أضيئت. الجماهير التي تسير في الشوارع غفيرة. وتبدو الأمور عن حق كأن فرنسا حققت انتصاراً مبيناً».

لم تكن حرب عام ١٨٧٠ مجرد فصل آخر في نزاع قديم أصلاً بين قوتين عظميين متناحرتين بل الظهور المدوي على الساحة الأوروبية لطرف جديد، يُغذي تطلعات وطنية لم يشبعها بعد، ولم يكن الفرنسيون يتوقعون أن يضمر نحوهم هذه العداوة ، أو هذا الاندفاع؛ فلا عجب في أنهم شبهوا سلوكه منذ ذلك الحين بوحشية الضواري.

ولقد أصبحنا اليوم فقط نعلم علم اليقين، بفضل المسافة التاريخية التي نصت، أن المواجهة التي بدأت في تموز ١٨٧٠ بين هاتين الأمتين

الأوروبيتين العظميين ستؤدي إلى إراقة الدماء في القارة وتؤثر في مصير البشرية جمعاء لأجيال عديدة.

ومن أكثر الجوانب الصادمة في هذه «الحرب الاستهلالية» عزم بيسمارك على تحقيق الوحدة الألمانية من خلال مواجهة ظافرة مع فرنسا. وكان نجاح هذا المشروع باهراً بصورة لا يرقى إليها الشك: فلقد اضطر نابوليون الثالث إلى الاستسلام بعد شهر ونصف الشهر؛ وخسر البلد المهزوم مقاطعتين ستصبحان رمزيتين هما الألزاس واللورين؛ وسيُعلن عن الإمبراطورية الألمانية في صالونات فرساي، وهذا غلوٌّ في مذلة لا داعي لها استدعى، بالمقابل، مذلات كارثية أخرى.

ولن يفتر غضب كلود برنار في مراسلاته: «لقد قضي الأمر! ووُقِّع سلام الخزي والبلاء. هذا ما آلت إليه فرنسا بسبب استهتار الإمبراطورية وعجز الجمهورية والنفاق الشائن لبروسيا». وعلى سبيل التعزية، تنبأ بأن بروسيا «ستشهد مرحلة تؤدي بها حتماً إلى هلاكها».

وبعد بضعة أشهر، عاد في مراسلاته إلى اهتمامات مختلفة كلياً: كَرْمَتُهُ في منطقة بوجوليه، والتجارب التي يجريها على زراعة البنفسج، ومسودة كتابه المقبل الذي طلب إليه ناشره أن يصحِّحها، وبالأخص، وضعه الصحي. فقد كان يذكر دائماً ما يعانيه من نوبات صداع وإنهاك شديد وبنيان ضعيف وفترات بقائه طريح الفراش وحالة «أحشائه»؛ كان يعطي الانطباع أنه أكبر سناً مما هو عليه.

وفي الواقع، كانت صحته تتدهور يوماً بعد يوم. وفي كانون الثاني ١٨٧٨، خربش، بخط غير مقروء نسبياً، رسالته الأخيرة: «في أول أيام العام، عادت إليَّ تلك النوبة الفظيعة من الروماتيزم المعوي. إنني أشعر بألم فظيع...» وبعد ذلك، سيكفُّ عن الكتابة إلى كاتمة أسراره، لأنها بلا شك ستزوره يومياً. وعندما سيلفظ أنفاسه في ١٠ شباط، ستأتي هي بالنحَّات أوجين غييوم لكي ينجز له قناع الموت.

***

أثارت وفاة كلود برنار تأثراً عارماً في فرنسا. وقرَّرت الحكومة أن تنظِّم له مأتماً وطنياً، وكانت المرة الأولى التي يُكرَّم فيها عالم بهذا الشكل. ولقد سار وراء الموكب الجنائزي أربعة آلاف شخص حتى كنيسة سان-سولبيس ثم مقبرة بير-لاشيز. ولقد حيَّا الخطباء الذين تعاقبوا على المنصة فيه مؤسس الطب الحديث. واستفاضوا جميعاً في الحديث عن مسيرته الاستثنائية، وذكر بعضهم أن مصيره كان أبعد ما يكون عن ذاك الذي تطلَّع إليه في شبابه، أي المسرح والأدب. وفي الواقع، لم يرجع في حياته للاهتمام بهذين المجالين اللذين شُغف بهما في بداية حياته.

غير أنه سيخلف بصمة في هذين المجالين، لا بل تركة إذا ما جاز القول. فعندما أصدر إميل زولا عام ١٨٨٠ بيانه الطبيعي، أعطاه هذا العنوان «الرواية التجريبية»، موضحاً منذ الفقرات الأولى: «لن أقوم هنا سوى بعمل اقتباس، لأن كلود برنار أرسى أسس النهج التجريبي بقوة

ووضوح رائعين، في كتابه مدخل لدراسة الطب التجريبي. وهذا الكتاب لباحثٍ لا جدال في مرجعيته العلمية سيكون لي بمثابة ركيزة متينة. وسأجد فيه طرحاً للمسألة بأكملها، وسأكتفي بإيراد الاستشهادات التي تبدو لي ضرورية باعتبارها حججاً دامغة لا تقبل التفنيد. سيكون عملي مجرد تجميع للنصوص؛ لأنني أعتزم، في جميع النقاط، أن أتمسَّك بآراء كلود برنار. وفي أغلب الأحيان، سيكفيني أن أستعيض عن لفظ «طبيب» بلفظ «روائي» لإيضاح فكرتي وإضفاء صرامة الحقيقة العلمية عليها».

وليس بوسع المرء أن يظهر قدراً أكبر من الصراحة.

ولشدة اتساع شهرة العالم الراحل في البلد، أثير سجالٌ غداة وفاته حول معتقداته الدينية. فرأى البعض أنه كان على الدوام غنوصياً؛ فيما اعتبر البعض الآخر أنه «استعاد الإيمان» في نهاية حياته. وفي فرنسا التي كانت تلتهب فيها المشاعر بسبب مسألة العلاقة بين الدولة والكنيسة، كان رأي العالم الجليل يبدو مهماً.

ولم تُحسم تلك السجالات نهائياً. غير أن موقف المعني بالأمر، في هذه الحالة بالذات، بشأن تلك المسألة الجوهرية كان واضحاً على الدوام: «لم يكن يوماً معادياً للدين، ولئن استطاع أن يجد فيه، مثل الكثيرين غيره، بعض العزاء والسلوان مع اقتراب ساعة المنون، فلقد اعتبر على الدوام أن أي عقيدة دينية أو فلسفية لا يجب أن تدلي بدلوها بشأن ماهية الحقيقة العلمية».

وفي الواقع، كان يرفض المعسكرين الخصمين كليهما: «بعضهم لا يريد أن يتقبل بأن الدماغ هو عضو الذكاء لأنهم يخشون أن ينخرطوا بسبب هذا الاعتراف في عقائد مادية؛ وبعضهم الآخر، على العكس، يسارع إلى وضع الذكاء اعتباطياً في خلية عصبية مستديرة أو لولبية الشكل لئلا يتهموا بالروحانية. أما نحن، فلن نهتمَّ بهذه المخاوف. فالفيزيولوجيا، على غرار العلوم المتطورة، يجب أن تتحرَّر من العقبات الفلسفية التي قد تعيق مسيرتها؛ ومهمتها تقتضي البحث عن الحقيقة بهدوء وثقة، وهدفها أن ترسِّخها بطريقة دائمة دون أن تخشى إطلاقاً الشكل الذي يمكن أن تتجلَّى لها من خلاله».

لم يكترث للمعتقدات الإيمانية الخاصة لمعاصريه، ولم يكن يروقه أن يكترث الناس لمعتقداته، كما تدلُّ تلك السطور النزقة والمرحة التي أرسلها إلى ماري رافالوفيتش عام ١٨٧٣ : «تلقيتُ البارحة رسالةً من شخصية رفيعة استعادت كل جملي الواحدة تلو الأخرى، وراحت تثبت لي بالأدلة والبراهين أنني أكثر البشر إيماناً وحصافة، ومن أهم القوى المؤازرة للدين. ولا أظن أنني قلت كل ما أشار إليه، ويقيني أيضاً أنني لم أفكر في ذلك على الإطلاق».

***

بعد مرور ثلاثة أشهر على وفاة كلود برنار، اجتمع أعضاء الأكاديمية الفرنسية لتعيين خلف يشغل المقعد التاسع والعشرين.

كانوا متأثرين بمأتمه، وفخورين بما حققه من مجد انعكس على مؤسستهم برمتها، الأمر الذي شجعهم مرة أخرى على انتخاب أحد المشاهير.

والرجل الذي وقع عليه اختيارهم كان من أشهر المفكرين في فرنسا، بل وربما في العالم بأسره. وكان كذلك أكثرهم مثاراً للجدل، وهذا ما يبرِّر بلا شك عدم انتخابه من قبل. كان يتصف بالهرطقة بالنسبة إلى الكثيرين. أفلم يطلق عليه البابا بيوس التاسع شخصياً لقب «المجدِّف الأوروبي»؟

١٣

ذاك الذي جرؤ على اعتبار يسوع «إنساناً»

عندما جاء إرنست رونان لاحتلال موقعه بين زملائه، يوم الخميس الموافق ٣ نيسان ١٨٧٩، تدافع الحضور تحت قبة الأكاديمية لشدة ما كانت كلمته مرتقبة. ولم يُخيِّب الخطيب التوقعات.

استهلَّ الكلام بالمديح التقليدي لمؤسِّس الأكاديمية، ولكنه فعل ذلك على طريقته.

«أيها السادة،

الكاردينال العظيم دو ريشوليو، على غرار جميع الأشخاص الذين خلَّفوا بصمتهم في التاريخ، قام بتأسيس أمور كثيرة لم تخطر بباله على الإطلاق، بل أمور لم يرغب فيها إلا على مضض. فلا أدري، على سبيل المثال، إذا كان يهتم كثيراً بما ندعوه اليوم بالتسامح المتبادل وحرية الفكر. فاحترام الأفكار المغايرة لأفكاره لم تكن شيمته الأساسية، وأما الحرية، فلا نرى أنها احتلت موقعها المذكور في مخطط البناء الذي كان يشيِّده. ومع ذلك، فمسافة مائتين وخمسين

عاماً تفصلنا عنه، وهذه المسافة تبين لنا أن المؤسس الحاد الطبع للوحدة الفرنسية، بالمعنى الحقيقي جداً للكلمة، هو صانع المبادئ التي كان ربما سيحاربها بشدة، لو رآها تظهر في حياته. أفليست هذه المؤسسة التي تعتبر أكثر منشآته ديمومةً أيها السادة درساً عظيماً في الحرية، نظراً إلى أن جميع الآراء السياسية والفلسفية والدينية والأدبية، وجميع أساليب فهم الحياة، وجميع أنواع المواهب، وجميع أشكال الجدارة، تجلس في هذا المكان جنباً إلى جنباً بأحقِّية متساوية؟».

غير أن فقرةً أخرى من هذه الكلمة ستحدث وقعاً في سياق العصر. فهزيمة فرنسا أمام بروسيا كانت حديثة العهد في الأذهان، وكذلك خسارة منطقة الألزاس- لورين التي تغذي الرغبة في الانتقام. ولكن الفرنسيين كانوا فريسة الشك. فكيف ضعفت قدراتهم إلى هذا الحد وقد استطاعوا في العقود الماضية، بقيادة نابوليون الأول، أن يغزوا أكبر جزء من أوروبا، وأن يضمُّوا هامبورغ وبريمن، وأن يُخضعوا بافاريا وفورتمبرغ ووستفاليا وساكسونيا، وعشرات الولايات الألمانية الأخرى؟ كيف استطاعوا أن يستسلموا للهزيمة والذل؟ هل يستعيدون يوماً المكانة التي كانوا يتبوّأونها، مكانة أعظم أمة في أوروبا وسائر العالم؟ كانوا يسعون جاهدين لعدم التخلي عن إيمانهم بعبقريتهم ولكنهم أصبحوا في حيرة تامة من أمرهم.

أراد رونان أن يعيد إليهم الثقة. ومع أنه كان يتوجَّه إلى زملائه في ذلك اليوم، فقد كان يخاطب الأمة بأسرها.

«إنكم لا تأبهون لدى سماع ذلك الإعلان المغرور عما يُسمَّى الثقافة الأخرى التي ستستغني عن الموهبة. إنكم لا تبالون بثقافة لا يصبح الإنسان بفضلها أكثر دماثة أو أفضل حالاً». ولقد حرص على عدم تحديد الثقافة التي يشير إليها صراحة، ولكن جميع الحاضرين كانوا يعلمون حقَّ العلم ما يلمِّحُ إليه. «لن يكون بوسع علم متبجِّح في وحدته، وأدب دون بهجة، وسياسة كئيبة، ومجتمع راقٍ دون ألق، وطبقة من النبلاء دون نباهة، وسادة دون تهذيب، وقادة عظام دون ألفاظ طنانة، أن يحلُّوا عما قريب، على ما أظن، محل ذكرى هذا المجتمع الفرنسي التليد، المتألق والراقي والحريص على انتزاع الإعجاب. عندما ستنتج أمة، بواسطة ما تدعوه بجديتها ومثابرتها، ما أنجزناه بخفَّتنا، أدباءً يتفوقون على باسكال وفولتير، وعقولاً علمية أفضل من عقل دالامبير ولافوازييه، وطبقة من النبلاء أرقى من طبقة نبلائنا في القرنين السابع عشر والثامن عشر، ونساءً أجمل من اللواتي ابتسمن لفلسفتنا، وزخماً أكثر تميزاً من زخم ثورتنا، وسهولةً أكبر لاعتناق الأوهام السامية، وشجاعةً أوفر، ولياقةً أكثر... فعندئذٍ، سنهزم. ولكننا لم نُهزم بعد، وما زال العالم يعيرنا أذناً صاغية».

كان خطاباً قوياً، مشاكساً، هجومياً، ولقد قوبل بتصفيق حار. غير أن الذين يتابعون منذ وقت طويل مسيرة رونان، وبوسعهم أن يذهبوا

أبعد من مظاهر الأمور، يعرفون أن هذا الهجوم يشكل، في الحقيقة، ندماً.

فالرجل كان من المعجبين بألمانيا منذ عهد بعيد. وفي عام ١٨٦٦، ابتهج لرؤية الباريسيين يرفعون الأعلام لدى وصول الأنباء عن الانتصار البروسي على الإمبراطورية النمساوية. وكتب آنذاك ما يلي: «إن ما انتصر في موقعة سادوفا هو العلم الألماني، والجدارة الألمانية، والبروتستانتية، والفلسفة، ولوثر، وكانط، وفيشته، وهيغل!».

وحتى في أيلول ١٨٧٠، في الأيام التي أعقبت هزيمة فرنسا في سيدان واستسلام نابوليون الثالث، تحلى رونان بالجرأة على طرح هذه النبوءة - الكريمة بلا شك إنما غير المنطقية، والتي سيُلام عليها حتى بعد مماته: «إن اتحاد القوات الألمانية بيد بروسيا مجرد حدث حصل بحكم ضرورة عابرة. وحالما يختفي الخطر، ستختفي هذه الوحدة، وستعود ألمانيا عما قريب إلى غرائزها... وألمانيا، إذا ما تُركت لإبداع عبقريتها، ستكون أمة متحرِّرة، سلمية، بل وديمقراطية...».

وسيبدِّل تحليله بسرعة نسبياً، لأنه كان يشعر بالخيبة بالدرجة الأولى، بل كان مجروحاً بسبب موقف بعض المثقفين في الضفة الأخرى من نهر الراين، الذين كان يشعر بأنه قريب منهم حتى الساعة، والذين أحسُّوا فجأة، على ما يبدو، بنشوة انتصار بلدهم؛ على غرار المؤرخ الكبير تيودور مومسن الذي برَّر في مقالة طنانة ما لحق بفرنسا من مذلة بكون ثقافة هذا البلد أصبحت «خفيفة» و«فاسدة» و«منحرفة»؛

أو عالم اللاهوت الليبرالي دافيد فريدريش شتراوس الذي كان أقرب صديق ألماني لرونان، والذي يطلب إليه الآن أن يتقبل بأن تكون الألزاس بديهياً جزءاً من ألمانيا لأنها تنطق بلغتها. ولقد ردَّ رونان على ذلك بأن إرادة الشعوب المعنية هي التي تهمُّ فقط. «لا جدال في أننا إذا ما طرحنا السؤال على سكان الألزاس، ستختار أغلبية ساحقة أن تظلَّ في وحدة مع فرنسا. فهل يليق بألمانيا أن تضمَّ بالقوة مقاطعة متمرِّدة، وساخطة، أصبحت صعبة القياد؟». ثم أضاف هذه الكلمات التي لم يفطن أحد حينئذ إلى مدى بعدها الرؤيوي: «سياستنا هي سياسة حق الشعوب؛ وسياستكم هي سياسة الأعراق: وإننا نعتقد أن سياستنا هي أفضل من سياستكم. فالتقسيم الحاد للبشر إلى أعراق، إلى جانب كونه يستند إلى خطأ علمي، نظراً إلى أن قلة قليلة جداً من البلدان تنتمي إلى عرق أصيل بحق، لا يمكن إلا أن يؤدي إلى حروب إبادة...».

وشعر رونان الذي كان قد تخلى عن أوهامه التوفيقية، أثناء إلقاء كلمته تحت قبة الأكاديمية، بالحاجة إلى الدفاع عن ثقافة الفرنسيين والردِّ على الذين يجيزون لأنفسهم الحطَّ من شأنها. ولقد فعل ذلك بموهبة وحذاقة وأناقة. ولكنه ما انصاع قط للخطاب القومي السائد في عصره؛ ولن ينتهي به المطاف أن يحوِّل صفة «جرماني» إلى صفة شائنة؛ ولن يقبل إطلاقاً أن «يرمي الطفل مع ماء الحمام» وفقاً للتعبير الفرنسي المترجم على الأرجح عن اللغة الألمانية. وسيقول مراراً

وتكراراً: «مدائحنا لا نندم عليها. لم نبدِّل حكمنا على غوته أو هردر. هل أخطأنا إذا ألفينا أنفسنا، بسبب تمسكنا بأحكامنا السابقة، حيارى أمام ما يزعم الآن بأنه المثال الأعلى الجديد؟».

لم يكن هذا «المثال الأعلى الجديد» يقتصر على ألمانيا. ففي جميع أنحاء أوروبا، ولا سيما في فرنسا، ستصبح الحركات القومية أشد صلفاً ودوياً واختزالاً. ولم يشأ رونان الرضوخ لمنطقها العنصري أو حتى العرقي. وكان يقول إن الأمة «هي روح، وذهنية، وأسرة روحانية، تتمخَّض في الماضي، عن ذكريات وتضحيات وأمجاد، وعن مآتم وحسرات مشتركة؛ وفي الحاضر، عن الرغبة في مواصلة العيش المشترك. فليس النطق بلغة واحدة، أو الانتماء إلى المجموعة العرقية نفسها ما يصنع الأمة بل ما يصنعها أننا أنجزنا أموراً عظيمة في الماضي ونريد إنجاز المزيد في المستقبل». كان يبدو فخوراً بإسهامات أمته، ولكنه لم يكفَّ عن التذكير بما يكتسب عنده أهمية جوهرية: «الإنسان لا ينتمي إلى لغته أو إلى عرقه: إنه لا ينتمي إلا إلى نفسه، لأنه كائن حرٌّ، وكائنٌ أخلاقي».

وفي عام ١٨٨٠، طرح زبدة أفكاره عن مسائل الهوية والانتماء في محاضرة تحمل بالضبط عنوان: ما هي الأمة؟ ولدى قراءة هذا النص، نفهم أن يكون رونان استمال الجمهور. فسيتحوَّل، بفضل وضوح أسلوبه وتماسك فكره وحسِّه الأخلاقي وقوة حجته، إلى نموذج المفكِّر الذي ينفذ إلى عمق الأشياء، في تحرياته والتزاماته على السواء.

وإذا كان اسمه يستطيع حتى اليوم أن يثير لدى البعض الإعجاب، ولدى البعض الآخر كراهية راسخة، فليس ذلك بسبب مواقفه بشأن الأمة، بل بشأن الدين الذي ستكون علاقته به طوال حياته من أشدِّ العلاقات تناقضاً.

***

خلال مراهقته، وحتى السنوات الأولى من مرحلة الرشد، كان رونان يظنُّ بأنه سينخرط في سلك الكهنوت. ولا شيء في مسيرته كان ينبئ بأنه سيُنعت، لدى بلوغه سن الأربعين، بالعدو اللدود للديانة المسيحية.

ولد في تريغييه، بمنطقة بريتانيا، لأسرة برجوازية مرتاحة نسبياً، ولكنها كانت تواجه ظرفاً صعباً لدى ولادة ابنها عام ١٨٢٣. فوالده الذي كان يملك شركة بحرية صغيرة شهد تجارته تتعثَّر وكان على وشك إعلان إفلاسه. ولقد اعتراه جراء ذلك إحباط شديد، وفي إحدى أمسيات الصيف، جاء من يبلغ الأسرة أنه قد وقع من سفينته في عرض البحر؛ ولقد اكتشفت جثته الهامدة على أحد الشطآن بعد عدة أيام. وكان إرنست طفلاً في الخامسة من العمر، وسيكتب لاحقاً: «منذ تلك اللحظة، أصبحنا نعيش في فاقة».

لم يترك الوالد لورثته سوى ديون تعجز أرملته عن تسديدها، فأخذت ابنتهما هنرييت البالغة من العمر سبعة عشر عاماً بزمام الأمور، وستظلُّ تعمل طوال حياتها لانتشال أسرتها من الغرق.

في بادئ الأمر، سعت إلى إنشاء مدرسة للإناث في تريغييه، وعندما لم تفلح في مسعاها، ذهبت للتعليم في باريس، ثم اشتغلت لدى عائلات ثرية بوصفها مدرِّسة خصوصية. وقامت باتصالات لإحضار شقيقها إلى العاصمة وتسجيله في مدرسة سان-نيكولا-دو-شاردوني التي كانت من أفضل مؤسسات التعليم الكاثوليكية. كان إرنست في الخامسة عشرة، ولم يصعب عليه أن يثبت مستواه. فاعتبر تلميذاً نموذجياً بفضل ذاكرته الخارقة، وفهمه العميق للنصوص، وقدرته على التركيز على عمله لساعات طويلة، وكذلك سلاسة خلقه. كان لا يشتكي، ولا يرتكب أي حماقة من حماقات الشباب في سنه، ويجد متعته في الدراسة، وكل الدلائل تشير إلى أنه سيصبح كاهناً واسع الاطلاع. وهذا ما كان يرجوه بالتأكيد مدير المدرسة، المونسنيور فيلكس دوبانلو، ذاك الذي سيرتبط اسمه بأغنية ماجنة مناهضة بشدة للإكليروس، تقول لازمتها: «والله، والله، إن الأب دوبانلو مقرف!». وخلافاً لهذه الكلمات، كان الرجل محترماً كل الاحترام وإن أبدى تصلباً في كل ما يتعلق بشؤون الدين. كان عليماً ومثقفاً وحذقاً وخطيباً مفوَّهاً، وسيؤكد مكانته في فرنسا بوصفه الشخصية الكنسية البارزة على الساحة في ذلك الوقت. كان بوسع رونان أن يسلك نهجاً مماثلاً. كان من المفترض منطقياً أن يُرسَّم كاهناً، وأن يكرِّس نفسه للدين. وإذا ما انصرف عن هذا النهج في سن الثالثة والعشرين تقريباً، فلم يكن ذلك بسبب خوفه من حياة الزهد والتقشف التي تنتظره، بل على العكس،

بسبب فرط الحماسة، إذا ما جاز لنا القول، وكذلك بُحكم صرامته الفكرية والأخلاقية.

ففي الواقع، كان قد غاص بكل جوارحه في دراسة الكتاب المقدس، وراح يشكّك في أصالة بعض النصوص؛ فكان يبدو له بجلاء أن ذلك السفر المنسوب إلى إشعيا قد كتبه شخصان مختلفان، وأن ذلك السفر الآخر المنسوب إلى دانيال يعود إلى فترة مختلفة عن تلك التي يحدِّدها التقليد المقدس. لم تكن هذه الشكوك كافية لزعزعة إيمانه المسيحي، ولكنه قال لنفسه إنه لو شاء أن يتابع هذه الأبحاث التي تثير اهتمامه في أفضل الظروف، فلا يجدر به أن يضع نفسه تحت سلطة أسقف أو رئيس رهبانية. لم يكن موقفه عند ذلك الحد تمرداً ضد الدين بل قرارَ باحثٍ حريصٍ على صون حريته البحثية. فعدل عن الترسيم كاهناً. وفي ٦ تشرين الأول ١٨٤٥ على وجه التحديد الدقيق، سيروي في ذكريات الطفولة والشباب أنه قرر أن يخلع جُبَّة طالب اللاهوت نهائياً؛ وكان قد خاض نقاشاً أخيراً مع المونسنيور دوبانلو الذي أطلعه على تساؤلاته وشكوكه، فشجَّعه الكاهن على المغادرة، بل وأعطاه ورقة نقدية لكي يتسنى له سدَّ احتياجاته في الأيام التي ستلي عودته إلى الحياة المدنية.

ظلَّ يهتم بكل ما يتعلق بالدين، ولا سيما النصوص المقدسة، ولكنه وسَّع نطاق دراسته إلى حد كبير. فانكبَّ على قراءة الفلاسفة الألمان،

لا سيما كانط وهيغل وهردر؛ وسعى جاهداً إلى استيعاب الاكتشافات العلمية التي ظهرت في الآونة الأخيرة، مثل اكتشافات داروين، والتأمل في تداعياتها؛ وأبدى شغفاً كذلك باللغات والحضارات الشرقية. وفي الخامسة والعشرين، نال المرتبة الأولى في امتحان شهادة التبريز في الفلسفة، وحصل على شهادة الدكتوراه، بعد أربع سنوات، عن أطروحته ابن رشد والرشدية. كان منصرفاً كلياً إلى أبحاثه، وبدأ يكتب وينشر بغزارة عن مواضيع مختلفة تراوح من أصول اللغة إلى النظم المقارنة للغات السامية، مروراً بكتاب الروح البريتانية؛ فاستطاع بذلك أن يدخل، منذ سن الرابعة والثلاثين، في أكاديمية النقوش والآداب.

وفي عام ١٨٦٠، قصد جبل لبنان، موفداً بمهمة كلّفه بها نابوليون الثالث. كان هذا البلد قد شهد أبشع المجازر الطائفية في تاريخه، وأرسلت فرنسا حملة عسكرية لإعادة السلم الأهلي. وإلى جانب القوات العسكرية، تقرّر إرسال فريق من الباحثين المكلفين بالقيام بحفريات، مثلما فعل بونابرت في مصر في أواخر القرن الثامن عشر. واختير رونان بمثابة «شامبوليون» جديد. ولم يكن الأمر يتعلق، هذه المرة، بفك رموز الكتابة القديمة؛ فالأبجدية الفينيقية التي ظهرت قبل الإغريقية واللاتينية، كانت معروفة لدى علماء الآثار. ولكن لم تحصل أي حفريات رصينة على الإطلاق، وكانت إقامة عالم لغات واسع الإطلاع تبدو ضرورية. فحدّد لنفسه هدفاً متواضعاً بالأحرى،

وهو «تنظيف» عدد من المواقع الأثرية، تيسيراً لدراستها دراسة وافية في مرحلة لاحقة.

ولقد رافقته شقيقته في مهمته وكذلك، في جزء من الرحلة، زوجته كورنيلي شيفر التي تزوجها عام ١٨٥٦. ولكن حضور الأولى سيضفي طابعاً مأسوياً على هذه الرحلة: ففي أيلول ١٨٦١، أصيب إرنست وهنرييت بنوبة شديدة من الملاريا. وعندما استفاق من خدره، قيل له إن شقيقته قد فارقت الحياة. كانت في الخمسين من العمر، ولم تتزوج قط، ربما لكي لا تفارق شقيقها الحبيب.

وسيكتب، فور عودته إلى فرنسا، قصة بعنوان شقيقتي هنرييت تكريماً لها. «كانت تقرأ مسوَّدات كل ما أكتبه، ورقابتها الثمينة تبحث برقةٍ متناهية عن جوانب أُهملت لم أُعرها انتباهاً... ولشدة اطلاعها على نهجي في التفكير، تكاد تستبق دائماً ما سأقوله، إذ تتفتق الفكرة في ذهنها وذهني في اللحظة نفسها».

وأشد الفقرات مبعثاً للأسى في هذه السيرة القصيرة المحبة حين يروي الكاتب ما جرى لهنرييت عندما أبلغها بأنه قرر الزواج. فعلى حين غرة، أصيبت الشقيقة المخلصة والمحبة بنوبة غيرة عنيفة. «لقد اجتزنا كل العواصف التي بوسع الحب أن يشهدها». وبلغ بها الأمر مبلغاً أن هدَّدت، بعبارات مبطنة، بالانتحار. فذُعر إرنست وأبلغ خطيبته بأنه عدل عن الاقتران بها. ثم عاد وأطلع شقيقته على قراره. فلم تحرِّك ساكناً، ولكنها هرعت، في اليوم التالي، في ساعة مبكرة جداً،

عند كورنيلي لكي تقول لها إنه من غير الوارد أن تدع شقيقها ينكث بوعده. فأقيم الحفل؛ ثم سافر العريسان في شهر العسل إلى وادي اللوار، حيث كتب إرنست لهنرييت: «ليتني أستطيع أن أقنعك بأن لا شيء، لا شيء على الإطلاق، تغير بيننا، وأنك تظلين قدوتي الغالية، وآية النبل والجمال في حياتي! وستجهلين طبيعتي إذا ما ظننت أن مودة عندي تطرد مودة أخرى وأن تلك التي أكنُّها لك بوسعها أن تتناقص أو تستبدل!».

وستكون إقامتهما المشتركة في جبل لبنان، نوعاً ما، «شهر عسلهما»، وهي خاتمة مأسوية لقصة الحب المؤثرة بين الأخ الأصغر وأخته البكر. «استولى علينا سُبات الحمى في الساعة نفسها؛ ولكني استيقظت وحيداً!».

بعد انقضاء اللحظات الأولى من اليأس، أعلن أنه سيشيِّد لهنرييت ضريحاً. ولكن الأعيان الموارنة الذين كانا يقيمان في ضيافتهم في نواحي جبيل القديمة اقترحوا عليه أن تُوارى شقيقته في مدفن أسرتهم، قرب الكنيسة. فقبل في نهاية المطاف، وقال إنه لم يشأ جرح مشاعرهم: «على الرغم من ذلك، أريد أن نجتمع يوماً. فذلك ليس عندي سوى ترتيب موقت. ولكن من يدري أين ستأتي وتوافيني، وإن كنت أنا سآتي وأوافيها؟».

***

وتلقى رونان، فور عودته إلى فرنسا، رسالة كتبت بيد نابوليون الثالث. «لما علمت بالمصاب الذي ألمَّ بك، ندمت على أنني شجعت تفانيك للعلم بتيسير رحلة محفوفة بالأخطار كانت نهايتها أليمة بالنسبة إليك». ودعاه إلى أن يأتي لزيارته لكي يقدِّم له العزاء وجهاً لوجه ويسمع منه نتائج مهمته. وسيذهب رونان بالفعل لمقابلته في كومبيين في تشرين الثاني ١٨٦١.

وبعد ذلك بفترة وجيزة، حصل على كرسي اللغة العبرية في كوليج دو فرانس، وكان ذلك بمثابة تكريس. وفي التاسعة والثلاثين، كان قد أصبح شخصية مشهورة لا أحد يطعن في سعة معارفها؛ غير أن معارضي النظام اتهموه بأنه «باع» نفسه، لدى قبوله البعثة في جبل لبنان أولاً، ثم لدى قيامه بزيارة الإمبراطور؛ وأقسموا على التشويش على محاضرته. وكتب رونان إلى غوستاف فلوبير في ٢١ شباط ١٨٦٢ يقول : «غداً، ألقي محاضرتي الأولى التي ستكون معركة كما يقال». وكانت معركة بالفعل، معركة طويلة، بدأت بالطريقة التي كان يتوقعها الجميع، ولكنها سرعان ما ستأخذ منحى مختلفاً تماماً.

ولقد ذكر مدير الكوليج في تقرير رفعه إلى وزير التعليم العام : «في الساعة الواحدة بعد الظهر، كان هناك ما يقرب من مئتي شخص يقفون بالصف أمام باب مدرج الطب الذي أعاره السيد كلود برنار في ذلك اليوم للسيد إرنست رونان. وفي تمام الثانية، فتحت أبواب القاعة؛ وهرع الحشد إلى الداخل، وبعد بضع دقائق، غصت القاعة بالحضور.

وكان أغلبيتهم يهتفون: «يعيش رونان!» وإلى يسار القاعة: «يسقط رونان! لن يتكلَّم!». وردَّ السواد الأعظم من الحضور: «بل سيتكلَّم!». وسادت البلبلة، وعلت صراخات متحمسة. وكرر محرِّرو صحيفة العمل الهتافات التي سمعت قبل الدخول إلى القاعة : «فليسقط موفد كومبيين! فليسقط رونان! فليسقط أنصار أصحاب القلانس من جميع الأديان!». وعندما دخل السيد رونان إلى القاعة، استقبل بهتافات حماسية أطلقتها أغلبية الحضور، ولكن الجهة اليسرى من القاعة التي جلس فيها محرِّرو صحيفة العمل راحت تطلق صيحات استنكار ورمت صوبه كميةً من النقود المعدنية. وعلى الرغم من المقاطعات المتكرِّرة التي قمعها على الفور تصفيق حاد اتسم أحياناً بعنف غير مسبوق، استطاع الأستاذ أن يلقي محاضرته حتى النهاية...».

وكان خطابه المعنون من جانب الشعوب السامية في تاريخ الحضارة يتضمن فقرة كتبت على النحو التالي: «لقد جرى في الجليل أكثر الأحداث الأخلاقية فرادة التي يحتفظ عنها التاريخ بذكرى. فقد بادر رجل لا يضاهى، - ومن العظمة، مع أن الواجب يحتم الحكم هنا على كل الأمور من زاوية العلم الموضوعي، بحيث أنني لا أريد معارضة أولئك الذين انبهروا بالطابع الاستثنائي لعمله فسَمُّوه الله - ، إلى إصلاح اليهودية إصلاحاً كان في الحقيقة إبداعاً بكل معنى الكلمة لشدة ما تميز بجذريته وفرديته».

واليوم، لا شيء يصدم في هذه السطور القليلة. ولكن مجرد

الكلام على يسوع في ذلك العصر باعتباره «إنساناً» وإن كان «لا يضاهى»، كان أمراً مرفوضاً. ويشعر القارئ، لدى قراءة هذه السطور، أن الكاتب سعى جاهداً إلى كتابة جملة متوازنة بعناية، بل ملتوية. غير أنه عبثاً فعل. فلقد جرَّ على نفسه، في اللحظة نفسها وإلى الأبد، الحقد الشرس للأوساط الإكليريكية، فيما كان مناهضو الإكليروس قد هتفوا ضده واعتبروه من «أنصار أصحاب القلانس». وبعد أربعة أيام من محاضرته، صدر مرسوم وزاري أوقفت بموجبه محاضراته، نظراً إلى أن «السيد رونان عرض عقائد تجرح المعتقدات المسيحية في الصميم وقد تؤدي إلى قلاقل مؤسفة».

وفي اليوم نفسه، تلقى الأستاذ ما بوسعنا أن ندعوها «كلمة اعتذار»، بخط نابوليون الثالث يقول فيها: «سيدي، إنك تعلم مدى اهتمامي بك وكل تقديري لسعة معارفك. ولذلك، يؤسفني أن أرى نفسي أوافق مرغماً على التعليق الموقت لمحاضراتك. وفي الواقع، ستتفهم أنه من المستحيل أن تجيز الدولة في كرسي للتعليم العمومي إنكار أحد الأركان الأساسية للدين المسيحي. وإنني أستهجن هذا التأخير، ولكن من المؤكد أنك ستتفاهم مع وزير التعليم العمومي، وسيكون بوسعه عما قريب أن يسمح باستئناف محاضراتك».

ولا بد من الإقرار بأن ذلك العصر ظلَّ، حتى في محظوراته ومواقفه المتعصبة، بالغ التحضُّر.

وعلى الرغم من الأمنيات الصادقة التي أعرب عنها الإمبراطور، كانت «قضية رونان» في مستهلها فقط. وعوضاً عن السعي إلى مصالحة مع وزيره الوصي، استفاد الأستاذ الذي أوقف عن التدريس من وقته ليضع اللمسات الأخيرة على مخطوطة كان قد شرع يعمل عليها أثناء إقامته مع هنرييت في جبل لبنان. «قرَّرتُ بسبب الحر الشديد الذي يطبق على الساحل وحالة الإعياء التي كنا نعانيها أن نذهب ونقيم في غزير، وهي منطقة مرتفعة جداً عن مستوى البحر، في قلب خليج كسروان. وجدنا فيها بيتاً صغيراً، فيه عريشة حلوة. وهناك، استمتعنا ببضعة أيام من الراحة الرغيدة. وعقدت العزم على كتابة كل الأفكار التي تفتقت في ذهني عن حياة يسوع، منذ إقامتي في منطقة صور ورحلتي إلى فلسطين».

والأشخاص الذين استهجنوا الكلمات القليلة التي تفوَّه بها في كوليج دو فرانس سيعربون عن استهجانهم أضعافاً مضاعفة لدى إصداره هذه السيرة الذاتية الغريبة. وفي هذه الحالة أيضاً، لم تكن نية رونان الانتقاص من الشخصية الجليلة على الإطلاق، ولكن مجرد الكلام على يسوع وكأنه إنسان، وإدراجه في سياق التاريخ الديني والفكري والسياسي لعصره، كان يبدو آنذاك تحدياً ممجوجاً وتدنيساً للعقيدة المسيحية لألوهة المسيح.

وعندما سرت الإشاعة عن الإصدار الوشيك لكتاب بعنوان حياة يسوع في باريس، يوم ٢٤ حزيران ١٨٦٣، تجمهر حشد غفير أمام ١٥

بولفار الإيطاليين، مقر المكتبة الجديدة التي كان قد اشتراها توّاً الناشر ميشال ليفي وشقيقه كالمان. انقضَّ صحفيون ومعلِّمون وسياسيون وسيدات مجتمع لشراء النسخ القليلة المتوافرة من الكتاب؛ ونفدت عشرة آلاف نسخة من الطبعة الأولى في أيام معدودة؛ وبعد فترة وجيزة ستتجاوز الطبعة ٤٠٠ ألف نسخة- وهذا لم يحدث إطلاقاً من ذي قبل! وفي جميع أرجاء أوروبا، تُرجم الكتاب، ووُزِّع على نطاق واسع؛ وحيث كان محظوراً، كان يُوزَّع توزيعاً محموماً بالسر.

كان العداء الذي أثاره رونان على مستوى نجاحه. فلقد ألغيت محاضراته التي عُلِّقت حتى ذلك الحين في كوليج دو فرانس بصورة نهائية. وفي الأوساط الكاثوليكية، وكذلك في الأوساط البروتستانتية، كان الاستنكار جلياً. وانقضَّ عدد لا يحصى من الكراريس والعظات والمقالات الصحفية على الكاتب الذي أحدث فضيحة. ولقد توجَّه البابا نفسه بالتهنئة إلى الذين يناهضونه، وأطلق عليه ذلك اللقب الذي لن يمحى من الأذهان وهو «المجدِّف الأوروبي»، وهو لقب رأى البعض أنه يحكم عليه بوصمة العار إلى الأبد، واعتبر البعض الآخر أنه يكرِّس شهرته.

وحتى في عصرنا، يبقى إرنست رونان، بالنسبة إلى السواد الأعظم من الذين يعرفون اسمه، قبل كل شيء، المؤلف المهرطق لكتاب حياة يسوع، والعدو اللدود للديانة المسيحية.

ومع ذلك، ومع مرور الوقت، وبعد كل ما جرى منذ ذلك الحين في العالم الغربي وفي سائر العالم، يحقُّ لنا التساؤل إذا كان الشخص الثالث عشر الذي شغل المقعد لم يكن، على العكس، فألاً سعيداً، بل وبركةً، للعقيدة الإيمانية التي انفصل عنها.

فلقد أرغم المؤمنين، بإخضاعه النصوص المقدسة لنقد صارم، إلى الابتعاد عن قراءة شديدة الحرفية، أي قراءة مريحة، ولكنها عقيمة، ومحفوفة بالمخاطر في المدى البعيد. فالأشخاص الذين ينجحون في صون نصوصهم المقدسة من أي نقد تاريخي أو علمي يقودون حضارتهم نحو الجفاف والجمود. ولقد تطلب الأمر أن تتخلى الكنيسة، رغماً عنها، عن أشكال جمودها الذهني، لكي يتسنى للعقيدة الإيمانية في العالم الغربي أن تبدأ بالتعايش مع العلم والتقدُّم والحرية.

ورونان ليس بالطبع الوحيد الذي قام بهذا الهدم الإنقاذي. فلقد أسهمت في هذه الحركة ثلة من الباحثين والمفكرين، في جميع الميادين، ومن كل الأديان، ومن المذاهب الفكرية كافة. ويعتبر ما جرى في المقعد التاسع والعشرين في الأكاديمية الفرنسية في هذا الصدد مثالاً بليغاً: فها هما عالمان يتمتعان بمكانة عالمية، وبمعارف مختلفة، وبكفاءات متباينة، ومبادئ مغايرة، يحدثان في الأذهان ثورة مماثلة. كان رونان يخيف أولئك الذين يعتقدون أنه لن يبقى شيء من الدين إذا ما أدرج يسوع في البيئة التاريخية التي ظهر فيها؛ وكان كلود برنار يخيف أولئك الذين يعتقدون أن اختصار الحياة بمظاهر كيميائية

وفيزيائية سيحرم الإنسان من بعده الروحاني. وعندما تبدَّد هذا الخوف، تبين للجميع أن الطريقة التي يعمل بها الجسد، بل والطريقة التي يعمل بها الدماغ، لا تؤثر في المعتقدات الدينية سلباً أو إيجاباً. وفي الحقيقة، تبدو اليوم الفكرة التي مؤداها أن اكتشافاً علمياً - في البيولوجيا أو فقه اللغة أو الفيزياء الفلكية أو في أي ميدان آخر - يمكن أن يؤكد العقائد الدينية أو يدحضها فكرة غير منطقية. فالحاجة إلى الروحانيات لا تنفصل عن الحالة الإنسانية؛ ولذلك، لن يختفي إله «اللماذا» أبداً. أما إله «الكيف»، أي التفسير الإلهي لكل ما لا ندركه، فمصيره الاضمحلال كلما تراجع جهلنا. وبالتالي، لنا أن نتساءل تساؤلاً مشروعاً إذا كانت الكتابات المهرطقة لرونان لا يجب أن تستحق امتنان الكنيسة عوضاً عن غضبها.

ولن تتأثر المسيرة المهنية «للمجدِف» كثيراً بسبب الغضب الكنسي بل سستفيد منه وتعاني على السواء بالأحرى. ولا ريب أن المؤلفات الكثيرة التي سينشرها فيما بعد لن تحقق النجاح نفسه الذي حققه «أكثر كتبه مبيعاً» ولكنها لن تمرَّ مرور الكرام. لا تاريخ شعب إسرائيل، ولا الدراسة عن «الإسلام والعلم»، ولا ذكريات «الطفولة والصبا»، ولا تاريخ نشأة المسيحية الضخم، الذي كان كتاب حياة يسوع الجزء الأول منه فحسب؛ وحتى السيرة المقتضبة التي كرَّسها لشقيقته، وطلب سحب مئة نسخة منها للمقرَّبين، ستطبع أكثر من مرة. وكان راضياً كل الرضى بوصفه كاتباً.

وكان كذلك بوصفه أستاذاً. فسيعود إلى كوليج دو فرانس عودة المنتصر بعد انهيار الإمبراطورية الثانية. وهذا أمر لا يخلو من المفارقة عندما نعلم العلاقات الودية التي كانت تربطه بنابوليون الثالث. ولكن هذا الأخير كان يسعى إلى الظهور بمظهر حامي الديانة الكاثوليكية، وفي اليوم الذي اضطر فيه للاستسلام في موقعة سيدان أمام الجيوش البروسية، ثم التنازل عن العرش والعيش في المنفى، اغتبط أنصار الفصل التام بين الدولة والكنيسة؛ وكان رونان بنظرهم بطلاً.

كان يفترض بالمكانة التي اكتسبها أن تشرع له على الفور أبواب الأكاديمية الفرنسية. ولكن عقبة لا يستهان بها اعترضت سبيله تمثلت في المونسنيور دوبانلو، أستاذه السابق، الذي أصبح من أشد مناوئيه، فلقد انتخب عضواً في الأكاديمية عام ١٨٥٤، وكان يعتبر في الجمعية زعيم رجال الدين. كان الجميع يريدون تفادي إغضابه، فانتظروا أن يغادر باريس، وأن يعتلّ اعتلالاً شديداً، لكي «يمرِّروا» تلميذه. وفي اليوم الذي استقبل فيه هذا الأخير استقبالاً مهيباً تحت قبة الأكاديمية، كان دوبانلو يرقد في قبره.

أما رونان فلقد رحل عام ١٨٩٢ عن عمر تسعة وستين عاماً - وقوراً، مكروهاً، بمفرداته الأنيقة، ونظرته الماكرة، وهامته البدينة. وأقيم له مأتم وطني بقرار حكومي، كما جرى لسلفه، إنما بدون قداس كنسي.

***

وبعد عدة سنوات، قرَّرت الحكومة أن تقيم له نصباً تذكارياً في مسقط رأسه في تريغييه. فأنجزت منحوتة تجاورت فيها الواقعية والرمزية؛ فرونان يتجسَّد فيها في سنوات شيخوخته، متهالكاً على مقعد، متكئاً على عصا، جسيماً، وقد أرخى رأسه جانبياً في وضعية التأمل أو ربما الإعياء؛ وفوق رأسه، انتصبت الإلهة آثينا، بعظمتها ورشاقتها، رمزاً للفكر الحر.

كانت إقامة مثل هذه النصب التذكارية في ذلك العصر ممارسة شائعة لتكريم المشاهير والعظام. ولكن تكريم «المجدِّف» لم يمرَّ دون عراقيل. فلقد استهجن بعض الكاثوليكيين البريتانيين إقامة هذا التمثال على بعد خطوتين من الكنيسة، واعتبروا ذلك استفزازاً متعمداً، وأقسموا على عرقلة حفل التدشين الرسمي.

كان من المقرر إقامة هذه الحفل في ١٣ أيلول ١٩٠٣ بحضور رئيس الحكومة. كان إميل كونب نفسه طالب لاهوت سابقاً، وبعد أن نزع جبة الكاهن، أصبح من أبرز قادة الحزب الراديكالي، وهو حركة سياسية كانت تدعو بعزم إلى العلمانية والفصل بين الكنيسة والدولة. ولقد جاء بصحبة بعض المسؤولين السياسيين الآخرين، وعدد من الشخصيات من عالم الفكر، أمثال أناتول فرانس الذي سينال جائزة نوبل للآداب لاحقاً، والذي اعتبره الكثيرون الابن الروحي لرونان. ونُشرت قوات في المدينة للحيلولة دون التشويش على الحفل. أما المناوئون فلقد حشدوا من جهتهم جمعاً غفيراً على مشارف الكنيسة،

كان يزعق: «فليسقط العلمانيون!»؛ فيردُّ عليهم أنصار كومب: «فلتسقط القلنسوة!». وتدافع الناس واشتبكوا وتبادلوا اللكمات، وحصلت اعتقالات عاصفة؛ ولكن لم يسقط أي قتيل ولم يصب أي شخص بجروح بليغة، لحسن الحظ.

وأخيراً، جرى تدشين النصب التذكاري كما كان مقرَّراً: فرفعت عنه الستارة ، وألقت الشخصيات كلماتها، ثم عادت إلى باريس دون عراقيل. غير أن الأوساط الكاثوليكية لم ترضَ بذلك. ولقد نظَّمت اكتتاباً لتشييد نصب «عذاب الاحتجاج» الذي دُشِّن بعد ثمانية أشهر بحضور آلاف المؤمنين.

واليوم، بوسع من يزور تريغييه أن يرى فيها نصبين متقابلين، الأول لتكريم رونان، والثاني لتحديه. ولقد نُقشت على الأول هذه الحكمة لابن البلدة: «لا يجب أن يتحوَّل إيماننا إلى قيود وأغلال»؛ ونُقشت على الثاني هذه الجملة التي يقال إن جندياً رومانياً لفظها عند قدمي المسيح المصلوب: «كان هذا الرجل حقاً ابن الله».

١٤

ذاك الذي لم يكن يحبُّ سلفه

انتخب الشاغل الجديد للمقعد التاسع والعشرين في الأكاديمية يوم الخميس ٢٣ آذار ١٨٩٣؛ وبعد أربعة أيام، أصبح رئيس مجلس الشيوخ، وهو منصب كان يشغله حين استقبل استقبالاً مهيباً تحت قبة الأكاديمية واضطر إلى مديح سلفه.

ولقد أسرَّ إلى إحدى صديقاته: «هذا الخطاب اللعين يقضُّ مضجعي؛ فليس من السهل تدبيجه. وما يزيد المهمة صعوبةً أيضاً ضرورة عدم جرح مشاعر مؤلهي رونان، بدءاً بأرملته، واستحالة تزييف رأيي الذي لا يمتُّ إلى التأليه بصلة...».

كان الجزء الأخير من الجملة بمثابة تلطيف للكلام، ففي الحقيقة، كان الأكاديمي المنتخب حديثاً يكره رونان، ولم يستطع أن يخفي مشاعره في الكلمة التي ألقاها. ومع أنه ظلَّ ملتزماً حدود اللياقات على مستوى الشكليات، سيعمد إلى هدم الراحل الشهير - شخصيته، وأعماله، وأفكاره - بألفاظٍ قاسية قلما سُمعت في هذا المكان.

كان الكثيرون، كما نعلم، يمقتون مؤلف حياة يسوع. ولكن خلفه لم يكن على الإطلاق من الأشخاص الذين استطاع هذا الكتاب أن يصدمهم. فبول-آمان شالميل-لاكور الذي كان أصدقاؤه وأعداؤه يدعونه «شالميل» ببساطة كان سياسياً يسارياً، جمهورياً أصيلاً، علمانياً ومناهضاً للإكليروس. ولئن انتقد بالفعل المفكِّر الذي حطم العقائد التقليدية لأنه مسَّ بالمقدسات، فالأمر لم يكن بسبب الطبيعة الإلهية للمسيح.

«كان السيد رونان يدين الثورة الفرنسية بلا كلل وكأنه يستمتع بالاستهزاء بأكثر الأحكام المسبقة التي تعزُّ على قلوب فرنسا. لم يكتفِ بالمهمة التافهة التي تقوم على تسخيف تجاوزاتها مرة أخرى، بل راح كذلك يستهزئ بمبادئها، ويشجب ما هدمته وما بنته، ويحلو له أن يحطَّ من شأنها فيختزلها إلى حجم حدث ثانوي في بلاد الغال. ولم يبدِّل أفكاره البتة: فلكثرة ما أعرب عنها، ترسَّخت لديه وتجذرت. وإنني على يقين أنه كان يكذِّب ذلك أمام نفسه وتلك الابتسامة التي تعرفونها ترتسم على وجهه: «لقد هاجمتُ الثورة كثيراً؛ ولعلها أفضل ما صنعناه، بما أن العالم يغار منها بشدة».

وجملة تلو الأخرى، تحوَّل مديح شالميل الغريب لسلفه إلى هجاء. تحدث عن «عدائه للديمقراطية» وعن «صمته الشبيه بصمت أبي الهول الذي يمتلك سراً إلهياً»، وعن «نبرة السخرية اللاذعة تلك التي يكاد لا يتخلى عنها إطلاقاً»، وعن «إعجابه الساذج بعض الشيء بكل ما هو ألماني» في حين أن «التقليد الفرنسي كان يزعجه قليلاً».

ووفقاً لخلفه، «كان السيد رونان لا يقيم وزناً للأدب، أو للموهبة الأدبية»، وآراؤه السياسية تختصر بصيغة بسيطة: «استعادة الماضي»؛ و«تربيته الإكليريكية نقلت إليه ذلك الشعور بأن هذا المجتمع الذي خرج منذ وقت طويل من النظام، والمسخَّر الآن لأطماع مبتذلة، لا يستحق الكثير من الاهتمام»؛ وكان يتوق إلى رؤية البشرية جمعاء «يُضحَّى بها ويُستعاض عنها بنخبة حاكمة من المفكرين»؛ و«يجيد إضفاء أشكال دينية على أغرب الأفكار» يتوارى خلفها، حين نمعن فيها النظر عن كثب، «المفهوم الكئيب لعالم لا معنى له».

ولكي يفهم المرء أسباب هذه النقمة، لا بد من العودة إلى تلك الجلسة العاصفة في كوليج دو فرانس، في شهر شباط ١٨٦٢، حيث تعرَّض رونان الذي كان قد عاد توّاً من جبل لبنان، لصيحات استهزاء أمطرها عليه من كل حدب وصوب من اتهموه بأنه قد «باع» نفسه للنظام الإمبراطوري. ولو كان شالميل موجوداً في القاعة في ذلك اليوم، لشارك في الهتافات. وكان ينتمي، في الواقع، إلى أكثر الفئات عداءً لنابوليون الثالث ويرى أنه طاغية، ويعتبر من يتحالفون معه، لا سيما في أوساط الأساتذة الجامعيين، خونة للقضية الجمهورية.

والرأي السلبي الذي كوَّنه عن رونان يعود إلى تلك الفترة، ولم يأتِ ما يصحِّحه خلال العقود الثلاثة التالية. لا شك أنه قد حرص على تطعيم كلمته التي ألقاها تحت قبة الأكاديمية بمجموعة من الألفاظ التقريظية التي وصف بها سلفه، على غرار «فكر فذ» و«متألق» و«فرادة»

و«موهبة» و«عبقرية» و«عمل رائع»؛ ولكن لا أحد صدَّقه. فبعد انقضاء الدقائق الخمس الأولى، أدرك جميع الحاضرين، وليس أرملة رونان و«مؤلهيه» فحسب، بأن ما تسمعه آذانهم ليس مديحاً على الإطلاق.

وكان يتوجب على الأكاديمية التي اطلعت على نص الكلمة، وفقاً للتقاليد المتبعة، خلال جلسة خاصة في الأسبوع السابق، أن تقدم رداً. ولقد فعلت بصوت الأستاذ المتخصِّص في اللغة اللاتينية الشهير غاستون بواسييه. كان بواسييه أستاذاً في كوليج دو فرانس، اختير، منذ انتخاب شالميل، من أجل «استقباله» أي في لغة الجمعية، للرد على الكلمة التي ألقاها بمناسبة انتسابه إلى الأكاديمية. ودرجت العادة أن يتوجَّه العضو الجديد بالشكر إلى زملائه على اختيارهم له؛ ويتوجه بالتحية للكاردينال – المؤسِّس؛ ثم يخصص جلَّ كلمته لمديح الشخص الذي جاء خلفاً له. ويفترض بالشخص الذي سيردُّ عليه أن يستعيد مسيرة الشخص الذي يستقبله.

غير أن الأمور لم يكن بوسعها في ذلك اليوم أن تسير كما درجت العادة. فلقد حاد شالميل عن دوره، ولذلك كان بواسييه مضطراً إلى أن أن يحيد عن دوره كذلك، لتصحيح الصورة التي وصف بها زميله الراحل. «مهما كان إعجابك بهذا الفكر الألمع، فلقد أعربت عن تحفظات. وهكذا كان سيرغب في أن يتحدث عنه الناس: فخطاب تقريظي عادي وغير صادق لم يكن ليلائمه. ومع ذلك، اسمح لي سيدي أن أضيف بل أن أبدل بعض التفاصيل على اللوحة التي رسمتها لنا». وانبرى يعدِّد المزايا الإنسانية لرونان: حس الصداقة، والشجاعة

الفكرية، وروح النكتة الراقية، والمرح في جميع الظروف، وبالأخص النبل. فلم يكن يصغِّر نفسه مطلقاً ويرد على «العيَّارين»، و«لم يخرج يوماً عن طوره بسبب شتائمهم»، «ولم يمارس شخص أفضل منه الفضيلة المسيحية الكبرى التي تقوم على الصفح عن الإساءة».

وشرع بواسييه، إذ طرح هذه «التصويبات» لصورة الراحل، يقدِّم للحضور خلفه، ويتحدث عن مسيرته ودراسته ومؤلفاته والمعارك التي خاضها والمناصب التي شغلها، وفعل كل ذلك بكياسة، وإن لم يقاوم الرغبة في الغمز من قناته حين أشار إلى الفترة التي كان شالميل يناضل فيها على صفحات الصحف ضد نظام نابوليون الثالث. «كنت تهاجم الإمبراطورية بحماسة وجرأة يثيران العجب قليلاً لا سيما عندما نعرف أن أصدقاءك كانوا يشتكون من العيش في ظل حكم استبدادي. ويتساءل المرء، في الحقيقة، عما كان بوسعهم أن يقولوا بعد لو تمتعوا، مثلما كانوا يطالبون، بحرية المجاهرة بكل آرائهم».

كانت الملاحظة سديدةً ولكنها تخلو من اللؤم بحق عضو الأكاديمية الجديد. أما الملاحظة التالية فكانت لاذعة. «لطالما شرَّعت الأكاديمية الفرنسية أبوابها لرجال الدولة: إنه تقليد يعود إلى فترة تأسيسها. وسلفك المرموق لديه نظرية متكاملة في هذا الشأن كان يعرضها علينا بحيويته المعهودة. فمن الطبيعي جداً، بحسب رأيه، أن تستردَّ الأكاديمية، مثل دور البلديات في المدن القديمة، مخلَّفات الأنظمة التي حكمت فرنسا الواحد تلو الآخر. فأولئك الوزراء السابقون، والخطباء المنهكون، والدبلوماسيون المتقاعدون،

الذين فتحت الأكاديمية أمامهم ملاذاً مشرِّفاً، كان يحلو للسيد رونان أن يتخيلهم قد سئموا الحياة قليلاً، وتخلوا عن آمالهم، وشفوا من طموحاتهم، مبتهجين ابتهاجاً تاماً بالاستمتاع بهذا السلام المستكين الذي ما عرفوه قط. وكان يتخيلهم يتجاذبون أطراف الحديث بهدوء معاً، دون ضغينة، ودون حسرات...».

ولا ريب أن استخدام كلمة «مخلَّفات» لم يرق شالميل الذي كان بالضبط وزيراً سابقاً وخطيباً مشهوراً ودبلوماسياً متقاعداً... وكانت رسالة الجمعية، في جميع الأحوال، واضحة تماماً لهذا «الأغرّ» ذي اللحية الشائبة الذي دخل توّاً تحت سقفها مثقلاً بضغائنه القديمة، فمن الأفضل أن يدع هذه الضغائن جانباً، ويستعيد سكينته، ويكسب صداقة أقرانه.

***

بوسعنا اعتبار الهجوم الذين شنَّه شالميل على سلفه متطرفاً متنافياً مع أصول اللياقة ومتعارضاً مع نبل الأخلاق؛ ولكنه كان يعكس اختلافاً في الرأي بوسع خطيب منضبط وبليغ أن يطرحه بصورة مشروعة أمام جمع من المثقفين، لا سيما وأن ما اختلف الرجلان بشأنه ليس شأناً وضيعاً أو دنيئاً ولا حتى شخصياً.

ومع أن أحدهما أصبح وريث الآخر، فقد كانا ينتميان إلى الجيل نفسه عملياً. فرونان صُنِّف في المرتبة الأولى في امتحان شهادة التبريز في الفلسفة عام ١٨٤٨؛ وشالميل احتل المرتبة الأولى في الامتحان نفسه عام ١٨٤٩. والمصادفة لا تخلو من المغزى، والتواريخ ليست عادية.

كانت أوروبا تشهد، في هذه المرحلة من تاريخها، موجةً ثورية لم يسبق لها مثيل. ولقد أطلق اسم «ربيع الشعوب» على هذه الموجة التي اجتاحت بلداناً كثيرة - من بينها الولايات الإيطالية، والولايات الألمانية، والنمسا والمجر، وبولندا، بل حتى سويسرا نفسها شهدت حرباً أهلية في تلك الأزمنة المضطربة! ولكن الانقلاب الأشد وقعاً حدث في فرنسا: ففي شباط ١٨٤٨، بعد ثلاثة أيام من القلاقل الدامية في شوارع باريس، اضطر الملك لويس-فيليب إلى التنازل عن العرش وأُعلنت الجمهورية الثانية. ونُظِّمت بعدها انتخابات عامة فاز بها لويس-نابوليون بونابرت فوزاً ساحقاً. وأصبح ابن أخ نابوليون الأول على هذا النحو، في صناديق الاقتراع، الرجل الأول في تاريخ فرنسا - وفي ذلك الوقت، الوحيد في أوروبا - الذي يحمل لقب «رئيس الجمهورية».

كانت الآمال عريضة، سواء في البلد أو في سائر القارة. وكم كان الإحباط هائلاً كذلك عندما دَّبر هذا الرئيس بنفسه، بعد ثلاثة أعوام من انتصاره المبين، انقلاباً ثم ألغى الجمهورية ونصَّب نفسه إمبراطوراً مثلما فعل عمُّه، وأطلق على نفسه اسم نابوليون الثالث. وحتى الأشخاص الذين كانوا ينظرون بإجلال إلى سيرة نابوليون الملحمية، على غرار فكتور هوغو، استنكروا ما حصل.

ولن تهدأ ثائرتهم إطلاقاً. وسعت الإمبراطورية الثانية جاهدة إلى الإكثار من مبادرات الانفتاح والتهدئة، واقتراح إصلاحات مجدية، وإنجاز أعمال مذهلة مثل أعمال البارون هاوسمان في العاصمة...

ولكنها عبثاً فعلت! فلا شيء كان بوسعه أن يمحو الجريمة التي تأسست عليها ألا وهي خنق الجمهورية.

وسينوء الزلزال الثوري العظيم المرتبط في الأذهان بعام ١٨٤٨ بثقله على مصير أوروبا والعالم. ويرجع الصعود العنيد للحركات القومية إلى تلك الفترة؛ كما أن ماركس وإنغلز أصدرا بيان الحزب الشيوعي في عام ١٨٤٨. وإذا كان تحديد منشأ الأحداث بدقة مفرطة يُعدُّ ضرباً من المجازفة في التاريخ، فليس منافياً للصواب التأكيد بأن الكثير من الحروب والثورات التي اندلعت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ثم طوال القرن العشرين، تعود جذورها إلى الغليان الذي شهدته تلك السنة.

ولقد تباين بشدة موقف رونان وشالميل، الخريجين الشابين واللامعين في شهادة التبريز في الفلسفة، بشأن ما كان يجري من حولهما من أحداث. فالأول اكتفى بتأمل الأحداث بسكينة ولامبالاة، بل بشبه ريبة، مستنكفاً عن الانخراط فيها فكرياً أو عاطفياً، مفضلاً متابعة أبحاثه عن ابن رشد والنصوص المقدسة بهدوء. كانت الثورات الوحيدة التي يقيم لها اعتباراً في رأيه هي الثورات التي أحدثها داروين ونيوتن وكوبرنيك بل ولوثر؛ وكانت «ثورته» هي التي تولد لديه شغفاً حقيقياً، تلك الثورة التي سيحدثها يوماً بنشر كتاب حياة يسوع. أما القلاقل في الشوارع، والتظاهرات الحاشدة، ومساعي إطاحة النظام، فلم تكن تثير لديه اهتماماً أو حماسةً بل تزعجه بالأحرى وتثير قلقه.

كان بحكم مبادئه وطبعه متمسكاً بالعقل والنظام؛ ولم يصبح رمزاً من رموز اليسار بنظر فرنسا التي كانت تسودها مشاعر مناهضة الإكليروس إلا بسبب خلافه مع الكنيسة.

ولقد شاء سلفه بالضبط تبديد سوء التفاهم هذا في الكلمة التي ألقاها تحت قبة الأكاديمية. كان يعتبر أن من واجبه تذكير الحضور بأن رونان لطالما ساورته الريبة إزاء الثورة الفرنسية، مثل جميع الثورات، والحركات الشعبية كافةً.

أما شالميل فلقد تفاعل مع أحداث عام ١٨٤٨ على نحو مختلف كلياً. فقد رمى بنفسه في المعمعة من أجل الجمهورية، ضد الاستبداد، مما جرَّ عليه عواقب وخيمة.

ففي نهاية دراسته في مدرسة الأساتذة العليا، عُيِّن أستاذاً للفلسفة في ثانوية بو ثم في ثانوية ليموج، وهو المسار الاعتيادي لحامل شهادة التبريز. ولكنه عندما علم بأن رئيس الجمهورية قد نفَّذ انقلاباً للسيطرة على مقاليد الحكم، ثار في اللحظة نفسها على هذا الوضع. وفي المحفوظات الوطنية تقريرٌ للمفتش العام يتهم المدرس الشاب بأنه قد استغلَّ تأثيره على تلامذته لدعوتهم إلى حمل السلاح؛ ويتكلم عنه بوصفه «اشتراكياً متحمساً يلفت الانتباه بعنف آرائه». غير أن رئيس الأكاديمية التي كانت ثانويته تابعة لها حاول أن ينقذه. وكان تقريره يتسم بنبرة مختلفة؛ ولقد أقرَّ بأن المدرِّس قد ارتكب «أعمالاً متهورة»، ولكنه ذكر أنه أستاذ «قدير ومتقد المخيلة»، و«يطمح إلى المثل العليا»؛

وفي اعتقاده، «سيكون من المجحف الخلط بينه وبين أولئك المتآمرين على المجتمع والمستعدين لتمزيقه».

وأوقف شالميل عن التدريس، وهي أرحم العقوبات. ولكنه ذهب إلى باريس على الفور وشارك هناك في تجمُّع للمعارضين فاعتقلته الشرطة وسجنته لبضعة أسابيع، ثم طردته من البلد.

وطوال سبع سنوات ونصف السنة، اضطر إلى التنقل بين بلجيكا وألمانيا وإيطاليا وسويسرا. وسعياً لكسب لقمة العيش، كان يعطي دروساً، ويمارس الترجمة، ويكتب مقالات للصحف. وفي فرانكفورت، استطاع أن يلتقي مطولاً الفيلسوف أرتور شوبنهاور وخصص له مقالة طويلة نشرها في مجلة العالمين (Revue des Deux Mondes). ولم يرجع إلى فرنسا إلا في عام ١٨٥٩، بعد حصوله على عفو، عاقداً العزم على استئناف أنشطته النضالية.

وفي خضم هذه المعركة، التقى الرجل الذي سيصبح مرشده الروحي وهو ليون غامبيتا. ولعل عبارة «مرشد روحي» ليست مناسبة نظراً إلى أن غامبيتا كان أصغر منه سناً، ولكنه كان يتحلى بحس قيادي فريد ولن يتردَّد الأكبر منه سناً في العمل إلى جانبه. وبادرا معاً إلى تأسيس مجلتين يساريتي المنحى هما (المجلة السياسية) و(الجمهورية الفرنسية). وكان شالميل يريد أن يكون منظِّراً ومجادلاً، ولكن غامبيتا دفعه عملياً إلى الساحة. وسيمضي إليها الأكاديمي العتيد مغمغماً، وسيظلُّ حتى نهاية حياته يصبُّ اللعنات على السياسة التي صرفته

عن «دعوته الحقيقية» في مجالي الفلسفة والكتابة. ولكنه كان مجرد موقف. فلا شك أنه انخرط في هذا المسار رغماً عنه، ولكنه استمتع باللعبة وبالمناصب الرفيعة، ولم يعد راغباً في التخلي عنها.

هل ترك بصمته في هذا المجال؟ ليس بالفعل. فكتب التاريخ قلما تذكره، وإن فعلت، فحين تعدِّد أتباع غامبيتا. أما هذا الأخير، فلقد أصبح بالمقابل شخصية أسطورية. ولا توجد مدينة أو بلدة في فرنسا لم تطلق اسمه على مدرسة أو شارع أو جادة، بل على حيٍّ بأكمله؛ بينما ظلَّ لفترة طويلة يتعرض للقدح والذم سواء في الصحف اليسارية أو اليمينية التي كانت تصفه بأنه «مهمل الهندام»، «غزير الشعر»، «مجنون»، «كثير الصياح»، و«أعور».

ما أغرب مسار ابن المهاجرين الإيطاليين الذي كان جده صياداً متواضعاً في نواحي جنوى، ووالده بقالاً في مدينة كاهور، وهو نفسه لم يحصل على الجنسية الفرنسية قبل بلوغه الحادية والعشرين. كان محامياً مشاكساً، وخطيباً مفوَّهاً، مخلصاً أشد الإخلاص لمبادئ الجمهورية والعلمانية، ولقد أصبح، في ظلِّ الإمبراطورية الثانية، زعيم أشدّ المعارضين صلابة. ثم، وفي غضون خمسة أسابيع، سيرتقي إلى مصاف الأيقونة ويظلُّ كذلك إلى الأبد.

في ٢ أيلول ١٨٧٠، وقع نابوليون الثالث، الذي هزم في سيدان بمنطقة جبال الأردين، في الأسر لدى البروسيين. كانت البلاد مخبولة، ومذهولة، ومصدومة، بهذه الهزيمة غير المتوقعة. وبعد يومين، أعلن

غامبيتا أمام دار بلدية باريس، سقوط الإمبراطورية، وولادة الجمهورية الثالثة، وتشكيل «حكومة دفاع وطني» لمواجهة جيش العدو الذي كان قد بدأ يجتاح تراب الوطن. وبعدها بفترة وجيزة، ضُرب الحصار حول العاصمة نفسها. وكان الأمل الأخير للسكان أن يأتي جيش من المقاطعات لينقض على البروسيين غفلة؛ وسرت إشاعة مفادها أن جيشاً جراراً احتشد في وادي اللوار، قرب مدينة تور.

ووقع عندئذ حدثٌ لن يغيب عن الأذهان: ففي ٧ تشرين الأول، في مونمارتر، وسط ساحة سان-بيير، صعد غامبيتا في منطاد وارتفع في الأجواء. كان جمهور مذهول يتابع المشهد. ولقد تعرَّض المنطاد لإطلاق نار لدى مروره فوق خطوط العدو، ولكنه استطاع، بعد توقفه في عدة محطات، أن يحطَّ في غابة قريبة من بلدة إيبينوز، في منطقة بيكاردي؛ ثم في أميان، وبعد ذلك في رووان، قبل أن يعود إلى تور، ليخرج منه الوزير الجسور ويوجه نداءً للمضي «في القتال حتى النهاية».

ولكن مبادرته لم تبدِّل شيئاً في توازن القوى، بل لقد اتهمه بعض خصومه بأنه تسبَّب بمعاناة غير ضرورية إذ أطال في أمد حرب خاسرة أصلاً. غير أن مبادرته الرمزية أعطت للأمة من جديد شعوراً بالفخر، وستظل ممتنةً له إلى الأبد. وبين عشية وضحاها، ارتقى هذا السياسي المصنَّف في اليسار المتطرِّف عملياً فوق جميع الأحزاب، وجميع العقائد، وكذلك فوق نفسه، وأصبح أسطورة. وسيكتب الجنرال ديغول عام ١٩٣٨ : «يُجسِّد غامبيتا أمام التاريخ انتفاضة الوطن». وبعد سنتين، سيحذو حذوه.

وفي حكومة الدفاع الوطني، كان غامبيتا يتولى حقيبة الداخلية. ومن التدابير الأولى التي اتخذها أن عهد إلى بعض أتباعه بمهمة إعادة بسط سلطة الدولة في المناطق الفرنسية. فأوفد شالميل إلى ليون باعتباره «محافظ مقاطعة الرون». وكان ذلك بمثابة معمودية النار إلى حد ما. فثاني مدن فرنسا كانت في حالة تمرُّد عملياً، والسلطة المركزية غير قادرة على إعطاء ممثلها الإمكانات اللازمة للتصرُّف. ولقد تعرَّض لنقد عنيف من كل الفصائل المتناحرة، واستسلم أخيراً؛ ولكن مرشده الروحي اعتبر أنه لم يفقد جدارته، فساعده على الفور في الانتخابات التشريعية بإدراجه على قائمته.

لم يبرز شالميل بوصفه إدارياً أو مفاوضاً ولكنه كان برلمانياً من الطراز الرفيع، وبالأخص خطيباً قلَّ نظيره. ولذلك، لن تكون مسيرته السياسية مجرد تفصيل كما كان يظنُّ أو يتظاهر بذلك. وطوال ربع قرن، سيكون على التوالي نائباً وعضو مجلس شيوخ ووزير خارجية، وأخيراً، كما رأينا، رئيساً لمجلس الشيوخ. ولا شك أن غامبيتا وضع قدمه على الركاب، ولكنه استطاع بفضل موهبته أن يبقى منتصباً على السرج بعد وفاة حاميه التي حصلت على حين غرة، عام ١٨٨٢، وهو في الرابعة والأربعين، وفي ظروف ظلَّ الغموض يحيط بها. قيل إنه أصيب بالتهاب الأغشية المعوية وبالسكري وبالسرطان؛ وتحدث خصومه السياسيون كذلك عن مشاجرة مع عشيقته؛ وما غذى الإشاعات أنه قد جرح ذراعه قبل أسابيع من وفاته، وهو يمسك بصورة متهورة، كما قال، مسدساً ملقَّماً.

ويعزز هذا الغموض أسطورته التي ولدت بالطبع مع إقلاعه الملحمي في المنطاد من تلة مونمارتر، واتسعت نطاقاً حين دعا إلى الثورة ضد جيش غازٍ كان انتصاره أمراً محسوماً. ولكن هذه المبادرات لم تكن لتكفي لتكريس شهرته لو لم يخض، من ناحية أخرى، ولسنوات عديدة، معركة محددة وفعالة لإنشاء نظام جمهوري قائم على الانتخاب المباشر، ويتمتع بمؤسسات قوية. وربما وجب التذكير بأن الجمهورية الفرنسية الأولى لم تدم سوى اثني عشر عاماً، والثانية دامت أربعة أعوام فقط، فيما ستدوم تلك التي سيعلنها غامبيتا سبعين عاماً، وتضع حداً نهائياً لجميع أحلام استعادة الملكية.

وبالتالي، ليس ضرباً من الغلو أن نعتبر ابن المهاجرين، إن لم نقلْ مؤسس الجمهورية الفرنسية، فأقلّه أحد آبائها.

***

كان شالميل إلى جانبه، طوال هذا الوقت، بإخلاص وثبات وصرامة. ونتفهم أن يلوم سلفه في الأكاديمية لأنه لم يكن في الصف نفسه، ولم يخضِ المعركة نفسها.

وفي الواقع، كان رونان يخشى الاقتراع المباشر الذي يعطي، برأيه، الكثير من الوزن للجماهير الشعبية الجاهلة، «الخالية من المثل العليا»، وفق تعبيره، و«الرافضة لأي مبدأ اجتماعي يسمو على مشيئة الأفراد». وكان ارتقاء المجتمع يحصل برأيه بتعليم الجماهير، لا بتسليمهم زمام الحكم.

ومما يدعو للمفارقة أن طباع عُضوَيْ الأكاديمية، كما يسعنا

القول، كانت على طرف نقيض من مبادئهما. فرونان الذي لم يكن ينظر إلى الشعب نظرة تقدير كان ودوداً جداً مع بني جنسه، وبوسعه أن يتسامر مطولاً مع أشخاص عاديين، دون أن ينفد صبره أو يظهر نزقاً. أما شالميل الديمقراطي، فكان، على حدِّ قول من عرفوه، عصبياً ومتعجرفاً.

وتشهد على ذلك رسالة موجهة من جولييت درويه إلى عشيقها فكتور هوغو. ومع أنهما كانا عملياً زوجين لنصف قرن، فقد اختارا عدم العيش تحت سقف واحد، وهذا يفسِّر غزارة مراسلاتهما، فرسائلهما تُحصى بعشرات الآلاف.

كانت جولييت غالباً ما تستضيف في بيتها أشخاصاً يرغب فكتور في رؤيتهم، أو ترغب هي في أن يتعرف إليهم. ولدى تصفُّح رسائلها، يتبين أنها دعت إلى العشاء الكاتب أوغوست فاكوري، وهو صديق للعشيقين، يوم السبت ٢٢ أيلول ١٨٧٧؛ وكان يساورها القلق. «لقد نسيت البارحة أن أخبر فاكوري بأنه سيلتقي شالميل-لاكور هذا المساء، ولكني أتمنى ألا يستاء فلا بد من أنه معتاد الاجتماع في كثير من الأحيان بأشخاص لا يستسيغهم، وواحد بالزائد أو بالناقص لن يزعجه. وأرجو بالتالي أن تسير كل الأمور على ما يرام هذا المساء على الرغم من هفوتي. حاول فقط أن تكون موجوداً لحظة الصدمة الأولى وستسير كل الأمور على ما يرام».

ونصادف انطباعاً مماثلاً بقلم النائب موريس أوردينير الذي كان من أقرب معاوني شالميل لفترة من الفترات. وقد كتب بشأنه في

مذكراته: «كان، بحكم طبيعته، أقل شخص اجتماعي على الإطلاق. فبسبب ازدرائـه الهائل للبشر، وهواجسه المستمرة بشأن وضعه الصحي، وحساسيته المفرطة ، ونزواته غير المبرَّرة، لم تكن علاقاته بالعالم الخارجي، بل بأصدقائه الحميمين، سهلة أو مستقرة».

ويتفق الجميع أن هذا الرجل قد لا يطاق، ومع الجميع، حتى مع غامبيتا. ويروي الصحفي جوزف رايناك الذي كان صديق الرجلين حادثة كان شاهداً عليها في مكاتب صحيفة الجمهورية الفرنسية، حيث سفح شالميل سوء مزاجه على غامبيتا نفسه قبل أن يصفق الباب في وجهه.

وفي ملحق لصحيفة الفيغارو بعنوان صورة ظلية مرسومة بالريشة صدر في عام ١٨٧٦ ويرد فيه وصفٌ لأعضاء مجلس الشيوخ ومجلس النواب آنذاك، يوصف شالميل وصفاً حقوداً: «سحنة شاحبة ومتشنجة، وابتسامة بغيضة... يتحدث مستعيضاً عن فمه بمقصلة».

ويتبين من هذه الشهادات أن هذا الرجل لديه جانب فظّ ومنفِّر في شخصيته، كان يرتضيه أصلاً، إما عن اقتناع، كما كان يزعم، وإما - وهذا أكثر ترجيحاً - بدافع الاستياء. وفي مخطوطة غير مكتملة عثر عليها في جواريره، ونشرها رايناك بعد وفاة شالميل تحت عنوان دراسات وتأملات رجل متشائم، كتب يقول: «هل الحاجة إلى انتزاع إعجاب الآخرين ملحَّة إلى هذا الحد بالنسبة إلى الإنسان، وهل غريزة المؤانسة تحتاج إلى التهليل أياً كان نوعه، مثلما تدفع الحاجة إلى العاطفة للبحث عن مداعبات كلب، في غياب التعاطف الإنساني؟».

وبالتالي، تتفق جميع الشهادات، بما في ذلك شهادته: كان شالميل لا يروق كثيراً الذين يقاربونه. بوسع الآخرين احترام صرامته والإعجاب بموهبته، ولكن من الصعب عليهم أن يحبوه.

قلائل هم من فطنوا وراء هذا القناع القاسي للعشق العاصف الذي عاشه من شبابه حتى مماته، ومن المؤكد أنه خلف أثراً على تصرفاته وطباعه.

كان أصدقاؤه المقرَّبون يظهرون تحفظاً شديداً في هذا الشأن. ويذكر ريناك في نصٍّ نشره بعد وفاة شالميل بفترة وجيزة، «الحنان الجارف السري في حياته»، ويوجِّه تحية إلى تلك التي كانت «رفيقة حياته الغامضة» دون أن يسمِّيها.

بدأت قصة غرامهما في بروكسيل عام ١٨٥٢. كان المعارض الشاب قد طُرِد توّاً من فرنسا. كان مفلساً، يفتقر إلى دخل ثابت، وعليه أن يجد عملاً على وجه السرعة. فعُرِض عليه أن يصبح المدرِّس الخصوصي لأولاد أستاذ موسيقى معروف. لم تكن الوظيفة المثالية لحامل شهادة الأستاذية والتبريز في الفلسفة، ولكن لم يكن أمامه خيار آخر.

كانت والدة تلامذته تدعى أوجيني. امرأة رائعة الجمال، تعيش زواجاً متأزماً. فكان وصول الأستاذ الشاب بالنسبة إليها مثل شعاع شمس؛ أما هو الغريق، فكانت بالنسبة إليه شاطئ أمان. وسيروي لقاءهما بعد سنوات في قصة لا تشبه كثيراً كتاباته الأخرى. وبدافع

الحياء، سيكتبها بصيغة الغائب، مدعياً ببراءة طفولية أنه يصف «حباً «من النظرة الأولى وليس حبه». منذ الوهلة الأولى، وقبل أن ينظر أحدهما إلى الآخر، تعارفا... لماذا يعتريهما الخوف والقلق على حين غرة؟ لا يسعهما القول إذا كانا خصمين أم متواطئين، إذا كانا في ألفة أم في خشية الواحد من الآخر، إذا كان ما يحيط بهما حائط نجاة أم حجر عثرة. ولكن قوة إلهية حقاً تستحوذ عليهما في هذه اللحظة، فأذعنا لها، مفتونين».

لم يكن قد أتمَّ الخامسة والعشرين وكانت هي تتجاوز الثلاثين بقليل. وتعاهدا على الحب إلى الأبد، ونجحا في احترام عهدهما، مع أن ذلك من النادر أن يحدث.

في بداية علاقتهما، كانا أقل تكتماً مما أصبحا عليه فيما بعد، فافتضحت علاقتهما بسرعة. كان الزوج شخصاً معروفاً، ووالد أوجيني جنرالاً في الجيش. ولشدة ما تضخمت الإشاعة، اضطر شالميل الذي كان ينوي الاستقرار في بلجيكا إلى أن يعيد النظر في مشاريعه. وعندما أعلن لعشيقته عزمه على الرحيل، قالت له إنها سترافقه، وهذا ما فعلت، ولقد تنقل المنفيُّ برفقتها عبر ألمانيا وإيطاليا وسويسرا. وتحوَّلت سنوات التشرد إلى شهر عسل طويل جداً.

وعندما رجع المعارض إلى فرنسا، مستفيداً من عفو، رجعتْ هي معه. وأقاما تحت سقف واحد، وهذا الأمر معروف من خلال نادرة. ففي شباط ١٨٦٠، سافر ريتشارد فاغنر إلى باريس. وكان أحد أهداف رحلته أن ينشر أربعة من كتيبات الأوبرا التي ألفها بترجمة فرنسية

رصينة. وقد نصحه الشاعر الألماني جورج هيرفيك بأن يعهد بهذه المهمة إلى أحد أصدقائه. ويكتب الملحن في مذكراته التي تحمل عنوان حياتي: «تولى السيد شالميل-لاكور الترجمة. التقيته عند هيرفيك، حين كان لاجئاً سياسياً. إنه مترجم بالغ الذكاء، ولقد أسدى لي خدمة جليلة بإنجاز هذه الترجمة التي اعترف الجميع بقيمتها». كان كلاماً ينطوي على ثناء وتقدير؛ غير أن لدينا رسالة كتبتها أوجيني إلى إيما هيرفيك، زوجة الشاعر، التي كانت صديقتها. وتحكي لها، بنبرة ضاحكة، أن عشيقها شرع يترجم الكتيِّب، وأنها «تحكم على عمل فاغنر بعدد أمارات الامتعاض التي ترتسم على وجهه». وفي بعض الأحيان، كما قالت لها، «إنه يتنهد بطريقة تخلو تماماً من التقدير»، وأحياناً أخرى، يرمي الكتيِّب جانباً ويهرع إلى الحديقة لكي يتخلص من «هذا الشعر الرث» وملاقاة الطبيعة التي يعتبرها «أجمل القصائد على الإطلاق».

بعد أن رافقته عشيقته في منفاه، واكبته في ارتقائه الاجتماعي والسياسي في مناصب المحافظ، والنائب، والوزير، والعضو في الأكاديمية... وفي هذه المرحلة من حياتهما، كان بودهما أن تكون علاقتهما، كما كان يقال آنذاك، «نظامية». ولكن الزوج المهجور رفض رفضاً قاطعاً. فجرحه لم يلتئم على الإطلاق، ومزاجه الذي لم يتبدل لم يسمح له بأن يغفر لهما أو أن يسهِّل أمورهما.

وراحا ينتظران موته مرغمين على عيش علاقتهما في السرِّ

والكتمان. كان أكبر من زوجته بعشر سنوات ومن شالميل بخمسة عشر عاماً. وبوسع أوجيني التي ستصبح أرملة أن تتزوج من جديد، في اليوم الذي توافيه المنية. ولكن الزوج المهجور تعنَّت، إذا ما جاز التعبير. فلقد ولد عام ١٨١٢، ولم يقرِّر أن يرحل عن هذا العالم قبل عام ١٩٠٩، وهو في السابعة والتسعين. وكان العشيقان قد توفيا منذ وقت طويل، دون أن يتيسر زواجهما...

ولقد رحلت هي قبله عام ١٨٩٤. فاعترى شالميل الألم بل وأصابه التداعي والانهيار. «منذ ذلك اليوم الذي دفن فيه تلك التي كانت رفيقة حياته الغامضة طوال أربعين عاماً، تملكه هاجس واحد، وهو موافاتها». وهذا ما حصل في ٢٦ تشرين الأول عام ١٨٩٦. وطبقاً لوصيته الأخيرة، دُفن إلى جوارها في مقبرة بير-لا شيز.

ولقد اختارت الأكاديمية خلفاً في المقعد التاسع والعشرين شخصاً كان بدوره من أنصار غامبيتا، ودخل المعترك السياسي إلى جانبه، بل وبإيعازٍ منه، ولكن قرار انتخابه اتخذ لأسباب أخرى.

١٥

ذاك الذي كان «أكثر من تعرضَّ للشتم في فرنسا»

في ٧ تشرين الأول ١٨٩٦، شهد رصيف كونتي حدثاً غير اعتيادي: فقد جاء القيصر نيكولا الثاني، أثناء زيارة رسمية إلى باريس، للمشاركة في جلسة من جلسات الأكاديمية الفرنسية. وقال إنه شاء، بهذه المبادرة، أن يحذو حذو سلفه البعيد، بطرس الأكبر.

لم يحضر هذا الأخير، في الحقيقة، أي اجتماع من هذا القبيل. في أيار ١٧١٧، قصد بالفعل مقر الجمعية الذي كان كائناً آنذاك في قصر اللوفر، ولكنه لم يخطر أحداً بمجيئه على عادته. فهُرع عضوان من أعضاء الأكاديمية كانا موجودين بالصدفة لمرافقته في جولة على القاعة التي تعقد فيها الأكاديمية جلساتها؛ وكانت هذه القاعة فارغة، فانصرف في الحال.

كان نيكولا وزوجته، القيصرة ألكسندرا، يرغبان في حضور جلسة حقيقية، فكان لهما ما أرادا. كانت الأكاديمية مجتمعة بكامل

أعضائها تقريباً؛ ولم يغب عن الجلسة سوى شخصين أحدهما شالميل الذي كان يحتضر في ذلك اليوم.

تُليت بعض كلمات الترحيب؛ وألقيت قصيدة بالمناسبة لا قيمة لها تذكر؛ ثم جرت مداولة بشأن كلمة في المعجم: فعل.

وتنافس الأكاديميون في إبراز سعة اطلاعهم ومهارتهم وخفة دمهم، وشارك القيصر في النقاش. كان animer يبدو مغتبطاً ومستعداً لإطالة بقائه في هذا المكان. ولكنه كان مرتبطاً في المساء بحفل استقبال على شرفه في دار البلدية، ثم بعشاء رسمي في سفارة روسيا، تعقبه أمسية في مسرح الكوميديا الفرنسية... وفي الساعة الخامسة بعد الظهر، أشار وزير الخارجية الفرنسي، غابرييل هانوتو، بإصبعه إلى ساعته معتذراً. فهزَّ القيصر رأسه موافقاً ونهض في الحال. وكذلك فعل الحاضرون.

وبعد ثلاثة أسابيع، توفي شالميل. وعندما حُدِّد موعد لانتخاب خلفه، استغرب الجميع وصول رسالة ترشيح موقعة من السيد هانوتو نفسه.

كانت هذه الخطوة لا تخلو من الغرابة، بل تضرب باللياقات عرض الحائط بعض الشيء. فالوزير كان لا يزال يشغل منصبه، وهو من أرفع المناصب في الجمهورية. ولقد جاء يحضر، بهذه الصفة، جلسة خاصة. ألا يحاول أن يستفيد من منصبه «لكي يدخل عنوة»؟ ساد الارتباك في الأكاديمية. كيف يرفض ترشيحه دون الإيحاء بتوجيه

الإهانة إلى الحكومة الفرنسية؟ وكيف يقبل دون الإيحاء بأنه امتثال لأمر السلطات؟

وفي ما عدا ذلك، لا سبيل للإنكار بأن الشخص كان يتحلى بجميع الصفات المطلوبة. ولو ترشَّح في ظروف أخرى، لما تعجَّب أحد لترشيحه، بل لأثار ترشيحه البهجة. فقد كان مؤرخاً موهوباً، رصيناً في أبحاثه، جزلاً في أسلوبه. كان رجل علم وكذلك رجلاً عملياً معروفاً بحذاقته؛ وإلا، فكيف تسنى له أن يصبح، وهو في الأربعين من العمر، رئيس الدبلوماسية الفرنسية ؟ وكان البعض ممن لم يفلحوا في تقبل هذا الترشيح المباغت يتذمرون واعتبروا بأنه حذقٌ أكثر مما ينبغي.

وجاء يوم الانتخاب. كان موافقاً في ١ نيسان ١٨٩٧. وفي تلك الجلسة، يجب انتخاب شخصين لشغل مقعدين. وقد حُسمت النتيجة بالنسبة إلى المقعد الأول منذ الجولة الأولى. أما المقعد الثاني، فلقد وضع وزير الخارجية «في حالة تعادل الأصوات» في الجولة الأولى، ثم في الثانية، فالثالثة؛ وأخيراً، فاز في الجولة الرابعة، بفارق صوت واحد. تلك كانت «الحكمة الجماعية» للجمعية: فلقد حرصت، نظراً إلى أن أسلوبه لم يروقها، أن تظهر له انزعاجها، ولكنها فعلت باعتدال واحتراس.

واجه هانوتو هذه الحيلة الصغيرة، دون أن يستاء منها أو ينقم على زملائه. واستقرَّ في المقعد طوال سبعة وأربعين عاماً، وأظهر فيه مثابرة أكثر مما كان ينتظر منه. وفي الواقع، ستنتهي مسيرته السياسية بصورة

مفاجئة، ما أرغمه على العودة إلى حياة هادئة قوامها البحث والتأليف. وكان ذلك أفضل ما يتناسب مع طبعه وموهبته على السواء.

***

ولد هانوتو في تشرين الثاني من عام ١٨٥٣ لأسرة من كتاب العدل في منطقة بيكاردي، ودرس في مدرسة شارتر الشهيرة. ومن ثم، سيروي في مذكراته التي تحمل عنوان عصري كيف كان بوسعه أن ينسى الساعات والأيام، بل وينسى أن يتقوَّت، كلما غاص في محفوظاته. وإذا ما ابتعد عنها، في فترة من حياته، فذلك فقط لأن غامبيتا الذي يكنُّ له الإعجاب والإجلال ، مثل معظم أبناء بلده، والذي ما التقاه قط من ذي قبل، استدعاه يوماً إلى مكتبه لكي «يأمره» بذلك.

حدث ذلك في حزيران من عام ١٨٨١. وكان هانوتو مؤرخاً شاباً في السابعة والعشرين، مجتهداً جداً ومغموراً للغاية؛ وعندما يرغب في التحدث عن موضوع يستلهمه من الأبحاث التي يجريها في المكتبة، يحرِّر مقالاً لزاوية «منوعات تاريخية» التي تنشرها الجمهورية الفرنسية، وهي الصحيفة اليومية التي قام غامبيتا وأصدقاؤه بتأسيسها. كان رجل الدولة آنذاك رئيساً لمجلس النواب، ولكنه يواظب على متابعة ما يكتب في صحيفته عن كثب، ولقد أعجب أشدَّ الإعجاب بأحد المقالات التي كتبها هانوتو. كان هذا الأخير يتناول فيه مرسوم نانت الذي وضع هنري الرابع بموجبه حداً للحروب الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت. ولقد اعتبر غامبيتا أن ذلك خير مثال على ما يجدر القيام به في فرنسا لإنهاء الخلافات المزمنة بين الجمهوريين

والملكيين، بين الإكليريكيين والعلمانيين، إلى ما هنالك. وبما أن المقالات التي تنشر في زاوية «منوعات» لا تحمل توقيعاً، استفسر من رئيس التحرير عن هوية كاتب المقال وأعرب عن رغبته في لقائه.

ويروي هانوتو في مذكراته كيف استقبل في مكتب الرجل العظيم، في قصر بوربون. «أعجبت به منذ اللحظة الأولى للقائنا. فوضوح تقاسيمه، ونضارة محياه، وصراحة نظرته التي تكشف، بعين فريدة، إذا ما جاز القول، روحه دفعةً واحدة، ودفء صوته الذي تزيد بحةٌ خفيفة من طابعها الإنساني، وذهنه المتوقد، وقلبه الصادق، وتلك الإلفة السخية التي تمدُّ يدها برقيٍّ مدروس ورجولي، باختصار، أحاطني الرجل واستقباله، بمناخ لن تبدِّده القطيعة أو يمحوه الموت بعد ذلك».

راقت لغامبيتا تلك الفكرة بشأن اقتراح «مرسوم نانت للأحزاب». فعلَّق عليها مطولاً، وذكر النتائج المفيدة التي ستعود بها في الداخل وعلى مستوى العلاقات الخارجية. وعلى حين غرة، بادر زائره الذي بوغت: «أُتركْ محفوظاتك! انضم إلى معترك السياسة! هل تسمع؟ نحن بحاجة إلى رجال. وغداً، سيكون قد فات الأوان، إذا لم تنخرطِ الآن وتكتسب خبرة... تعال، وأحضر لنا معك شباباً!».

كيف كان بوسع هانوتو ألا يتأثر بمثل هذا الإيعاز، لا سيما من جانب رجل قد أصبح أسطورة في حياته؟ كما أن الإغراء كان شديداً، بالنسبة إلى عاشقٍ للتاريخ مثله، بالإسهام في صنعه لا في سرده فحسب.

اشتغل أولاً مع غامبيتا نفسه، ثم أصبح مدير مكتب شخص لا

يقلُّ عنه في سمعته الأسطورية وهو جول فيري. ويُعدُّ الرجلان في عصرنا الراهن من الشخصيات المؤسِّسة للجمهورية. كانا صديقين، وفي أغلب الأحيان، حليفين سياسيين، إنما ليس على الدوام. كان يحدث كذلك أن يختلفا في الرأي بل وأن يتخاصما. ولقد تكرَّست شهرة الأول بالنسبة إلى الأجيال اللاحقة بوصفه رمز الانتفاضة الوطنية. أما الثاني، فلقد انطبعت ذكراه في الأذهان باعتباره مؤسس المدرسة الجمهورية - العلمانية والمجانية والإلزامية؛ وننسى أحياناً أنه كان كذلك من أشد أنصار بناء إمبراطورية استعمارية. ففي ذهنه، كانت تلك النتيجة الطبيعية لسياسته التربوية: فمن واجب فرنسا أن تؤمن أفضل تعليم لشعبها، ومن واجبها كذلك أن تقدم لسائر العالم تنويرها. وقلما تحدث أشخاص عن «المهمة الحضارية» بهذا القدر من الاقتناع والبلاغة مثل هذا اليساري الذي كان يؤكد كونه جمهورياً وإنسانياً وماسونياً.

وستتبدَّل الخلافات بشأن هذا الملف تبدلاً جذرياً في العقود التالية، بعد أن أصبح الدفاع عن الاستعمار شيئاً فشيئاً من اختصاص الحركات القومية والأحزاب اليمينية، وكفَّ اليسار عن إبداء اهتمام به. ولذلك، ليس من السهل في الوقت الحاضر إدراك الحالة الذهنية التي كانت سائدة في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر. ويعرب هانوتو في مذكراته عن ابتهاجه ببراءة لأن تعبيراً كان غير معروف حتى الحين وهو «السياسة الاستعمارية» بدأ يشيع على لسان النواب الفرنسيين «بفضل فيري».

ومن مخاوف فيري-ومخاوف غامبيتا كذلك - أن يصبح الفرنسيون المصدومون بسبب الهزيمة التي لحقت بهم عام ١٨٧٠ الرهائن العاطفيين والفكريين للتيارات القومية التي كانت تحول الثأر إلى معركتها؛ فتغذية مثل هذا الهاجس سيقود حتماً إلى تهيئة مناخ موبوء يسوده التخوين أو التهاون أمام العدو أو البحث عن أكباش فداء. ولم يعشْ أي من الرجلين بما فيه الكفاية للإحاطة علماً بقضية دريفوس، ولكنهما كانا يخشيان حدوث أمر من هذا القبيل. وبنظرهما، لم يكن الحل بالنسبة إلى الأمة الفرنسية في العيش وسط حمى وطنية دائمة، بل في السعي بصبر وأناة إلى بناء بلد ينعم بالرخاء، يضم مؤسسات راسخة، وجيلاً شاباً يتلقى تحصيلاً علمياً ملائماً. وكان الحصول على إمبراطورية استعمارية تنتشر في أرجاء المعمورة يبدو، من هذا المنظور، بمثابة أسلوب بارع «للخروج دون نصر أو هزيمة» من المواجهة المحبطة مع الجار القوي في الشرق، وتأكيد إشعاع فرنسا مجدداً أمام العالم بأسره. كانا يقولان إن البلاد سيكون بوسعها، حين تحين اللحظة، أن تثأر لهزيمتها، وتستعيد الأراضي السليبة، ولكنها لن تقترب من الانتصار بإطلاق الصيحات والهتافات. «التفكير في الأمر على الدوام والتحدُّث عنه بأقل ما يمكن» - تلك كانت توصية غامبيتا بشأن منطقة الألزاس-لورين.

ولم يكن هانوتو، من جهته، عقائدياً أو مناضلاً على الإطلاق؛ ولكن مفهومه للأمور لم يكن بعيداً عن مفهوم الرجلين العظيمين

اللذين عرفهما وخدمهما وأعجب بهما. وعندما أصبح وزيراً للخارجية في أيار من عام ١٨٩٤، بعد فترة قصيرة أمضاها في الندوة البرلمانية والسلك الدبلوماسي، انتهج سياسة تأخذ هواجسهم في الحسبان. وقد أتاح له ذلك أن يحقق بعض النجاح، ولكنه تسبَّب كذلك في تقهقره.

فالمعضلة التي اضطر لمواجهتها لدى وصوله إلى مقر وزارة الخارجية الفرنسية في كي دورسي يمكن أن تختصر كما يلي: في المواجهة مع ألمانيا، لم يكن لدى فرنسا خيار آخر سوى التحالف مع إنكلترة؛ والمشكلة أن إنكلترة تعلم ذلك، وتستغلُّ الوضع.

ففي ما يتعلق بمصر على سبيل المثال، كانت باريس التي أدت دوراً بارزاً في تشييد قناة السويس، تودُّ أن يُعترف لها بوصاية مماثلة لتلك التي تتمتع بها لندن، على شؤون هذا البلد - وأن «تسيطرا معاً» على وادي النيل. وإننا نعلم، من خلال مراسلات غامبيتا، أنه كان حريصاً أشدَّ الحرص على تحقيق ذلك، وأنه طلبه من الإنكليز، ولكنهم رفضوا بجفاء. وبوسعنا أن نتفهَّم موقفهم: فلماذا يقدِّمون هدايا إلى قوة عظمى مضطرة في جميع الأحوال، بسبب نزاعها مع ألمانيا، للبقاء إلى جانبهم؟

كان يقضُّ مضجع فرنسا أن غريمتها الرئيسية على نطاق العالم، ضمن منظور بناء إمبراطورية استعمارية، هي الإمبراطورية البريطانية. فهل يمكن الحيلولة دون أن تظهر هذه الإمبراطورية، في جميع أرجاء المعمورة، موقفاً مزدرياً مثل ذاك الذي اتخذته بشأن الملف المصري؟ وهل بوسع فرنسا أن تتقدَّم عليها في الكونغو والقسطنطينية وتونكين

أو في مناطق أخرى، إذا كانت بحاجة متواصلة إلى مساعدتها في النزاع حول منطقة الألزاس-لورين؟

وسعياً لإيجاد مخرج، كان على فرنسا أن تنسج شبكة جديدة من التحالفات. فاعتمد هانوتو سياسة انفتاح باتجاه الولايات المتحدة الأميركية التي كانت قد باشرت توّاً الاضطلاع بدور هام على الصعيد الدولي؛ وشرع يقيم علاقة خاصة جداً مع روسيا التي كانت تنظر بعين الريبة إلى الطموحات الألمانية في أوروبا والطموحات الإنكليزية في الشرق على السواء، ولا يمكنها بالتالي سوى أن تتمنى توثيق العلاقات مع فرنسا. وكان الهدف الأول من الرحلة المهيبة التي قام بها نيكولا الثاني إلى باريس هو توطيد هذا التحالف الناشئ بين البلدين.

كانت هذه الزيارة تمثل نجاحاً بلا شك بالنسبة إلى هانوتو. ألم يفلح في كسب تأييد قوة عظمى أوروبية رئيسية ساهمت إلى حد كبير في هزيمة نابوليون الأول، بل واتخذت موقفاً مؤيداً لبروسيا عام ١٨٧٠؟ ولقد نالت رؤيته الاستراتيجية وتصميمه وحنكته الإعجاب.

وكان سيظلُّ في الأذهان وزيراً عظيماً ودبلوماسياً رفيعاً لو لم تشهد مبادرة أخرى من مبادراته، بعد ذلك بفترة وجيزة، فشلاً ذريعاً وهي حادثة فاشودة.

ومراحل «الحادثة» معقَّدة، ولكن المعطيات الأساسية بسيطة. فباريس أرادت إرغام إنكلترة على القبول بوصاية مشتركة على مصر،

وخطر ببالها أن ترسل إلى جنوب السودان حملة عسكرية زرعت العلم الفرنسي في محلية تعرف باسم فاشودة. والحساب الذي قام به الفرنسيون أن لندن التي كانت تواجه قلاقل خطيرة في المنطقة - ولا سيما انتفاضة في الخرطوم أودت بحياة الحاكم البريطاني، الجنرال غوردون - ستفضِّل التوصل إلى حل بالتراضي، فتسحب فرنسا عندئذ قواتها، ويكون لها بالمقابل أن تتشارك مع إنكلترة في إدارة مصر.

كانت لعبة بوكر ردَّ عليها البريطانيون بلعبة بوكر أخرى: فأعلنوا عن استعدادهم لخوض مواجهة مسلحة؛ وكتب سفير فرنسا في لندن إلى حكومته يفيدها أن الأمة الإنكليزية تعاني حمى قومية لا مثيل لها، وأنه لا بد من أخذ التهديدات على محمل الجد للغاية؛ والإنكليز حريصون على السيطرة على كل جزء من الطريق التي تقود إلى الهند، وعلى قناة السويس بالأخص؛ والتنطُّح للاعتراض على هذه الهيمنة يعني تهديد إمبراطوريتهم، وكانوا على استعداد لخوض حرب للوقوف أمام ذلك بالمرصاد.

لم تكن فرنسا قادرة على المجازفة بوقوع مثل هذا النزاع. فتراجعت عن موقفها أخيراً، وسحبت جنودها من فاشودة. وردَّ الرأي العام بغضب ومرارة ونقمة. وكان هانوتو الذي يتحمل مسؤولية في هذا المشروع التعس عرضةً لحملة انتقادات شعواء. واضطر إلى الاستقالة من منصب وزير الخارجية في حزيران من عام ١٨٩٨، وترك لخلفه مهمة إصلاح الأضرار، بطريقة أو بأخرى.

لم يكن قد تجاوز الرابعة والأربعين من العمر، وها قد تحطَّمت

مسيرته السياسية. وبسبب هذه الحادثة التي سيظلُّ يذكرها التاريخ على أنها حماقة جسيمة، بل، أكثر من ذلك، بسبب قضية أخرى مع أن دوره فيها كان ثانوياً بكل ما للكلمة من معنى.

ففيما يتعلق بفاشودة، لطالما دافع عن نفسه بحماسة، وظل يردِّد حتى آخر يوم من حياته أنه كان بوسعه أن يجنِّب فرنسا كأس المهانة التي تجرَّعتها وأن يحوِّل التقهقر إلى تقدُّم لو لم يسحب منه الملف. أما الملف الآخر فلم يقدِّم بشأنه على الإطلاق سوى تفسيرات مجتزأة وعصبية ومرتبكة.

***

قلما أثارت قضايا ذلك الفيض من المقالات مثل تلك التي أصبحت بكل بساطة «القضية» بامتياز. ومن التبجُّح أن نلخصها ببضع كلمات، ولكن من الضروري التذكير بخطوطها العريضة : ففي عام ١٨٩٤، اتهم ضابط فرنسي، هو النقيب ألفريد دريفوس، بالتجسُّس لمصلحة ألمانيا. وعلى الرغم من أنه لم يكف عن تأكيد براءته، فقد صدر بحقه حكم بتنزيل رتبته وإرساله إلى الأشغال الشاقة. وفي عام ١٨٩٧، وبفضل عناصر جديدة يصعب تفنيدها، تبين أن دريفوس كان بريئاً بالفعل. فهل يجب محاكمته من جديد؟ بعد خلاف طويل انقسمت فيه فرنسا بأسرها بين «مؤيدي دريفوس» و«مناوئي دريفوس»، رُدَّ الاعتبار إلى النقيب، وافتضح أمر متهميه.

في تشرين الأول من عام ١٨٩٤، أُبلغ أعضاء الحكومة بتهمة التجسُّس الموجهة إلى دريفوس، ولم يكن الملف قد أثار بعد هذا

الدويَّ العام. وأطلعهم وزير الحربية، الجنرال ميرسييه، على الأمر. فأشار عليه هانوتو الذي كان وزير الخارجية بتوخي الحذر، ولم ينصحه إطلاقاً باعتقال الضابط مثلما كان يعتزم أن يفعل. ولكن زميله لم يصغِ إليه، وأعلن اعتقال دريفوس، رغبة منه في تهدئة بعض الصحف القومية التي عرفت بالقضية، وبرَّر قراره مؤكداً أنه على يقين من أنه مذنب؛ ثم تشبَّث بموقفه، ساعياً بجميع الوسائل إلى الإثبات بأنه لم يخطئ.

لزم هانوتو الصمت بعد ذلك. وحتى ذلك الحين، كان موقفه مفهوماً. لم يكن يعلم إذا كان المتهم بريئاً أم لا، وفي جميع الأحوال، كان الملف يخصُّ الجيش؛ ولذلك، من الطبيعي أن يعود القرار إلى وزير الحربية بدلاً من وزير الخارجية.

وجرت المحاكمة أمام المجلس الحربي؛ وحُكم على المتهم الذي أدانته المحكمة بتنزيل رتبته وبالأشغال الشاقة. وعند هذا الحد، كان الجميع مقتنعاً بأنه مذنب؛ وحتى كليمنصو الذين سيصبح لاحقاً من أشدِّ المدافعين عنه، أعرب عن دهشته في افتتاحية نشرت غداة صدور الحكم إزاء التسامح الذي أظهرته المحكمة ومن أن «الخائن» لم يُعدم رمياً بالرصاص.

انقضت ثلاث سنوات ذاق خلالها النقيب دريفوس الأمرين في جزيرة الشيطان، قبالة غيانا. أما في العاصمة، فأسرته المقرَّبة التي أحاطت بها مجموعة ضيقة من الأصدقاء كانت تبذل كل ما في وسعها لإثبات براءته. وكان شقيقه البكر ماتيو يقود التحقيقات. وفي تشرين

الثاني ١٨٩٧، حصل أخيراً على العناصر اللازمة لتبرئة شقيقه وفضح المذنبين الحقيقيين.

عند ذاك بدأت القضية حقاً. طالب مناصرو دريفوس بإعادة محاكمته، واتصلوا بالصحف وبالسياسيين وبأولئك الذين كانوا قد بدأوا يطلقون عليهم اسم «المفكرين». وفي ١٣ كانون الثاني ١٨٩٨، نشرت صحيفة الفجر التي يديرها كليمنصو مقالاً طويلاً لإميل زولا بعنوان «إنني أتهم».

كان هذا المقال عملياً بيان «أنصار دريفوس»، وقد ضمَّ هؤلاء في صفوفهم أشخاصاً من جميع مسالك الحياة، ولكنهم بالدرجة الأولى جمهوريون يساريون، علمانيون، وفي أغلب الأحيان -إنما ليس على الدوام - مناهضون لرجال الدين؛ وفي المعسكر الآخر، معسكر «مناوئي دريفوس»، نجد بالأخص - إنما ليس فقط - كاثوليكيين وقوميين يمينيين ومعادين للسامية. وكانت الحجة الرئيسة للفريق الأول أنه قد وقع خطأ في إقامة العدل، وأن هذا الخطأ يجب أن يُصحَّح بأسرع ما يمكن؛ أما الحجة الرئيسة للفريق الثاني فهي أنه لا يجب إعادة النظر في قرار الجيش لأن ذلك سيضعف معنوياته ويتسبَّب بتهالكه.

ولقد اختار كليمنصو لمقال زولا عنوانه الشبيه بلكمة. كان الكاتب يريد فقط أن يعنونه «رسالة إلى السيد فيليكس فور، رئيس الجمهورية». وبالفعل، اتجهت كل الأنظار نحو هذا الأخير، نحوه ونحو حكومته. فبما أن رجلاً من الواضح أنه بريء قد أرسل إلى

الأشغال الشاقة، أليس من واجب السلطات العليا أن تنتشله من هناك، وتردَّ الاعتبار إليه؟

كان رئيس البلاد يتردَّد؛ ورئيس مجلس الوزراء كذلك. وماذا عن هانوتو؟ فهو، تلميذ غامبيتا، وصديق جول فيري، وهو المؤرخ، ألم يكن الأجدر لكي يقف للارتفاع، في هذه اللحظة المشحونة إلى أقصى حدود، ويعلن بنبرة حازمة أنه لا بد من وضع حد للظلم وإعفاء فرنسا من خوض حرب دينية جديدة؟ لا ريب أن الملف ليس بيد وزارة الخارجية، ولكن القضية اتسعت وأخذت أبعاداً بحيث أنها لم تعد ترتبط بأي وزارة على وجه التحديد، بل لقد تجاوزتها كلها.

ومن بين أعضاء الحكومة، اتصل به أنصار دريفوس أولاً. وأكد لهم هانوتو دون مواربة أنه أصبح الآن مقتنعاً ببراءة دريفوس. فماذا ينتظر لإعلانها؟ ماذا ينتظر لاسماع صوته؟ سأله أصدقاء كثيرون بإلحاح أمثال المؤرخ غابرييل مونو أو كذلك جوزف ريناك الذي تعرف إليه في أوساط غامبيتا، والذي كان يؤدي في الوقت الحاضر، مع شقيقه سالومون، دوراً نشطاً في تعبئة أصدقاء دريفوس. توسلوا إليه، وأنَّبوه، ثم وبَّخوه، ولكنه تمرَّد عوضاً عن الاقتناع بكلامهم، وتعنَّت في موقفه. قال إنه يريد، مثل رئيس الجمهورية، ومثل الأعضاء الآخرين في الحكومة، أن يدع الإجراءات القضائية تأخذ مجراها، فهي التي من المفترض أن تقرّر مدى ملائمة إعادة المحاكمة أم لا. كان يدافع عن موقفه: «ليس دوري أن أصدر حكماً في هذه القضية». فردَّ عليه كليمنصو: «لم تصدر حكماً؟ هل أنت متأكد من ذلك؟ أنا أقول

إنك قد أصدرت حكماً، أصدرته في كل ساعة من اليوم الذي تركت فيه هذا الرجل البريء الذي كان بوسعك أن تنقذه ينازع وسط هذا العذاب الذي لا يوصف».

في المناخ الجدالي المحتدم الذي كان يسود في تلك الشهور الحاسمة من القضية، استطاع هانوتو أن يستقطب كراهية الجميع، أنصار دريفوس ومناوئيه على السواء.

ولقد وصفه الكاتب القومي ليون دوديه، أحد زعماء المناوئين لدريفوس بعبارات شرسة: «في ظرف عادي، سيختار هانوتو، إذا ما اضطر إلى اتخاذ قرار أو موقف، القرار أو الموقف الأقل سمواً على الدوام، الذي سيتحمَّل فيه أقل قدر من المسؤولية، وسيبحث في الوقت نفسه عن المهرب، والطريقة المثلى للرجوع عن أقواله. إنه يظنُّ أن تلك هي الدبلوماسية. إنه أستاذ في التخلي عن الآخرين!».

وسُمعت النبرة نفسها لدى أنصار دريفوس. فوفق الزعيم الاشتراكي جان جوريس، «كان موقف السيد هانوتو في قضية دريفوس من أولها إلى آخرها يتسم برياء مؤسف. فكلامه يختلف باختلاف محاوريه، وها هو الآن يتظاهر بالتزام صمت دبلوماسي وسذاجته تدفعه إلى أن يقول لأصدقائه: «قضية دريفوس ستنهك أولئك الذين يتخذون موقفاً في هذا الاتجاه أو ذاك؛ وسيتعين لاحقاً العودة إلى الأشخاص الذين رفضوا تحمل المسؤولية». إن ذلك لا ينمُّ عن أخلاق سامية، ومما لا شك فيه أنه يدلُّ على ضحالة سياسية».

كان هانوتو نفسه يحاول جاهداً أن يعطي عن نفسه صورة من

التعالي والسكينة، ولكنه أدرك بسرعة أنه يخسر على جميع الجبهات، فأصبح مريراً ويائساً. وفي رسالة كتبها إلى أحد الدبلوماسيين من معارفه، نقرأ فيها: «هؤلاء المفكرون الذين كانوا جميعاً فيما مضى أعواني، وأصدقائي، وأكاد أقول إخوتي في الدين، أصبحت اليوم لا أطيقهم».

كانت مسيرته السياسية الآن قد انتهت تماماً، وإلى غير رجعة. ولقد تحلَّى بما يكفي من التبصر للتنبُّه إلى ذلك، وعدم الإصرار على الاستمرار.

ولحسن حظه، لم تكن حياته بأكملها تختصر بمضمار السياسة. فقد كان مؤرخاً وباحثاً قبل كل شيء، يرتاح بين كتبه ووثائقه ومحفوظاته. وبعد أن طرد من الفردوس السياسي، عثر على ملاذ في مؤلفاته بحماسة تضاهي حماسته في ريعان شبابه. ويروي الأشخاص الذين عرفوه أنه كان يعتزُّ في شيخوخته بما عاناه من متاعب وعثرات. كان يقول وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة قرصان: «كنت أكثر رجل تعرَّض للشتم في فرنسا».

***

وسيظل غابرييل هانوتو جالساً على مقعده لفترة طويلة، يرى الأشخاص والأنظمة والأحداث تمرُّ أمامه، ويكتب بغزارة عن مواضيع كثيرة: من معركة المارن إلى تقاسم أفريقيا؛ ومن جان دارك إلى شباب بالزاك؛ ومن تاريخ الأمة الفرنسية، إلى تاريخ الأمة المصري، وكذلك

نهر السين وأرصفته، نزهات عاشق كتب. ويفوق عدد هذه المؤلفات المائة.

لقد عاش طفولته ومراهقته في ظلّ الإمبراطورية الثانية، وشهد في شبابه هزيمة عام ١٨٧٠، والغزو البروسي، وكومونة باريس، وإحياء الجمهورية؛ وسيعرف في شيخوخته هزيمة عام ١٩٤٠، والاحتلال الألماني، والأفول الجديد للجمهورية؛ قبل أن يسلِم الروح بسكينة في عامه الواحد والتسعين، يوم ١١ نيسان ١٩٤٤، وقد فوَّت بأيام قليلة إنزال النورماندي وتحرير باريس.

وسينتخب خلفه بعد ستة أشهر على رحيله، في ١٢ تشرين الأول، خلال جلسة استثنائية كان لا بد من استشارة الجنرال ديغول شخصياً بشأنها.

١٦

ذاك الذي كان الجميع يأتون لسماعه

أظهر أندريه سيغفريد كياسةً بالغة نحو سلفه في الكلمة التي ألقاها بمناسبة استقباله تحت قبة الأكاديمية في ٢١ حزيران ١٩٤٥؛ فدافع عن سجِّل إنجازاته في وزارة الخارجية، بل وألقى على مسؤولين آخرين اللوم بالنسبة إلى الخطأ الذي حصل في فاشودة؛ ولم يحمِّل غابرييل هانوتو أي ملامة إلا كونه لم يفهم إطلاقاً عقلية الإنكليز.

وكان عضو الأكاديمية الجديد يتحدث عن خبرة ودراية، لأنه كان، باعتراف الجميع، من أفضل الخبراء في الإمبراطورية البريطانية. فما برح يجوب أنحاءها من ليفربول إلى سيدني، ومن فانكوفر إلى جوهانسبرغ، بل لقد أدى خدمته العسكرية، أثناء الحرب العالمية الأولى، تحت راية التاج البريطاني، بوصفه مترجماً لوحدة من المدفعيين الكنديين. وكان ذلك الدور يتلاءم تماماً مع شخصيته. ففي الواقع، كان يشعر بالسعادة والاعتزاز بهويته الفرنسية، بقدر ما ينسجم

في نواح عديدة مع العالم الأنجلوساكسوني. وكان يتجنَّب عادة أن يجاهر بذلك. غير أنه «أفصح عن رأيه» مرة، حين كتب سيرة والده - وبوسعنا أن نفطن إلى أنه قد تحدث عن نفسه فيها كذلك.

«لم يكن يتمنى أن يكون إنكليزياً، لأنه كان يتحفظ على ذلك، ولكنه يأسف في أعماقه لأن الفرنسيين لا يمتلكون الخصال الأنجلوساكسونية. كان يوصي أبناء وطنه بنموذجهم ببساطةٍ تمنعه من الإدراك أنه قد يجرح كبرياءهم، ولذا، حصلت أشكال عديدة من سوء التفاهم، فلقد كان يحبُّ فرنسا بكل جوارحه، ولكنه يتمنى في الوقت نفسه أن يكون أبناء وطنه غير ما هم عليه... وأعتقد صراحة أنه كان سيشعر بمزيد من الارتياح في سويسرا أو هولندا أو إنكلترة أو في الولايات المتحدة».

لا ريب أن جول سيغفريد الذي كان عمدة ونائباً وعضو مجلس شيوخ ووزيراً في الجمهورية الثالثة قد سلك مساراً لا يشبه في شيء مسار السياسيين الفرنسيين الآخرين. فقد ترعرع في مولوز، في كنف أسرة بروتستانتية تعمل في تجارة القطن، وتعلَّم في مرحلة مبكرة جداً أصول هذه التجارة؛ ثم قرر أن يعتمد على نفسه، وسافر إلى الولايات المتحدة التي كانت في ذلك الحين من كبار البلدان المنتجة للقطن. كان ذلك عام ١٨٦١، والحرب الأهلية الأميركية قد اندلعت توّاً، وأدرك جول من فوره أن العالم سيحتاج إلى مصدر إمدادات آخر. ومن وجهة نظره، لا يمكن لهذا المصدر أن يكون سوى الهند. فسافر دون

مماطلة مع شقيقه إلى بومباي حيث أنشأ تجارة واستطاع أن يجني ثروة طائلة خلال أربع سنوات. ولكنه لم يبق طويلاً في المناطق الاستوائية. وحالما علم بأن الكونفدراليين الجنوبيين قد انهزموا، قام بتصفية أعماله ورجع إلى فرنسا.

بحث عن ميناء بوسعه أن يستأنف منه تجارته الدولية، فاستقرَّ في الهافر. وسرعان ما انخرط في الحياة المحلية، وأصبح عضواً في المجلس البلدي، ثم رئيس بلدية المدينة.

وعندما أبصر أندريه النور في نيسان ١٨٧٥، كان بيت الأسرة يضجُّ بالمناقشات والمفاوضات السياسية. لقد شيَّد والداه على تلة تشرف على مصب نهر السين، دارة مهيبة من الحجر والقرميد أطلقوا عليها اسم «البوسفور» في إشارة إلى بيت شعر لشاعر محلي كان يقول فيه متحدثاً عن الهافر: «بعد القسطنطينية، لا شيء يضاهي جمالها». وعندما كان يأتي ضيف مرموق من باريس أو من مكان آخر، تستضيفه الأسرة فيها.

كان الطفل يراقب كل شيء ويصغي إلى كل شيء. وكان يراكم الذكريات. ومن تلك التي انطبعت في ذهنه الذكرى التي ترتبط بغامبيتا. فأندريه سيغفريد كان يشعر بالاعتزاز لأنه عرف بدوره الرجل الذي كان في فرنسا «الأكثر شعبية منذ نابوليون»، حتى وإن كان لقاؤهما من قبيل النادرة. حدث ذلك في تشرين الأول ١٨٨١. وذاك الذي سيصبح عضواً في الأكاديمية لم يتجاوز السادسة والنصف من العمر. كان

غامبيتا آنذاك رئيساً لمجلس النواب ولقد جاء يمضي ليلة في الهافر. اقترح عليه رئيس البلدية أن يستضيفه. وكان من المقرَّر أن يصل إلى دارة «البوسفور» قرابة العاشرة مساء، ولقد حصل الطفل من والديه، بصفة استثنائية، على الإذن بالسهر من أجل رؤيته. والكلام الوحيد الذي تبادلاه كان عندما قرص الزائر بمودة أذن الفتى وقال له: «يا لك من عفريت!».

ولكن الكاتب يروي أن الصدمة الثقافية بين الرجلين الراشدين هي أكثر ما يثير الاهتمام في هذه الزيارة. فحالما وصل رئيس البلدية من محطة القطار مع ضيفه، قاله له: «سيدي الرئيس، إنك متعب، ولديك غداً برنامج مرهق، فاصعدْ إلى غرفتك لتنال قسطاً من الراحة. وسأحضر لك كوباً من الشاي». فارتعب غامبيتا من هذا العرض الغريب. «أصعدُ إلى غرفتي؟ أحتسي كوب شاي؟ لا تفكر في ذلك يا عزيزي! سأصعد لتغيير ثيابي وأعود فأنزل لنتجاذب أطراف الحديث». وفي الواقع، نزل من جديد؛ «وكان قد خلع قميصه فظهرت صدريته القطنية التي ارتدى فوقها نوعاً من السترة الداخلية من الصوف الناعم؛ ولفَّ رأسه بمنديل قطني أحمر... وصُعق رئيس بلدية الهافر، وهو البرجوازي اللائق، أمام هذا المظهر». وسيحتجزه ضيفه في المكتب، حيث ظلا يحتسيان الكأس تلو الأخرى، ويدخنان السيجار، حتى الثانية فجراً.

واستهوت الحياة السياسية أيضاً الابن الذي تعرَّف إلى مثل هذه الشخصيات وشهد أوقاتاً مذهلة. وحالما أنهى دراسته، استهلَّ رحلة

طويلة حول العالم، ثم ترشَّح لدى عودته للانتخابات التشريعية عام ١٩٠٢، برعاية رئيس مجلس الوزراء وقتذاك، بيار فالديك-روسو. وقام هذا الأخير «بإنزاله» في جنوب فرنسا، إزاء شخصية غريبة كانت مشهورة في تلك السنوات وهي الكونت بوني دو كاستييان. كان الكونت متأنقاً، وكاتباً على هوى مزاجه، تزوَّج وريثة أميركية ثرية اسمها آنا غولد، الأمر الذي أتاح له أن يغدق المال على دائرته الانتخابية بسخاء، وهي دائرة كاستييان بالضبط، عند أسفل جبال الألب. وكانت الحملة الانتخابية من أكثر الحملات قذارةً؛ فالمجلة المحلية التي كانت مؤيدة للكونت كانت تركز تركيزاً مزعجاً على اسم المرشح الخصم؛ ونُظمت أغنية، وطبعت ووزعت يوم الاقتراع، وكانت كلماتها تقول: «سيغفريد نصير دريفوس، حصل على الجنسية متأخراً، وهو يعشق الألمان واليهود والبروتستانت، ويمقت جنودنا...». وأعيد انتخاب بوني دو كاستييان، ولكن الاقتراع ألغي بسبب ما شابه من خروق فاضحة، وأجريت الانتخابات من جديد السنة التالية. واستطاع الغريم الشاب أن يحسِّن وضعه قليلاً، دون أن يفلح في تغيير النتيجة رغم ذلك. وسيذكر النائب المتأنق ما جرى في مذكراته على طريقته: «انتصرتُ في الانتخابات، بالرغم من جهود مرشَّح اسمه سيغفريد، ابن عضو في مجلس الشيوخ... كنت قد وصفت والده بالضابط العجوز الضيق الأفق، ولم يغفرْ لي ذلك».

قرَّر أندريه، بعد أن عدل عن الترشح في هذه الدائرة، أن يقدم

ترشيحه عوضاً عن ذلك في مدينته الهافر. ولقد هزم فيها كذلك مرتين، في الانتخابات التشريعية عام ١٩٠٦ ثم في عام ١٩١٠. فاستسلم وانخرط في مهنة كان والده يزدريها ولكن والدته، وهي ابنة قس، تقدِّرها حق التقدير، وهي مهنة التعليم. وسيكتب بعد سنوات: «لست ناقماً على الناخبين الذين تركوا لي المتعة والبهجة والحرية الفكرية التي تحققها الدراسة. فغبطة الفهم تضاهي في جمالها نشوة العمل».

***

وإنها غبطةٌ استطاع أن ينقلها أفضل من أي شخص آخر. ولا نوفيه حقه إذا قلنا إنه كان أستاذاً فذاً منقطع النظير. كانت موهبته ترقى إلى العبقرية. ففي المعهد الحر للعلوم السياسية، استقطبت محاضراته أعداداً هائلة من الطلاب بحيث اضطر المعهد للجوء إلى حلول غير مسبوقة. ففي البداية، وُضعت مكبِّرات صوت في القاعات الأخرى ولكن ذلك لم يكن كافياً. وطُلب إلى سيغفريد أن يعطي المحاضرات نفسها مرتين على التوالي، ولكن هذا لم يكن الحل الأنسب. فتقرَّر بناء مدرج جديد خصيصاً له.

وسعى كوليج دو فرانس بدوره إلى اجتذابه، فقبل أن يشغل فيه كرسياً دون أن يترك معهد العلوم السياسية. وأحرز كذلك هناك نجاحاً باهراً. ولم يكتفِ بأن يشغل أيامه بمحاضراته بل راح يكثر من إلقاء المحاضرات العامة في فرنسا والخارج، ويكتب بانتظام في الصحف.

ولشدة ما كانت موهبته استثنائية، سُئل أحياناً عن سره. كان

يتحدث عن ذلك بطيب خاطر، ويحلِّل سلوك كبار الخطباء الذين سنحت له فرصة الاستماع إليهم من أساتذة وواعظين ومحامين أو سياسيين لامعين؛ أولئك الذين يريدون التأثير، والإقناع، وأولئك الذين يريدون نقل المعرفة.

أما عن أسلوبه الخاص، فكان لا يمانع إعطاء «وصفاته»، ويشدِّد مثلاً على ضرورة عدم الاستسهال وقراءة نص معدّ سلفاً. لا شك أن ذلك يمنح المحاضر شعوراً بالأمان، ولكن العكس هو المطلوب لاجتذاب اهتمام السامعين إلى كلامه: فهم يريدون بالضبط أن يشعروا باضطرابه؛ يريدون أن يشعروا بأنه يعرِّض نفسه للخطر مثل «المروِّض في القفص»، وهذا ما يلفت انتباههم في بادئ الأمر.

وكان يقول إنه يجب معرفة استبقاء هذا الانتباه؛ فالمحاضر يجب أن «يتحسَّس جمهوره مثلما يتحسس الفارس الجواد بركبته»، لكي يتحقَّق في كل لحظة من أنه يمسك بالصالة أو يفقدها. «هناك إشارة لا تخدع، وهي أن الناس حين يريدون أن يصغوا إليك، فكل الأنظار تتجه نحوك؛ وإذا كان الانتباه شديداً، ينحني الناس إلى الأمام للإصغاء على نحو أفضل. وعلى العكس، لدى المستمعين الشاردي الذهن، ولا سيما الشباب، يلتفت أحدهم يمنة والآخر يسرة، ويبدو الأمر مثل رأس مشعر ومشعث؛ فإذا ما نجح المحاضر بلفت الانتباه مجدداً، ها هي الرؤوس كلها تستدير في صف واحد، وكأن ضربة مشط حاسمة تخلَّلتها».

وأوضح أنه لا بد كذلك من أخذ الاختلافات القائمة بين بلد وآخر في الحسبان، بين فرنسا وإنكلترة على سبيل المثال. «الجمهور عندنا نافد الصبر: فعند أقل تردد، وأبسط وقفة قد تطول قليلاً، يبدأ الحاضرون الذين يبدو عليهم أنهم يأنفون الفراغ، يحدِّث كل منهم جاره. إذا كنتم تستقطبون اهتمام جمهوركم، لا تدعوه يفلت منكم، تمسَّكوا به حتى النهاية، دون أن يتسنى له أن يستفيق، أي أن يفلت منكم. وفي إنكلترة بالمقابل، الوضع مختلف تماماً: فبوسع المحاضر أن يتردَّد ويتوقف عن الكلام ويفكِّر مطولاً بالعبارة التي سيتوقف عندها. وينتظر الحضور بصبر، بل لنقلْ بتعاطف، فنخال أنه يقول في سرِّه: هذا شخص حيُّ الضمير يزنُ كلامه قبل أن يتلفَّظ به، بل قد تعتبر اللعثمة الخفيفة من علائم الأناقة. فالإنكليز يخشون سهولة التعبير، ويرتابون من الخطيب الطليق اللسان ويعتبرونه مثل الساحر الذي يختلس محفظتك بخفة».

ومن التعاليم الأخرى مبدأ يكرِّره على الدوام: يجب إظهار التقدير للجمهور. وكان يقول إن المستمعين سيغفرون لي إذا حدثتهم عن مسائل معقدة مفترضاً أنهم سيفهمونها؛ ولكنهم لن يغفروا لي إذا خاطبتهم وكأنهم رُضَّع أو جهلة أو أغبياء.

ولقد احتفظ طلاب سيغفريد بذكرى رائعة عن تلك الساعات التي كانوا يمضونها برفقته، ولا يعرفون فيها معنى الملل، ويتعلَّمون أموراً كثيرة دون أن يشعروا بأنهم يكابدون في ذلك مشقة. والأهم من ذلك،

بلا شك، أن أستاذهم نقل إليهم أسلوباً، وقواعد حياتية : الجرأة على الاختراع، الجرأة على الابتكار، الجرأة على المباغتة؛ الثقة بالحدس الشخصي، و«الفضول العاطفي»؛ وعدم الانغلاق في اختصاصات ضيقة، بل الاحتفاظ دائماً بمنظور واسع النطاق؛ وإذا ما اهتمَّ المرء ببلد، فعليه أن يزوره أكبر عدد ممكن من الزيارات لمراقبة الواقع عن كثب، وللاستماع بلا ملل إلى ما يقوله سكانه.

ولقد طبَّق هذه المقاربة للواقع، القائمة على حسن الإصغاء، طوال حياته، وكان لها الفضل في بداية شهرته. فعلى هذا النحو، خطر له، في شبابه، بعد أن مُني بهزائم متكرِّرة في الانتخابات التشريعية، أن ينكبَّ مطولاً، مستعيناً بأدوات علمية، على دراسة سلوك الناخبين. وسيعتبر كتابه المعنون المشهد السياسي لغرب فرنسا في ظل الجمهورية الثالثة الذي صدر عشية الحرب العالمية الأولى بمثابة إعلان عن ولادة مبحث جديد هو علم الاجتماع الانتخابي، وهو مبحث سيزدهر جداً في العالم بأسره، لا سيما مع انتشار استطلاعات الرأي.

وكان هذا الكتاب يتضمَّن بالأخص فكرة لا يمكن إلا أن تسترعي الانتباه بسبب ما تتميز به من جدة وفرادة وغرابة في الظاهر: فلدى تحليل سلوك الناخبين في منطقة فاندي، لاحظ أن شمال المنطقة التي كانت تربتها غرانيتية تقترع بالأحرى لليمين أما جنوبها بتربته الكلسية فيقترع بالأحرى لليسار.

ولا يهمُّ أن تكون هذه الصلة الشاعرية للغاية بين الجيولوجيا والإيديولوجيا حقيقية أم لا، فالحدث السوسيولوجي نفسه لم يكن أكثر ما يثير الاهتمام بل التحفيز الفكري الذي تثيره فرضية سيغفريد. ولقد اكتسب بفضلها، منذ البداية، سمعة المفكر الجريء، القادر على الابتعاد بسرور عن المسالك المطروقة. واحتفظ بها طوال حياته. كان الآخرون لا يريدون سوى التقدم على أرضية مأمونة، ويفضلون أن يكوِّنوا لأنفسهم مجالاً، يكاد يكون بمثابة المعقل، تكون سلطتهم عليه بلا منازع، متجنبين بحذر التعدِّي على مجالات الآخرين. لم يكن لدى سيغفريد هذه المحاذير أو هذه الانكفاءات.

لم يسعَ إلى أن يكون اختصاصياً في بلد واحد أو مبحث واحد أو موضوع واحد. كانت باكورة أعماله أطروحة عن الديمقراطية في نيوزيلندا. ثم أصدر فيما بعد مؤلفات عديدة عن الولايات المتحدة وكندا وإنكلترة، وعن فرنسا كذلك بالطبع. ولقد كرَّس كذلك دراسات وتحليلات ونصوصاً في أدب الرحلات إلى امكسيك والبرازيل وكولومبيا والهند وجنوب أفريقيا، وكذلك إلى العالم المتوسطي. وتعنى أعماله التي تضمُّ أكثر من ثمانين عنواناً بالبروتستانتية والكاثوليكية واليهودية، وبالحروب الصليبية والمجتمع الصناعي، وصولاً إلى الصناعات الحرفية في الأرياف وماكيافيللي ولافونتين والمؤسسات السياسية الفرنسية والأوبئة الكبرى، بل وتضمُّ مؤلفاً بعنوان الجغرافيا الشاعرية للقارات الخمس ومؤلفاً آخر بعنوان جغرافيا باريس الفكاهية.

***

ذاعت شهرته في مرحلة مبكرة بفضل كتبه ومقالاته الصحفية ولاسيما موهبته في مجال التعليم، وحققت له كذلك نجاحاً باهراً على مستوى النشر. ومع أن الفرصة لم تسنح له إطلاقاً لممارسة المهام السياسية التي كان والده يتمناها لابنه ويأمل أن يتبوأها في شبابه، فقد اكتسب لدى الطبقة الحاكمة والرأي العام على السواء، سلطة معنوية لا تنكر.

ويشهد على ذلك هذا اللقاء الذي حصل عام ١٩٤٤، بعد مرور أحد عشر يوماً على تحرير باريس. ومن باب اللياقة، ومن واجب التحفظ، لم يكن بوسع أندريه سيغفريد أن يتحدث عنه علناً، ولكنه قام بتدوين تفاصيله في مذكراته الشخصية:

«البارحة مساء، في ٤ أيلول، جاءت شابة ترتدي بزة زرقاء، بالغة الأناقة والاحتشام في زيها العسكري، وسلمتني استدعاء من الجنرال ديغول يبلغني أنه سيستقبلني يوم غد في العاشرة والنصف صباحاً بوزارة الحربية، الكائنة شارع سان-دومينيك. فذهبتُ لملاقاته في الموعد المحدد... أدخلوني إلى بهو كبير، منير جداً، يطلُّ على الحديقة. وخلف الطاولة الوزارية الكبيرة، كان الجنرال واقفاً. تقدَّم نحوي وهو يمد يده لمصافحتي. تملكني فضول شديد لأعرف الانطباع الذي سيخلِّفه عندي. فقلما رأيت بعض اللوحات التي تصوِّره، لأنها كانت محظورة بطبيعة الحال في ظلِّ الاحتلال الألماني. لم أكن قد سمعت صوته إلا من خلال الإذاعة، ولطالما تراءى لي مزعجاً وخطابياً. كنت

أتوقع أن ألتقي ضابطاً فظاً، قليل التودد، متسلطاً بلا شك إنما يفتقر إلى الجاذبية. ولكن انطباعي عندما وجدت نفسي بدون مقدِّمات في حضرته كان مختلفاً كلياً. إنه رجل فارع القامة، وشاب المحيا - فهو لم يتجاوز الأربعين من العمر-، ومرتاح جداً في مشيته، رجل مجتمع، أي باختصار ليس عسكرياً بالفعل رغم بزته، ومن النوع الدبلوماسي بالأحرى. كان وجهه بيضاوياً عظمياً وشعره كستنائياً أو شائباً، وعيناه لا تشعان ولكنهما رقراقتان وتنظران مباشرة، وسحنته زيتونية بالأحرى وتتوِّج هذا كله ابتسامة ساحرة لا بل جذابة. وإننا نعلم أن بوسعه أن يكون فظاً وبغيضاً، ولكني لم أره بهذه الهيئة، لأن استقباله اتسم بدماثة شديدة، وببساطة تجعل الزائر يرتاح على الفور. وحالما جلست، سألني: «كيف الأوضاع؟».

وطرح ديغول على زائره أسئلة كثيرة تناولت تحليله للوضع الداخلي والعالمي، وللنظام الذي يجب إقامته، وما يتوقع منه شخصياً - فأجابه محاوره: «أن تعيد بسط سلطة الدولة في ظل احترام الديمقراطية»، والموقف الذي ينبغي اتباعه إزاء الشيوعيين - فأجاب سيغفريد أن ذهنية التضحية لديهم تنتزع الإعجاب، وكل ما بذلوه في المعركة من أجل التحرير، ولكن لن يغفر لهم إذا ما سعوا لمصادرة الحركة لمصلحتهم. قال ديغول: «حاولوا القيام بذلك، ولكن لم يسمح لهم الوقت، ولذلك حرصت على العودة على وجه السرعة. أتظن أن بوسعهم بعد الاستيلاء على السلطة؟» - «قد يكون بوسعهم

ذلك على أرضية المتاريس، إنما ليس على أرضية الاقتراع أو الاستفتاء الشعبي. وأضيف إنه من الأفضل أن يكونوا داخل الحكومة وليس ضدها». وقال لي: «هذا ما أفعله».

قبل نهاية المقابلة، كلَّف ديغول زائره بمهمة. قال له: «من المفيد جداً أن تطلع الأنجلوساكسونيين على ذهنية فرنسا. أرجو أن تتمكن من القيام بذلك. فالأميركيون، وعلى رأسهم الرئيس روزفلت، لا يعرفون فرنسا ويتوجسون بشأنها. يظنون أن فرنسا شيوعية أو فاشية، ولا يدركون تلك الذهنية التي قمت أنت بتحليلها. ولا ريب أن الموقف الدولي لفرنسا سيتعزَّز كثيراً إذا اقتنعت أميركا وإنكلترة بأنها ديمقراطية وجمهورية في العمق».

***

ومن بين الشخصيات الأخرى التي التقاها ديغول في تلك الأيام جورج دوهاميل، الأمين الأزلي بالنيابة للأكاديمية الفرنسية. كان يريد أن يلتقي الجنرال للتحدث معه عن مستقبل المؤسسة التي كانت تشهد أخطر أزمة في تاريخها. كانت أزمة نجمت جزئياً أقلّه عن ممارسة اتبعتها منذ عقود، كانت تبدو مشروعة في ذلك الوقت إنما تبين أنها وخيمة العواقب.

فعندما وضعت الحرب العالمية أوزارها، استصوبت الجمعية أن تضم إليها صانعي الانتصار. فانتخب كليمنصو بحكم منصبه، وكذلك الماريشالات، أو تقريباً كلهم. وربما اعتقد أعضاء الأكاديمية أن جميع

هذه الشخصيات ستكتفي بموقع رمزي؛ ولم يكن أحد يتخيل، على أي حال، أن أحدهم قد يؤدي في المستقبل دوراً من شأنه أن يحدث انقساماً شديداً في الأمة. غير أن ذلك ما حدث خلال الحرب العالمية الثانية عندما اختار الماريشال بيتان، بطل معركة فردان، في أعقاب هزيمة جديدة أحدثت صدمة تضاهي صدمة عام ١٨٧٠ - وكان قد انتخب عام ١٩٢٩ عضواً في الأكاديمية وشغل مقعد الماريشال فوش - أن يتخلى عن تقاعده في عامه الخامس والثمانين ويعلن نفسه رئيساً للبلاد. وكانت سياسة عمالته مع المحتل الأكثر مثاراً للجدل في التاريخ. فقد رأى البعض أن الرجل العجوز قد وهب نفسه لفرنسا، حسب تعبيره، للتخفيف من محنتها؛ ورأى البعض الآخر أن تسامحه مع النازيين مجرد خيانة، لا سيما وأنه قد سارع إلى إلغاء النظام الجمهوري باسم «ثورة وطنية» سلطوية ومحافظة.

وما زاد الأمور خطورة بالنسبة إلى الأكاديمية أن أمينها الدائم، الكاتب أندريه بيلسور، كان من المدافعين عن طروحات الماريشال. وخلال الجلسة التي عقدت يوم الخميس في ٣١ تشرين الأول ١٩٤٠، أعلن بيلسور تأييده لكي تعرب الجمعية لهذا الأخير عن «تأييدها وثقتها». ثلاثة فقط من الأعضاء الحاضرين، لم يوافقنه الرأي، فرفض الاقتراح. وفي محضر الجلسة الذي كتب بخط قديم بعناية، يمكن أن يقرأ المرء هذه السطور المقتضبة: «لم تجمع الأكاديمية على أن هذه الخطوة ملائمة. واستؤنفت الأعمال بشأن المعجم حتى كلمة

ajusteur، وبالمقارنة مع المعارك الهائلة التي كانت تدور رحاها آنذاك في أوروبا وسائر العالم، كانت المعركة الصغيرة التي وقعت توّاً في رصيف كونتي لا تذكر، ولكنها شكلت منعطفاً من الناحية المعنوية.

وبعد شهرين، توفي هنري برغسون. لم يكن بوسع وفاة فيلسوف يهودي في مدينة خاضعة لسلطات معادية بشدة للسامية أن تتيح التكريم الذي يستحق؛ وكان ذلك، في ذاته، يشكِّل معاناة للعقول الحرة. فاضطر زملاؤه وطلابه السابقون وقراؤه وأصدقاؤه إلى الاكتفاء بحزن صامت، نظراً إلى أن أي مظهر علني للأسى أو الإعجاب كان غير وارد.

ولقد ارتقى بول فاليري به إلى المصاف المعنوي المطلوب. ففي الجلسة التي عقدت في ٩ كانون الثاني ١٩٤١، ألقى تكريماً مدوياً موجهاً إلى الزميل الراحل. «كان فخر مؤسستنا... واسمه هو آخر اسم جليل في تاريخ الفكر الأوروبي». ولقد وُزِّعت الكلمة سراً في فرنسا والخارج، وأثارت الاعتزاز والأمل.

وبعد عام، توفي بيلسور، فحلَّ محله جورج دوهاميل، وهو روائي حظَّرت قوات الاحتلال بعضاً من أعماله. كان سيتعذَّر على سلفه، عند التحرير، أن يطلب مقابلة ديغول. وكان دوهاميل يعلم أنه سيُستقبل بكياسة جمة. ولقد استُقبل على هذا النحو، بل وأكثر مما كان يتوقع.

سأله رئيس فرنسا الحرة مباشرة: «ماذا ستفعلون بالماريشال بيتان؟».

فأجابه دوهاميل: «وأنت يا حضرة الجنرال ماذا ستفعل به؟».

ظهر الاستغراب والمرح على محيا ديغول بسبب جرأة محاوره. ولكنه ردَّ عن طيب خاطر بأنه يفكر في إرساله إلى جنوب فرنسا إلى أن توافيه المنية. ولقد ردَّ ديغول على الجنرال لوكلير الذي وصلت كتيبته المدرعة أولاً، والذي سأله عما يجدر به أن يفعل إذا ما صادف بيتان في طريقه، أنه يجب «إرساله إلى سويسرا». وكان الماريشال في الثامنة والثمانين عند التحرير. وفي نهاية المطاف، سيحتجز في حصن بجزيرة ديو. أما الأكاديمية فستقصيه من صفوفها ولكنها ستنتظر وفاته لتختار له خلفاً.

كان السبب المباشر الذي دفع دوهاميل إلى طلب مقابلة مع ديغول يتعلق بانتخابات الأكاديمية، فلقد غيب الموت الكثير من الزملاء في السنوات الأخيرة، ولم يكن انتخاب من يخلفهم ممكناً، لأن الانتخاب في مدينة خاضعة للاحتلال يعد سلوكاً منافياً للأخلاق. أما الآن، فباريس أصبحت محرَّرة، والاقتراع يمكن أن يجري – إلا أن النصاب مفقود! فالنظام الداخلي للأكاديمية يشترط حضور عشرين عضواً لكي تكون العملية الاقتراعية سليمة؛ وفي بعض الظروف، يكفي أن يحضر ثمانية عشر عضواً. ولكن أين يمكن العثور عليهم؟ فاثنا عشر منهم قد ماتوا، والآخرون انتقلوا للعيش في الخارج، أو لاذوا بالفرار، أو كانوا يُحتضرون – وعبثاً أحصى دوهاميل عددهم، فلم يكن بوسعه أن يصل إلى ثمانية عشر عضواً.

وعندما طرح هذه المشكلة أمام ديغول، فوجئ مفاجأة سارة بأن هذا الأخير قد فكر بالفعل في الأمر بل أفضل من ذلك: فالجنرال الشغوف منذ الطفولة بالأدب، كان يهتمُّ عن كثب بكل ما يتعلق بالأكاديمية؛ وكان يعرف تاريخها، منذ نشأتها؛ ولقد أُطلع فيما يبدو بالتفصيل على الخلافات التي نشبت فيها في ظلِّ الاحتلال.

كان هو الذي اقترح على زائره الحل الذي يجب اعتماده: فلا داعي للتشبُّت بمسألة النصاب، لأنه ليس هناك من حيلة في هذا المجال؛ ويجب دعوة أكبر عدد ممكن من الأعضاء المتوافرين بأسرع ما يمكن، سعياً لانتخاب أشخاص من ذوي الموهبة العظيمة، ومن الذين كانت لهم مواقف مشرِّفة في مواجهة الاحتلال. قال الجنرال: «يجب أن تكون لدينا أكاديمية بهية». ثم ذكر أسماء أشخاص لا نعرف هويتهم لأن دوهاميل لم يدوِّن أسماءهم في ملاحظاته.

أما ما نعلمه علم اليقين فهو أن الأمين الدائم اتصل غداة هذه المقابلة بثلاثة أشخاص انتخبوا بعد خمسة أسابيع في الجلسة نفسها وهم لويس دو بروغلي، الحائز جائزة نوبل للفيزياء؛ وباستور فاليري-رادو، الطبيب والمقاوم، وحفيد لويس باستور؛ وأندريه سيغفريد.

***

كان الانبهار الذي خلَّفه سيغفريد لدى طلابه، ومستمعيه، بل ومن خلالهم، المجتمع بأسره، انبهاراً عظيماً. وليس بوسعنا للأسف أن نكوِّن عنه سوى فكرة تقريبية للغاية لأنه لا تتوافر لدينا تسجيلات

لمحاضراته. غير أن قراءة أعماله ما زالت تمتع وتشحذ الذهن ما يتيح للمرء أن يكوِّن فكرة عن مشاعر الجمهور الذي كان يصغي إليه. لم يشعروا معه يوماً بالملل أو بتشتُّت الذهن، ولم يشعروا إطلاقاً كذلك بأنهم يعاملون كالأطفال، أو يتعرَّضون للتلاعب أو للخداع.

كانت من عادات الكاتب أن يعرب دون مواربة عما يراه ويشعر به، بصرف النظر عن تأييده لهذا الفريق أو ذاك. وهذا ما حصل حين زار مونتريال عام ١٩٠٦ وقال: «بوسع بعض الأجانب أن يقيموا فيها أسابيع بحالها، وأن يرتادوا الفنادق والمصارف والمخازن ومحطات السكك الحديد فيها، دون أن يفطنوا على الإطلاق إلى أن المدينة فرنسية بأغلبيتها العظمى. ويتظاهر المجتمع البريطاني بتجاهل تلك الحقيقة ويعيش ويتصرَّف وكأن ليس لديه جيران. ينظر مئة ألف من أبناء هذا المجتمع إلى مونتريال وكأنها ملكهم. وبما أن ذلك لم يحصل عن طريق الانتخاب أو قانون التفوق العددي، لا بد من الاعتراف بأنهم ما زالوا يؤمنون في أعماقهم إيماناً راسخاً بذلك المفهوم القديم الذي لم تمحهُ الذاكرة، وهو مفهوم حقِّ الغزو. انظروا إلى الموظفين الحكوميين في الهند وستفهمون على نحو أفضل أسياد كندا». كان كلاماً قاسياً، سيذكره التاريخ، لا سيما وأنه صادر عن رجل لا يكنُّ للبريطانيين سوى الاحترام والمودة.

لم يكن سيغفريد سيِّئ النية أو صعب المراس. فأياً كان الموضوع الذي يتحرَّاه أو يمعن فيه التفكير، بوسع المرء أن يكون على ثقة أن الواقع الذي يصفه مطابق للواقع الذي شاهده، وأنه يصفه كذلك على

النحو الملائم، بأسلوب يجعله مفهوماً بل وجذاباً. قال يوماً إن دور المعلم أن يكون «مِرْشحاً» يحوِّل المياه العكرة إلى مياه نقية. وكانت كتاباته تتميز بهذه الصفة.

غير أن استخدامه لبعض الألفاظ والتعابير التي تتماشى مع ذهنية عصره، ولكنها لم تعد مقبولة لذهنية عصرنا، وبالأخص حين يتكلم على الأعراق، يُسبِّب لنا بعض الضيق لدى قراءتنا لأعماله. ويتعلق الأمر في هذا المقام أحياناً بمفرداته. فعندما نشر الدراسة التي استقينا منها الفقرة المكرَّسة لمونتريال، والتي أعطاها هذا العنوان : كندا، الفئتان العرقيتان مشيراً على هذا النحو إلى السكان من أصل فرنسي والسكان من أصل إنكليزي، لا يخفى على أحد أن «الفئتين العرقيتين» كانتا تعادلان فقط، في عام ١٩٠٦، ما كان بوسع المؤلف أن يطلق عليه، بعد مرور قرن، اسم «الجماعتين» أو «الشعبين»، دون أن يبدِّل شيئاً في طرحه.

وفي بعض الأحيان، كانت الأمور تتجاوز مسألة المفردات. وهذا ما حصل حين ذكر، على غرار معاصره كيبلينغ، مصير «الرجل الأبيض»، أو أعرب عن خشيته، أثناء زيارة إلى كاليفورنيا، من «الخطر الأصفر» الذي يمثله، من وجهة نظره، المهاجرون من أصول آسيوية. وكانت معتقداته في هذا المجال هي معتقدات الجيل الذي ينتمي إليه. لقد كتب بوضوحه المعهود ما يلي: «في نفسية الشعوب سماتٌ دائمة تبقى إلى الأبد. إننا ما زلنا حتى الآن، وفي سمات كثيرة، نشبه

أسلافنا الغاليين، والخصائص التي لاحظها تاسيتس لدى البربريين أو اليهود في عصره ما زالت موجودة لدى الألمان والإسرائيليين اليوم».

ولكنه يضيف في صفحات لاحقة من هذه الدراسة نفسها، المعنونة روح الشعوب: «لا وجود لعرق فرنسي، فهذا التعبير لا معنى له. هناك جرمانيون في الشمال، وسلتيون-أو، إذا ما شئنا، سكان جبال الألب - في الهضبة الوسطى وفي الغرب، ومتوسطيون في الجنوب. إننا، كما قال سينيوبوس، عرق من الخلاسيين.... والوحدة الوطنية التي توصلنا إليها ليست قائمة على الأعراق. فالأصول الإثنية بوسعها أن تتمايز، ولكن، ،خلافاً لإنكلترة أو ألمانيا، لم يهيمن أي عرق على الأعراق الأخرى: فجميع الفرنسيين، سواء ارتبطوا بالجذع الجرماني أو الألبي أو المتوسطي، يعتبرون أنفسهم فرنسيين بالقدر نفسه، دون أي تفاوت ناجم عن الدم الذي يجري في عروقهم (هل بوسعي قول الشيء نفسه عن الأنجلوساكسوني البريطاني إزاء السلتي؟)».

في هذه الدراسة التي نشرها في آخر حياته، ليست نظرته للشعوب، المطابقة لذهنية عصره، ما يبرز للعيان ويسترعي الانتباه بل المقارنة التي يجريها، مثل ستيفان زفايج في عالم الأمس، بين القرنين اللذين عرفهما، وتفضيله الواضح للقرن الأول. «كان القرن التاسع عشر يظنُّ أنه يتحلَّى بطيب نية قومية وإمبريالية. وفي الواقع، لقد كان دوليَّ النزعة وليبرالياً...لقد حقق تقريباً وحدة الكوكب من الناحية الاقتصادية. وينزع العالم اليوم إلى الانقسام إلى وحدات سياسية -

اقتصادية كبرى، منفصلة، مدجَّجة بالأسلحة العسكرية والاقتصادية، وتوتاليتارية في الواقع أو تنزع بحكم الضرورة إلى أن تصبح كذلك. ولم تعد السلع أو البشر يتنقلون بحرية... كان آباؤنا – مثلنا نحن في شبابنا – يؤمنون إيماناً لا يتزعزع بالتقدم، ولم يكن ليخطر ببالهم أن يتخيلوا الأرض الموعودة في مكان آخر غير المستقبل. ويحدث أحياناً أن نتساءل إذا لم تكن هذه الأرض تنتمي إلى الماضي».

لقد توصل زفايج في منفاه إلى استنتاج مماثل الأمر الذي دفع به إلى أن يعاف الحياة. أما موقف سيغفريد فكان مختلفاً. فعلى الرغم من رؤيته المتشائمة حيال المستقبل، والسرطان الذي كان ينهش جسده ويتسبَّب بضموره السريع، تابع إلقاء محاضراته حتى عشية عامه الثاني والتسعين.

ولقد أسلم الروح بعد سنتين، في ٢٨ آذار ١٩٥٩، في بيته الباريسي؛ وكان بوسعه أن يموت في مدرجه، مثلما مات موليير على خشبة المسرح، وسط العرض.

١٧

ذاك الذي كان منبهراً بالدورات الشمسية

في ٢١ أيلول ١٩٧٢، وهو يوم اعتدال الخريف، قضم هنري دو مونترلان، في شقته الكائنة في جسر فولتير، عبوة من الزرنيخ، ثم أطلق على نفسه رصاصة في الحنجرة خشية أن يكون السم قد فسد؛ وترك لمن سيكتشفون جثته رسالة يرجوهم فيها أن يتحققوا من وفاته قبل حرق جثته، وأوصى بنثر رماده في روما، في المنتدى الروماني الأثري.

لم يفاجأ من كانوا يعرفون الشخص السابع عشر الذي شغل هذا المقعد كثيراً بانتحاره، لأنه لم يكفَّ عن التكرار قولاً وكتابة بأنه سيفارق الحياة في اليوم الذي ستصبح بالنسبة إليه مصدراً للعذاب عوضاً عن المتعة. وفي آخر أيامه، كان يخالجه الشعور بأن وضعه يتدهور بسرعة. فلم يعد يبصر بإحدى عينيه، وراح بصره ينحسر شيئاً فشيئاً في العين الأخرى. وأصبح جسده الذي كان يعتني به دوماً مثل الرياضيين القدامى مترهلاً وقبيحاً. كان يعاني عدداً لا يحصى من المنغِّصات التي اشتدت وطأتها مع تقدُّمه في السن؛ ويخشى أن يصبح

عاجزاً، مستضعفاً، وخاضعاً لمشيئة الآخرين. لماذا يترك حياته تنتهي وسط الذل وقد أمسك بزمامها حتى الساعة بكبرياء، ووفق ما تمليه رغباته؟ لم تكن حياته وردية تماماً، بالطبع. فلقد عاش لحظات من الرعب الشديد، خشي فيها أن يخسر كل شيء. ولكن أحواله تحسنَّت، وها هو يحظى بالشهرة والنجاح والتقدير. ولقد نال من التكريم أكثر مما أراد، ولن يحصل على المزيد. أليست تلك اللحظة المناسبة للانسحاب؟

أمضى فترة الصبا الأولى في كنف أسرة ثرية، مؤمنة إنما بدون تشدُّد، وفخورة بأصولها - «كان يقول إنها من صغار النبلاء، ولكن لا شك في أنها نبيلة». وترعرع في دور فاخرة، أولاً في باريس، ثم في ضاحية نووي - سور - سين، طفلاً محاطاً بلفيف من الراشدين من والديه، وجده وجدته لأمه، وعم وعم أكبر سيكونان نموذجين في روايته العازبون، ومربيته؛ وخدم المنزل... كانت النساء يعتنين به، والرجال يعتنون بأنفسهم بالدرجة الأولى. وفي المجمل، كان هذا العالم الصغير يعيش في تفاهم. كان هنري يقرأ كثيراً وقد بدأ يكتب كتباً صغيرة وهو في الثامنة من العمر. ولقد عرف على الدوام أن الأدب سيحدد مسار حياته.

وسيتأثر على وجه الخصوص طوال حياته برواية كو فاديس؟ للكاتب البولندي هنريك سينكيفيكز. وتدور أحداث هذه الرواية حول

الاضطهاد الذي تعرَّض له المسيحيون الأوائل تحت حكم الإمبراطور نيرون، ومما لا شكَّ فيه أن والديْ هنري كانا يرجوان، عندما قدَّماها هدية لابنهما، أن تعزِّز إيمانه، ولكنها أوحت له بشيء مختلف تماماً. فالشخصية التي انبهر بها منذ القراءة الأولى والتي سيظلُّ منبهراً بها حتى خريف عمره، كانت شخصية بيترونيوس الذي يقال إنه مؤلف رواية ساتيريكون. وكان بيترونيوس في زمنه حَكَمَ الأناقة في البلاط الإمبراطوري. ويقول عنه تاسيتس في الحوليات إنه كان يكرِّس النهار للنوم والليل لواجبات الحياة وملذاتها. «ولئن حصل بعضهم على الشهرة بالكدِّ والفلاح، فهو قد حصل عليها بالخمول. وكان الاستهتار والتخلي اللذان يُستشَّفان في أفعاله وأقواله يمنحانه هيئة من البساطة فيكتسبان جاذبية جديدة». ويضيف المؤرخ أن بيترونيوس قرَّر، عندما علم بأنه فقد حظوته عند الإمبراطور، أن ينتحر بقطع شرايينه، «إذ لم يطقْ أن يذوي حائراً بين الخوف والأمل».

وعندما تحدَّث مونترلان، في مرحلة متأخرة من حياته، عن تأثير هذه الرواية عليه، لجأ إلى صورة شديدة الوقع: «في الثامنة من عمري، كنت أعوم وسط رواية كو فاديس؟ مثلما تعوم الصفيحة الفوتوغرافية وسط المظهِّر الكيميائي». وعندما بلغ الستين من العمر، كان يعيد دوماً قراءة هذه الجملة الواردة في الرواية التي نقلها على مفكرته: «من يعرف كيف يعيش يجب أن يعرف كيف يموت».

والرواج الذي لاقته رواية سينكيفيكز في السنوات الأولى من القرن العشرين ليس غريباً عن كون الكاثوليكيين كانوا يشعرون في تلك الفترة بالاضطهاد من جانب السلطات العامة المناهضة بشدة لرجال الدين، والتي كانت تريد أن تكرِّس الفصل بين الدولة والكنيسة، فراحت تتعامل مع الطوائف الدينية بصرامة.

واستهلَّ مونترلان دراسته في هذا الجو المتوتر. وسيروي فيما بعد أنه كان يسمع والديه، لشدة معاداتهما للسلطات الجمهورية، يصرِّحان في بداية الحرب العالمية الأولى «أنه لا بأس من أن تُهزم فرنسا»، و«أنها استحقت الهزيمة» بعد كل فعلته بحقِّ الكاثوليكيين؛ ولن يظهرا مشاعر وطنية إلا في فترة لاحقة، أثناء معركة فردان.

ورغم ذلك، فحين تطلب الأمر اختيار المدرسة التي سيلتحق بها هنري، كانت أولويتهما لنوعية التعليم عوضاً عن الاعتبارات العقائدية. وخلال إقامتهما في باريس، ارتاد ابنهما مدرسة عمومية ممتازة. وعندما انتقلا للعيش في ضاحية نويي، اختارت والدته مدرسة يديرها قساوسة معروفون بعواطفهم الجمهورية. وسيقول مونترلان فيما بعد إنهم كانوا ينتمون إلى اليسار، بل أحياناً إلى أقصى اليسار. وفي الواقع، ذلك كان الانطباع الذي تكوَّن عنهم وقتذاك، بحيث أن البابا أدان حركتهم، واسمها «الأخدود»، بسبب «حداثتها الاجتماعية». وفي الحقيقة، كان الإثم الذي اقترفوه أنهم دعوا قبل غيرهم إلى المصالحة عوضاً عن المواجهة بين المسيحيين والجمهورية.

غير أن ما سينطبع في ذهن التلميذ عن تلك السنوات لا علاقة له بهذه الخلافات. إنه حدثٌ يرتبط بحياته الخاصة، وسيُخلِّف آثاراً لن تمحى: ففي السابعة عشرة، طُرد من مدرسة الصليب المقدس بسبب مشاعر من الصداقة المتقدة التي كان يظهرها لأحد رفاقه. وكثيراً ما سيرجع ذكر هذه الحادثة في كتاباته: في عمله الروائي الأول، وهو بعنوان مناوبة الصباح، الصادر عام ١٩٢٠، وفي العديد من أعماله الروائية الأخرى، لا سيما رواية الفتيان، ثم في إحدى أبرز مسرحياته التي تحمل عنوان مدينةٌ أميرها طفل.

ومع مرور السنين، ستتجلّى لديه نزعة إلى تجميل هذا الشغف المراهق وتضخيمه واعتباره الحب الوحيد الجارف في حياته. غير أنه لن يفصح عن ذلك إلا ببطء شديد، مستغرقاً في بعض الأحيان عقوداً بحالها للكشف عن بعض التفاصيل التي كان غيره سيرميها بفجاجة على الملأ منذ الرواية الأولى. فالقبلة التي سيوحي بها في صفحة تعود إلى العشرينيات، لن يعترف بها إلا في صفحة تعود إلى الستينيات. وبين اللحظتين، ثمة مغامرات أخرى، فتيان، وفتيات، وخطبة مفسوخة...

يرى بعض قراء مونترلان أن مقاربته للعلاقات الحميمة تتسم بالخفر، ويعتبر بعضهم الآخر أنها تنتهج الكتمان. وسيلاحقه اللغط حول حياته العاطفية مثل ظلّه طوال حياته، ويتضخَّم في سنواته الأخيرة، بل ويشتدُّ بعد مماته.

ولا يتعلق الأمر بمعرفة ما إذا كان يميل إلى الرجال أو النساء بالأحرى، فهذا، في ذاته، أمرٌ لا يثير الاستهجان، لا اليوم، بالطبع، ولا حتى في الفترة الفاصلة بين الحربين العالميتين. ففرنسا التي عاش فيها جان كوكتو وأندريه جيد لا تمتُّ بصلة إلى إنكلترة التي عاش فيها أوسكار وايلد. والأسئلة التي أثيرت في بعض الدراسات عن مونترلان، واعتبرها معجبوه بمثابة تمريغ لسمعته في الوحل، تتعلَّق على وجه التحديد بسنٍّ عشرائه الجنسيين، وكذلك بسبب بعض المآسي التي ألمت به. فعلى سبيل المثال: هل فقد إحدى عينيه بسبب ضربة شمس حادة أصابته بنوبات دوار متكرِّرة، فتعثَّر وسقط أرضاً؟ أم إنه فقدها أثناء جولة ليلية مشتبه فيها في أزقة معتمة حيث تعرَّض للضرب المبرِّح؟

من الطبيعي أن تُطرح أسئلة من هذا القبيل بشأن شخصية ذائعة الصيت. ويبقى أن نعرف ما إذا كان هذا اللغط سيلطِّخ لفترة طويلة سمعة الكاتب، ويمحو من الأذهان موهبته الفذة، ويشوِّه استقبال الجمهور لأعماله.

يكتب تاسيتس في وصف بترونيوس الذي اتخذه مونترلان منذ شبابه قدوة: «لم تكن سمعته سمعة رجل منغمس في العربدة، مثل معظم المبذِّرين، بل سمعة شخص شبق متمرِّس في الملذات».

هل سيقال يوماً عن مؤلف «الفتيان» الشيء نفسه الذي قيل عن مؤلف ساتيريكون؟

***

أبدى مونترلان شغفاً مبكراً بالعصور القديمة يُفسِّر ذلك الولع الذي رافقه مدى حياته بمصارعة الثيران.

اكتشف هذه المصارعة أثناء زيارة قصيرة إلى بايون، لدى عودته من محجَّة إلى لورد التي اصطحبته إليها جدته. كان ذلك عام ١٩٠٩، وهو في الرابعة عشرة. وفي السنة التالية، سمح له والداه بأن يسافر لوحده إلى إسبانيا، دون أن يخامرهما الشك بأن ابنهما المراهق لن يهتم بمصارعة الثيران لأسباب جمالية أو أدبية فحسب، بل سيرغب في أن يخوضها بنفسه، وسيفعل ذلك بحماسة وبراعة. وحتى آخر سنوات عمره، سيظلُّ يذكر بفخر واعتزاز المقال الذي نُشر في إحدى صحف بورغوس عن مصارع الثيران الفرنسي الشاب، ومدى جسارته، وموهبته الواعدة. ولن يغادر الكاتب الحلبة إلا يوم نطحه ثور نطحةً اخترقته حتى بلغت حدود رئتيه. كان في الثلاثين من العمر، ويضع اللمسات الأخيرة على رواية كرَّسها لمصارعة الثيران تحمل العنوان التالي: *مصارعو الضواري*.

إنها قصة رجل شاب يدعى ألبان دو بريكول تعده شابة اسمها سوليداد بأنها ستبادله مشاعر الحب إذا تحلى بالجرأة على مواجهة ثور خطير بشكل خاص؛ ويجد ألبان في نفسه الشجاعة للإقدام على ذلك، ولكنه يصرف اهتمامه عن سوليداد عندما ينتصر، ولا يغفر لها أنها عرَّضته للخطر بدافع نزوة فحسب. وبطلُ الرواية بالطبع هو توأم

الكاتب، ومثله، قرأ رواية كو فاديس ؟في طفولته، وأصبح يشعر بنفسه رومانياً منذ ذلك الحين، ويقول إنه «يُستثار» كلما سمع كلمة «حلبة».

ويتحدث مونترلان عن مصارعة الثيران بنبرة كان سيتعذَّر عليه أن يُوفَّق في استنباطها لو اكتفى بالبقاء في المدرجات. «ما هذه الترهات التي نطالعها في الكراريس ومفادها أن المرء يجب أن يصارع منتصباً! يجب أن تصارع منحنياً لكي تقترب من الثور، لكي تنقل له عن كثب إرادتك الصلبة التي تنقضُّ من عينيك، لكي يرى الثور عن قرب قناعك الرهيب، بحاجبيك المعقودين، وفكَّك المتحفز، فترتعد فرائصه؛ يجب المصارعة عن كثب شديد بحيث يتحتم علينا القتال لشدة تعطشنا إلى اتصال أكثر حميمية».

وبصرف النظر عن جزالة الأسلوب وإحكام الحبكة، تحاول الرواية أن تبرهن، على سبيل التلميح أحياناً، إنما كذلك في بعض الأحيان من خلال استطرادات مطولة تنمُّ عن سعة اطلاع الكاتب، أنّ مصارعة الثيران من بقايا عبادة قديمة. «كانت جذور ديانة الثور التي يدين بها ألبان عميقة تتوهُ عبر العصور». ثم يذكر إندرا في الديانة الفيدية، وألعاب الثيران في كريت، والمينوتور، وجوبيتر الذي يتحوَّل إلى ثور لإغواء أوروبا، وبالأخص الإله ميترا، «ذابح الثور»، «ذكر القطيع»، و«صديق الشمس» الذي انتشرت عبادته في الإمبراطورية الرومانية خلال القرون الأولى بعد الميلاد. ويوضح مونترلان: «لقد

خاضت المسيحية والميترانية صراعاً مريراً بسبب أوجه الشبه بينهما تحديداً. ألم يكتب رونان إن «المسيحية، لو أصابها داء قاتل، لكان العالم ميترانياً»؟ لقد لام الكهنوت الميتراني المسيحيين على ما اقترضوه من شعائر عديدة من بينها انتحالهم «التطهير بدم الثور» من خلال «التطهير بدم الحمل». ويوضح الكاتب، متحدثاً عن مشاعر ألبان في اللحظة التي يستعد فيها للتخلي عن سوليداد: «كانت فكرة أخرى تدعمه ومؤداها أن ميترا لم يرتبط يوماً بعلاقة مع امرأة، فالنساء كنَّ مقصيَّات عن المشاركة في أسراره».

وتتحدث رواية مصارعو الضواري أيضاً عن «اكتشافٍ» قام به ألبان، أي هنري، كان أغلب الناس سيجدونه طريفاً، ولكنه سيجرُّ عليه عواقب دائمة ومأسوية: فلقد أبصر النور في ليل ٢٠ إلى ٢١ نيسان، وكان هذا التاريخ الأخير هو تاريخ تأسيس روما، الذي يُحتفل به في كل أنحاء إيطاليا. ويعلِّق الكاتب: «إنها لمصادفة تبعثُ على النشوة»، قبل أن يضيف مصادفة أخرى ستقلب كيانه رأساً على عقب: ففي ليل ٢٠ إلى ٢١ نيسان أيضاً، تدخل الشمس في برج الثور، «ولذلك يحدِّد الكلدانيون والفرس بدء الخليقة في هذا التاريخ!». وسيسير مونترلان بعد ذلك وفق اعتبارات من هذا النوع، معتبراً أنها «مؤشرات ساطعة على قدره»، وذلك حتى آخر يوم في حياته – وليس من قبيل الصدفة أنه سيختار الانتحار يوم اعتدال الخريف. وهذا المفهوم الأخير، ومفهوم الانقلاب، إلى جانب عبارات شتى أخرى ذات دلالات «شمسية»،

ستتكرر في أعماله، وفي حياته، وتفضي به أحياناً إلى استرسالات محزنة.

ولكن صفو هذا المشهد لم يعكِّره أي حدث لدى صدور رواية مصارعو الضواري. كانت لدى الكاتب الذي بلغ الثلاثين من العمر كلُّ الأسباب للشعور بالرضى. فأعماله تنتزع الإعجاب، سواء لدى النقاد أو الجمهور، وبالأخص لدى عشاق مصارعة الثيران. ومن المعلوم على سبيل المثال أن إرنست همنغواي عثر على الكتاب في مكتبة باريسية وقرأه بشغف؛ وإذا ما صدَّقنا بعض المتعمِّقين في أعماله، فقد تأثر به كذلك.

كان مونترلان يبدو مبتهجاً لنجاحاته الأدبية الأولى ومنزعجاً بسببها على السواء. فحلمه بأن يصبح أديباً مشهوراً على وشك أن يتحقَّق، ولكنه كان يرغب كذلك في تحقيق حلم آخر من أحلامه، وهو حلم أقلُّ سمواً غير أنه لا غنى عنه بنظره يتمثل في الشهوانية. فعوضاً عن الانتشار في الصالونات الباريسية، قرر أن يتوارى عن الأنظار. فباع بيت أسرته، وذهب للعيش في جنوب المتوسط، يكتب قليلاً، ويمرح كثيراً، وينصرف إلى ملذاته على هواه، مطلقاً لها العنان.

وبعد ثلاث أو أربع سنوات من المغامرات والغزوات السهلة، أصيب بإعياء شديد، وقرر أن يحدِّد لحياته اتجاهاً، من خلال الأدب، بالطبع. فاستأجر شقة في العاصمة الجزائرية، وانكبَّ على تأليف رواية وردة الرمل. ولشدة ما كانت نبرتها مناهضةً للاستعمار بل ومناهضةً

لفرنسا، عدل عن نشرها، وفضل أن يدعها ترقد في جواريره. ولن يخرجها إلا بعد عقود من الزمن، مبرراً أن موسوليني وهتلر كانا مستشرسين ضد فرنسا وإمبراطوريتها الاستعمارية، عندما أنجزها، في الثلاثينيات، ولم يشأ أن يؤيد موقفهما. ولقد لمح الزميل الذي استقبله في الأكاديمية الفرنسية، وهو الدوق دو ليفي – ميربوا، إلى هذا الكتاب، عندما حدَّثه عن «الإسلام الذي يعزُّ على قلبك».

ولدى عودته إلى فرنسا، أظهر حماسة للكتابة، وكأنه شاء التعويض عن كسله النسبي في السنوات السابقة. وفي عام ١٩٣٤، نشر رواية \العازبون ثم استهلَّ، عام ١٩٣٦، رباعية روائية بعنوان \الصبايا\ حققت نجاحاً باهراً، وإن اتهم بسببها بمعاداته للمرأة.

في تلك السنوات، كانت الحرب الكبرى الجديدة ماثلة في جميع الأذهان. لم تكن قد اندلعت بعد، ولكن العالم يقترب منها كل يوم بخطى حثيثة. وفي عام ١٩٣٨، نشر مونترلان دراسة بعنوان \اعتدال أيلول، روى فيها صعود النازية كما يلي: «الصليب المعقوف مستوحى من العجلة ذات الشعاعات الأربعة، ومن القرص، اللذين يمثلان الشمس في العصور القديمة. وتحت هذا الشعار، حاربت الجيوش الوثنية القديمة في القرن الرابع ضد جيوش قسطنطين التي كانت ترفع صليب المسيح، وتلك الشعارات نفسها تتناحر في ألمانيا اليوم».

أما الخطورة التي ينطوي عليها هذا التفسير «الروماني» للأحداث المعاصرة فهي أنها تدفع الكاتب للظهور بمظهر المتساهل إزاء

إيديولوجيا لم يكن يعتنقها على الإطلاق، وذلك لأسباب ترتبط فقط بالتعاطي مع الرموز. وسيتجلّى هذا الانزلاق بمزيد من الوضوح في دراسة أخرى بعنوان \انقلاب حزير\ان، نشرت عام ١٩٤١، غداة هزيمة فرنسا واجتياح أراضيها من أصحاب الصليب المعقوف. وكتب فيها ما يلي: «انتصار العجلة الشمسية ليس انتصار الشمس فقط، إنه انتصار المبدأ الشمسي»، قبل أن يضيف: «إنني أرى المبدأ الذي تشرَّبْتُهُ ينتصر في هذا اليوم».

بعد أن استسلم مونترلان لهذا الضلال، لم يكن بوسعه سوى أن ينزلق وينحرف، وهذا ما فعله في الصفحات الأخيرة من الدراسة، مسدياً لأبناء وطنه سُبحة من النصائح: «لا شكوى وتذمر أولاً.... لا تجهُّم، لا تمرُّد محدوداً، طفولياً وشائناً، نعطي من خلاله الانطباع الواهم بالوطنية أو نلوح بقناعها: فالعدو كان يجب أن نضايقه قبل مجيئه وخلال وجوده، وليس فيما بعد. لا عنف... كونوا لاعبين يتحلون بروح رياضية ولو لمرة. لا تدخلوا المستقبل متذمرين. فلننصرف عن كل شيء، ولنقلْ: نعم، وعن طيب خاطر، لما قد حدث. فلنقبل قبولاً مزدوجاً: الحقيقة في ذاتها، ثم هذا الحدث العادل: لقد هزمنا بصورة نظامية تماماً، وعلى جميع المستويات. فلنتقبلْ ذلك، ومن ثم فلنؤيد...».

هذه الآراء التي نشرت في فرنسا الرازحة تحت احتلال جيش

عدو لم تمرَّ دون أن يلاحظها أحد. وكلما دعا المقاومون في صحيفة سرية أو في منشور إلى معاقبة الخونة و«المتعاونين»، سيحتلُّ اسم هنري دو مونترلان موقع الصدارة على القائمة. وكيف لا يكون الأمر كذلك؟ كانت كلماته واضحة مثل عين الشمس!

أما الذين كانوا يعرفون الرجل حق المعرفة فيعلمون أن في الأمر سوء تفاهم. فخلافاً لما يوحي به كلامه، لم يكتب يوماً في صحف متعاونة مع قوات الاحتلال، ولم يذهب إطلاقاً لزيارة ألمانيا النازية، ولم يؤيد قطعاً المعاداة للسامية. لم تكن تلك المواقف والمعتقدات مواقفه ومعتقداته على الإطلاق. ولم يكن كذلك من الذين ينشدون السلام مهما كان الثمن. كان يؤمن بأخلاق الشجاعة التي تجعله يرغب في القتال، وإن بلا أمل، عوضاً عن ارتضاء الخزي والعار. وعندما وقَّعت فرنسا وإنكلترة، في أواخر أيلول ١٩٣٨، اتفاقات ميونيخ متوهمتين بأن ذلك سيهدئ من غلواء هتلر، استهجن مونترلان ذلك الركوع الصاغر على هذا النحو أمام «جوبيتر صاحب الخصلة». وعندما اندلع النزاع الحتمي في نهاية المطاف، عمل مراسلاً صحفياً لكي يتسنى له الذهاب إلى الجبهة، على الرغم من عدم استدعائه للخدمة. وبعد أن رجع من الحرب العالمية الأولى مصاباً بسبع من شظايا القنابل، سيرجع من الجبهة جريحاً هذه المرة كذلك، بعد إصابته بجرح بليغ على جانب العانة. كان القلائل بوسعهم التباهي، كما كان يفعل أحياناً في آخر حياته، بأن جسدهم يحمل آثار حربين عالميتين وقرن ثور.

لئن وجد نفسه رغم كل شيء يدعو إلى الإذعان والخضوع، فلأنه استنكر سلوك أبناء وطنه عام ١٩٤٠. وكانت دراسته \انقلاب حزيران - الخرقاء وغير الملائمة والمترعة بأفكار ملتبسة مع أنها مكتوبة بأسلوب بديع - تعبيراً عن استيائه. كان مونترلان يريد أن يقول لأبناء وطنه: إذا لم ترغبوا في القتال، فأنتم لا تستحقون الانتصار؛ وفي هذه الحالة، استسلموا! وهذا من قبيل الكلام الذي يمكن أن يقوله مدرِّب ملاكمة إلى الملاكم الذي يدرِّبه بعد جولة سيئة لكي يثير لديه صحوة. ولكن ذلك بالتأكيد ليس كلاما يمكن لأديب يتمتع بشهرة واسعة أن يقوله وينشره في بلد مهزوم، محتل، مُهان، مجروح، وكذلك منقسم انقساماً حاداً بشأن الموقف الذي يتعين انتهاجه إزاء هذا المصاب. وكل كلمة تقال في ظروف مماثلة تحدِّد موقع قائلها في هذا الطرف أو ذاك من خط الفصل.

وأدرك مونترلان بسرعة فائقة أنه كان الأجدى به أن يلزم الصمت، ولكن السيف قد سبق العذل، ولم يعد بوسعه أن يسحب ما كتبه ونشره. ولذلك، كان يتوقع الأسوأ عند التحرير. وعاش في الواقع لحظات من الخوف، كما في ذلك اليوم من عام ١٩٤٥ حين استدعي إلى مفوضية الشرطة في جسر أورفيفر. ولقد سبقه إلى هناك أديب كبير آخر تورَّط، من جهته، في التعاون النشط مع العدو، وهو مارسيل جوهاندو. ويذكر هذا الأخير في يومياته: «لقد حرصوا بلباقة أن يجلسونا جنباً

إلى جنب قبالة مجموعة من المومسات ألقي عليهن القبض البارحة على أرصفة باريس وكان عناصر الشرطة المداومون يأتون بين الحين والآخر لمضايقتهن». وكتب مونترلان من جهته: «نهض جوهاندو حين دخلتُ إلى قاعة المحقِّقين واقترب مني. كانت هيئته تشبه هيئة الكاهن. يبدو أنه في عالم آخر. ويبدو أنه بريء مثلي. أريد القول إنه بريء من النوع الكبير... واقتادونا في سيارة شرطة إلى شارع بواسي - دانغلا حيث انتظرنا طويلاً. أقنعت جوهاندو أننا لسنا في وضع مريح، فقال إنه أصبح الآن يعتقد ذلك. كان يظن أن المسألة ستنتهي بالنسبة إليه في غضون نصف ساعة. قال إنهم يريدون رؤوساً يقتصون منها وإنهم يلقون القبض على الموجودين لأن الآخرين ماتو أو هربوا؛ وإننا قد استدعينا في أحلك فترة... وأخيراً، وفيما كنا نطلق أسوأ التكهنات، جاء أحد المحققين ليقول لنا: «أيها السيدان، بوسعكما الانصراف. هناك تحقيق مفتوح ضدكما. فابقيا بتصرف العدالة»».

واستدعي مونترلان مجدداً، أكثر من مرة، أمام هيئات مختلفة، دون أن توُجَّه إليه أية تهمة. وخلفت لديه هذه الحادثة آثاراً؛ فأصبح أكثر كآبة، وأكثر عصبية، وأشد وحدةً مما كان عليه من قبل. ولكنه أفلت من الأسوأ في نهاية المطاف.

***

ومما يدعو للمفارقة أن الزلَّة التي ارتكبها لدى إصدار روايته \انقلاب حزير\ان ستكون لها نتائج سارة على أعماله. ففي الواقع، وبعد

صدور الكتاب بفترة وجيزة، وكان قد بدأ يدرك أنه لم يحسن التقدير، تلقى من مدير مسرح الكوميديا الفرنسية طلباً سيتبين أنه هبة من السماء: هل هو على استعداد لكتابة مسرحية مستوحاة من أحد فصول تاريخ إسبانيا في القرن الرابع عشر؟ فأبدى استعداده للقيام بذلك، وألف مسرحية \الملكة الميتة. وعلى الفور، استهوته الكتابة المسرحية التي سيكرِّس لها جلَّ وقته، متخلياً عن الروايات التي حققت له الشهرة قبل الحرب، وعن الدراسات التي تسبَّبت بضياعه. ولقد صرَّح أنه مذهول لسهولة النوع المسرحي. وأوضح يوماً لأحد معجبيه: «الرواية تُحرث بمشقة بمحراث من عصر الفراعنة، فنتصبَّب عرقاً، ونستميت في العمل طوال سنتين. أما كتابة مسرحية، فعلى العكس، لا تستغرق أكثر من ثلاثة أسابيع. نسقي صحراء بكوب ماء، ودون كدٍّ أو تعب، فنرى شجرة أبو حباب تنمو».

وستتوالى المسرحيات، وستنقل عدد منها إلى خشبة المسرح، مئات المرات خلال حياة الكاتب ومنها: \ابن لا أحد، و\مالاتيستا، و\سيد سانتاغو، و\بور-رويال، و\كاردينال إسبانيا، وغيرها من الأعمال المسرحية. ولشدة ما اتسعت شهرته بوصفه كاتباً مسرحياً، غطت على مؤلفاته السابقة. وهناك أجيال بحالها لم تعرفه إلا من خلال مسرحياته. ولقد استلهم في بعض مسرحياته التراجيدية شخصيات وأحداثاً من التاريخ الأوروبي، وفصولاً من حياته الشخصية في مسرحيات أخرى؛ وسيحاول حتى في مسرحية \غداً سينبلج الفجر أن يتحدث عن الحرب

العالمية الثانية والاحتلال الألماني. ولم يكن الجمهور يرغب دائماً في سماعه يتطرَّق إلى هذا الموضوع.

وستعرب الأكاديمية الفرنسية عن حرصها الشديد على انضمامه إليها بفضل ما حقق من نجاح في مجال المسرح. كان الجميع على استعداد للتغاضي عن بعض نزواته لشدة حرصهم على انضمامه إلى الأكاديمية. وحتى أعضاء مثل فرانسوا مورياك، ممن كانوا يغتاظون من رؤيته «يحاكي الرومان»، اعترفوا بموهبته الفذة وكانوا حريصين على انضمامه. لقد غاب الكثير من العظماء في مجال الأدب، على مرِّ القرون، عن سجل الجمعية، لأسباب كانت تبدو وجيهة في ذلك الحين ولكنها تبدو تافهة مع مرور الوقت. ولم يشأوا أن يندموا يوماً على أنهم أهملوا أديباً مثل مونترلان.

فاتصلوا به، وتحدثوا معه عن المقعد الذي شغر بوفاة أندريه سيغفريد؛ ووعدوه بانتخاب سهل، بالإجماع أو تقريباً، ودون أن يحتاج إلى القيام بالزيارات المعهودة. وفيما بعد، عندما كانوا يذكِّرونه بذلك، كان يجيبهم أنه أجرى، مباشرة بعد الاقتراع، «خمساً وثلاثين زيارة شكر». لم يكن ذلك صحيحاً بالتأكيد، ولكن من اللباقة الإشارة إلى ذلك.

استغرق عضو الأكاديمية الجديد بعض الوقت لكتابة كلمته. فلقد انتخب في آذار ١٩٦٠، ولكنه لم يُستقبل سوى في حزيران ١٩٦٣؛ ولم يستقبل، بالمعنى الحرفي للكلمة، «تحت القبة». فلقد أكد أنه

يخشى الحشود الغفيرة والأضواء الباهرة والتمس أن يتحدث في إطار لجنة مصغَّرة، ما أعفاه من ارتداء الزي الأخضر وحمل السيف.

كانت الجمل الأولى التي تلفَّظ بها سقيمة بعض الشيء، إنما لا تثير حقاً الاستغراب لمن يعرفونه. «تنصُّ المادة ١٨ من النظام الداخلي للأكاديمية على أن يقوم العضو الجديد، بعد أن يمدح سلفه، - وأقتبس النص - «بتناول موضوع أدبي». ويبدو لي أن لا شيء ملائماً بعد تأبين جنائزي أكثر من تناول الموضوع التالي: الأديب إزاء موته المقبل، الأديب إزاء الموت المقبل لعمله...».

وفي نهاية المطاف، قال إنه آثر أن يدع هذا الموضوع جانباً ويكتفي بالحديث عن سيغفريد، وفعل ذلك بنبرة تراوح بين الذم والمدح، مستهتراً إنما بدون أن يبدي استخفافاً على الإطلاق؛ ولكنه لم يكن مدَّاحاً بصدق كذلك؛ كان يعتمد على الدوام نبرة شبه ساخرة، مثله كمثل من يوجه رسائل مشفَّرة إلى جمهور من الفتية العابثين. فلقد قال مونترلان على سبيل المثال: «أندريه سيغفريد هو رجل الواقع الملموس. إنه يتخبَّط فيه مثلما يتخبط في خليج أنتيب. أرقام، تواريخ، إحصاءات، رسوم بيانية، خرائط، ومن ثم إحصاءات أخرى، ورسوم بيانية أخرى، وخرائط أخرى حول الموضوع نفسه، رُسمت بتاريخ آخر. إننا لا نتعاطى أيها السادة مع شخص تجريدي من تلك التجريدية الخالصة!».

ولقد استغرب الزملاء الذين حضروا كلمته لرؤيته يُخصِّص

بضع دقائق لأول كتاب نشره سلفه عام ١٩٠٤ عن الديمقراطية في نيوزيلندا\. وعلّق الخلف قائلاً : «لم أكن قد سمعت قط من ذي قبل بنيوزيلندا، وأبناء وطني الذين سألتهم عنها لم يكونوا يعلمون أكثر مني: قال لي أحدهم إنها تايلند المعاصرة، وأوضح لي آخر إنها شبه جزيرة تقع شمال فنلندا».

ثم ذكر مونترلان الأسباب التي قرَّر لأجلها ألا يتحدث في نهاية المطاف عن وفاة الأدباء وأعمالهم، قبل أن يعود مرة أخيرة إلى سيغفريد.

«فلنقدِّم له هذه الكياسة الحزينة والأخيرة. لقد فارقناه ونحن نقول إنه لم يتحدث كثيراً عن الموت. وفي نهاية المطاف، لقد مات بدوره... ها هو بعُريه، مثلما سيتراءى في وادي جوزافات، وأقول ذلك لأنه كان مسيحياً. انتهى الفضول، انتهت الطائرات، انتهت الأهمية. وها أنت أقرب مني، سيدي، الذي حللتُ هنا خلفاً له، والذي سأتبعك حيث أنت عما قريب. هناك صداقة ما بعد الموت، كما في صندوق عظام الموتى الذي كان يقضُّ مضجعي في شبابي، حيث تتشابه جميع الأجساد بشدة، وعما قريب، لن يميزوا أحدنا من الآخر، وهو أمر كان من الصعب أن نتصوَّره أثناء حياتنا. ولكي نبلغ ما بلغناه في نهاية المطاف، لم يكن من الداعي أن أضايقك قليلاً في هذه الكلمة».

في الواقع، ربما لم يكن من داع لذلك.

١٨

ذاك الذي كان يكنُّ محبةً للحضارات الهشة

خلافاً لسلفه، لم يكن كلود ليفي-ستروس يشعر بأي نفاد صبر أو ازدراء أمام الطقوس، بل ينظر إليها نظرة رفق تضفي عليها بهاءً، ويمتثل لها مستمتعاً، بل يسعى من خلالها، عن طريق فك طلاسم رموزها القديمة، إلى فهم المجتمعات البشرية، جميع المجتمعات دون استثناء، أشدَّها هزالاً وأكثرها تألقاً.

خلال حفل استقباله تحت قبة الأكاديمية في ٢٧ حزيران ١٩٧٤، سيكرِّس الدقائق العشر الأولى من كلمته لإجراء مقارنة متأنية بين حفل الأكاديمية الفرنسية والطقوس التعليمية التي تمارسها بعض الشعوب من الهنود الأميركيين الأصليين على ساحل المحيط الهادئ في كندا. كان أسلوباً استفزازياً وممتعاً على السواء لإطلاع زملائه الجدد على مبدئه وديدنه ومؤداه أن مهمة العالم الأنتروبولوجي لا تقوم على دراسة المجتمعات «المتوحشة» أو «البدائية» أو «الإغرابية» بل تقوم بكل بساطة على دراسة الإنسان، بتنوُّعه، بالطبع، إنما كذلك وقبل كل

شيء في وحدته الجوهرية التي تتجاوز جميع الاختلافات، لأن الآخر يحمل شيئاً منا، ونحن نحملُ شيئاً من الآخر، ومن المهم أن ندرك ذلك لكي نعرف أنفسنا معرفة فضلى.

أما زبدة ما سيقوله لزملائه المذهولين فهي أن طقوس قبيلتكم الموقرة لا تُنتقص قيمتها بسبب تشابهها مع طقوس هذا المجتمع البشري أو ذاك - الأزلي، والتائه، والفخور بأشكاله التنكرية، بل تكتسب، على العكس، مزيداً من التعليل لوجودها، ومزيداً من النبل، بسبب ذلك. «إنني آتي إليكم، أيها السادة، على غرار الهنود المسنِّين الذين عرفتهم، العاقدين العزم على أن يشهدوا حتى النهاية على الحضارة التي صنعتهم، وإن كانت هذه الحضارة متزعزعة، ولا سيما إذا راق لبعضهم القول إنها محكومة بالاندثار».

اكتسب ليفي-ستروس هذه المحبة للحضارات الهشة منذ الصغر. فقد عاش والداه، عشية ولادته، فترة من الضياع وعدم الاستقرار. كان والده رسام بورتريهات، تأثر فنه بظهور فنٍّ جديد تسبَّب بتقادم فنه كلياً، هو فن التصوير. ولقد قرَّرت الأسرة الانتقال للعيش في بروكسل حيث لم يقلع وجهاء المدينة بعد عن طلب رسم بورتريهات لهم مثلما درجت العادة في الماضي، وهذا ما يفسر ولادة عضو الأكاديمية في بلجيكا وليس في فرنسا، في ٢٨ تشرين الثاني ١٩٠٨.

وطوال مرحلة الطفولة، كان يشاهد والده يستميت للحفاظ على الفن البالغ التبجيل الذي كان يمارسه، والذي جاء اختراع

ثوري ليحكم عليه بالاندثار. فشعر منذ الصغر أن مفهوم التقدم معقَّد ويصعب على الاكتناه، وأن التغيير ليس دائماً بالضرورة تقدُّماً، وأن للتقدُّم نفسه وجهين، الأول مشرق، والثاني قاتم. ولذلك، عندما سافر إلى البرازيل، في السادسة والعشرين، واكتشف فيها شعوب الأمازون التي كانت تصارع يائسة للحفاظ لبعض الوقت بعد على نمط عيشها وعاداتها القديمة، لم ينظر إليها النظرة الباردة التي يلقيها عالم الحشرات على مستعمرة من النمل الأبيض. فلقد تماهى تلقائياً مع أولئك الإخوة البعيدين وتعاطف مع هواجسهم وأشكال معاناتهم. ومن الجدير بالذكر أن المحاضرة العامة الأولى التي ألقاها في ساو باولو عام ١٩٣٥، والذي فُقد نصُّها للأسف، تحمل العنوان التالي: «أزمة التقدُّم».

كان موضوعاً يتلاءم مع ذهنية العصر. فلقد شهد العالم، منذ انهيار البورصة عام ١٩٢٩، أزمة اقتصادية لا مثيل لها، دفعت بعشرات الملايين من الناس إلى البؤس وأفضت إلى انقلابات سياسية كبرى. كانت إيديولوجيات عنيفة تجتذب الجماهير وتُهدِّد بدفع جميع الأمم إلى خوض حرب عالمية جديدة، في حين لم تكد الحرب العالمية الأولى التي كانت مجزرة فظيعة تضع أوزارها. فماذا جرى لكل الوعود بتحقيق التقدُّم؟ ألم يُدفع بالطبقات الوسطى إلى الاعتقاد بأنها لن تعاني الفاقة بعد اليوم؟ أما قيل إن الحرب الكبرى ستكون الأخيرة؟ ألم يغلب الظن أن العلم والصناعة سيأتيان بحلول لجميع مشاكل البشر ويشقَّان بعزم أمامهم السبيل نحو الرخاء؟

اتخذت تلك التساؤلات حتماً أهمية خاصة لدى الباحث الإتنوغرافي الشاب الذي قدم من أوروبا للقاء الشعوب المعروفة بأنها «متوحشة» و«بدائية». وسيتبين بالضرورة لليفي- ستروس الذي كان يتحلى بضمير معنوي حي وبذكاء مرهف أن خطوط الفصل بين «المتحضرين» و«غير المتحضرين»، بين «الأمم المتقدمة» و«الشعوب المتخلفة»، ملتبسة بعض الشيء. وسيقنعه ذلك بعدم الخلط بين «النظرية العلمية لارتقاء الأنواع» و«النظرية الزائفة للارتقائية الثقافية»، ومؤداها أن المجتمعات البشرية تمرُّ بمختلف مراحل التقدُّم، مثلما ينتقل الفرد من الطفولة إلى المراهقة، ثم إلى سنِّ الرشد. ولقد أكد في مؤلفه العرق والتاريخ : «في الحقيقة، لا توجد شعوب طفلة؛ فجميع الشعوب راشدة، حتى تلك التي لم تكتب يوميات طفولتها ومراهقتها».

كتبت هذه المقالة عام ١٩٥٢ بتكليف من منظمة اليونسكو ولغرضٍ طموحٍ للغاية. فلقد تمخَّضت الحرب العالمية الثانية عن حركة سياسية قائمة على العنصرية؛ وحتى بين المنتصرين، كانت فكرة تفوُّق الإنسان الأبيض لا تزال متجذرة بشدة تبريراً للاستعمار أو للفصل العنصري؛ وكانت «منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة» الحديثة النشأة تأخذ على محمل الجد للغاية المهمة التي أنيطت بها في الجملة الأولى لميثاقها، أي «لما كانت الحروب تتولَّد في عقول البشر، ففي عقولهم يجب أن تبنى حصون السلام». وتحقيقاً لهذه الغاية، ارتأت أن تكلف مجموعة من الشخصيات المشهود لها

بالكفاءة والرصانة بكتابة نصوص يمكن أن تشكل ركيزة هذه الرؤية الجديدة للعالم.

***

لم يكن من المستغرب التوجه إلى ليفي-ستروس لأداء هذه المهمة التبشيرية. فبحكم مسيرته ورهافة إحساسه وسعة اطلاعه، كان الرجل المناسب لأدائها.

وبعد أن أمضى أربع سنوات في دراسة المجتمعات الأمازونية، عاد إلى باريس عام ١٩٣٩، وعُيِّن على الفور أستاذاً للفلسفة في ثانوية هنري الرابع المرموقة. ولكنه لم يستطع قطّ الالتحاق بوظيفته. ففي مطلع أيلول، كان قد استدعي لخدمة العلم قرب خط ماجينو الذي يتمتع بشهرة بائسة. في الأشهر الأولى، اندلعت تلك «الحرب الغريبة»: فبينما كانت ألمانيا النازية تهاجم شرقاً، انتظرت الجيوش الفرنسية، عوضاً عن مباغتتها غرباً، أن تنهي هجومها وأن تعود لمهاجمتها. وحصل التشتُّت في الحال. وانسحب فوج الجندي ليفي-ستروس، وتاه لبعض الوقت على الطرقات قبل أن يصل إلى ثكنة عسكرية في مونبلييه، منهكاً، تائهاً، متبطلاً.

فوقع عندئذ مشهد مذهل سيستمتع العالم الأنتروبولوجي الطاعن في السن بسرده مبتسماً، ولكنه يدلُّ على ذهنية العصر التي بوسعها أن تجرَّ أوخم العواقب. كانت الهدنة قد وُقِّعت، فاعتبر ليفي-ستروس أنه قد حان الوقت ليلتحق مجدداً بوظيفته كأستاذ في ثانوية هنري الرابع. كانت البلاد منقسمة إلى منطقتين: النصف الشمالي الذي يشمل

باريس ويخضع مباشرة للاحتلال الألماني، والنصف الجنوبي الذي كان «حراً» من الناحية الاسمية ويخضع لسلطة «الدولة الفرنسية» التي يديرها الماريشال بيتان. وكان الأستاذ بحاجة إلى إذن خاص من وزارة التعليم الوطني للعودة إلى ثانويته. فذهب إلى فيشي التي اختارها الماريشال عاصمة موقتة. «كانت الوزارة قد اتخذت لها مقراً في مدرسة ابتدائية، ومديرية التعليم الثانوي كائنة في فصل دراسي. رمقني المسؤول مشدوهاً: «أتريد أن تذهب إلى باريس بالاسم الذي تحمله؟ لا تفكِّر في ذلك!». وفي هذه اللحظة فقط، بدأت أفهم ما يجري».

وكان يبرِّر ذلك «التهور التام» الذي يعترف به عن طيب خاطر، ويسخر منه، إنما الذي كان يمكن أن يقوده إلى معسكرات الموت، بأنه انغمس انغماساً تاماً في عالم الهنود الأميركيين الأصليين، وبأن أنباء القارة القديمة لم تكن تصل إليه أو تكاد لا تصل. «علمتُ باتفاقات ميونيخ في منطقة حوض الأمازون، لدى عثوري على صحيفة قديمة مرمية أرضاً في كوخ أحد الباحثين عن المطاط». وذكر أيضاً أسباباً أخرى منها انهماكه في تصنيف مجموعاته من الأدوات الإتنوغرافية، وانفصاله عن زوجته الأولى، أو افتقاره إلى «ذهن سياسي». ولكنه لم يكن يذكر على الإطلاق السبب الذي يبدو الأكثر بداهة للمراقب الخارجي وهو رغبته الفرنسية الخالصة، والجمهورية الخالصة، والعلمانية الخالصة، بعدم تحديد هويته انطلاقاً من دين أجداده، وعدم السماح لهذا العامل بالتأثير في حكمه. ولقد استغرق وقتاً للقبول بأن

الإنسان ليس حراً تماماً في تحديد هويته، وأن نظرة الآخر تساهم في تحديدها إلى حد كبير، وأحياناً بطريقة مأسوية.

ولحسن حظ ليفي- ستروس، عثر على أشخاص صانوه من عواقب تعاميه الشديد النبل، مثل ذلك الموظف من فيشي الذي جنَّبه، لأسباب محمودة أو مذمومة، الذلّ وربما الموت، ولا سيما الأصدقاء الذين نشطوا في تلك السنوات المظلمة لإدراجه في برنامج لمؤسسة روكفلر يرمي إلى إنقاذ عدد من العلماء الأوروبيين المهدَّدين بحملات الاِضطهاد، وإلى توظيفهم في الجامعات الأميركية.

وكان هذا البرنامج بمثابة خشبة خلاص؛ فلم يحمه من النوائب التي كانت ستنوء على كاهله لو بقي في فرنسا فقط، بل أتاح له، علاوة على ذلك، أن يتعرَّف إلى أعظم علماء عصره، وبالأخص الإتنوغرافيين والألسنيين، فاستطاع تطوير إمكانياته في غضون بضع سنوات.

وأصلاً، بصرف النظر عن الحالة الخاصة التي يمثلها ليفي- ستروس، سيخلِّف رحيل العلماء الأوروبيين إلى الضفة الأخرى من المحيط الأطلسي، لا سيما منذ وصول النازيين إلى سُدَّة الحكم في ألمانيا عام ١٩٣٣، آثاراً دائمة على الصعيد العالمي. ففي تلك السنوات، كان مركز الجاذبية الفكرية والعلمية للكوكب قد انتقل من أوروبا إلى الولايات المتحدة. وفي فترة وجيزة للغاية، أصبحت جامعات هذا البلد الموقع المميز للابتكار والتفوُّق، في جميع الاختصاصات، واقترن ذلك بنتائج اقتصادية وسياسية وعسكرية هامة. وتعتبر حالة ألبرت أينشتاين الذي غادر برلين للالتحاق بجامعة برنستون بصورة

نهائية، في ولاية نيو جرسي، الأكثر رمزية؛ ولكن هناك مئات، بل آلاف العلماء الآخرين، في جميع ميادين العلم.

كان وجود ليفي-ستروس وهو في الثانية والثلاثين، وحتى سن الأربعين، في بيئة محفِّزة على هذا النحو، فرصة لم يكن يحلم بها. ولدى عودته من البرازيل، لم يكن قد نشر شيئاً بعد تقريباً، ولو كانت مسيرته المهنية بوصفه حائزاً شهادة التبريز في الفلسفة قد اتخذت المنحى الذي توقعه وتمناه، لكانت مغامرته الأمازونية ظلت بمثابة حدث يثير الفضول في مسيرته. ولقد أعطاه التاريخ، إذ زعزع أعماق أعماقه، الفرصة لكي يُخرجَ أفضل ما عنده.

ولن يعود من نيويورك عام ١٩٤٨ إلا بعد تأليف كتابه البنى الأولية للقرابة، وهي دراسة كرَّست على الفور شهرته بوصفه عالماً إتنوغرافياً مرموقاً، ونشأت بفضلها جزئياً حركة فكرية واسعة، هي البنيوية، التي ستعتبر ليفي- ستروس أبرز ملهميها. ولن يرغب هو على الإطلاق في أن يكون حامل لواء تيار فكري، وكان مفهوم «البنية» من وجهة نظره أداةً للبحث، وليس أساس مذهب. ولشدة ما عرف الاحتفاظ بمسافة مع البنيوية، لن تتأثر صورته مطلقاً لدى أفول نجمها.

***

ففي عام ١٩٥٢، إذن، عندما طرحت منظمة اليونسكو مشروع إصدار سلسلة من الكتيبات الرامية إلى دحض الأفكار المسبقة العنصرية، كان ليفي-ستروس يبدو المؤلف المثالي. فلقد عانى شخصياً العنصرية، لأنه اضطر إلى العيش في المنفى لمجرد أنه

يحمل اسماً يهودياً؛ وكان يتمتع بالمصداقية العلمية اللازمة لتناول هذه المسائل بحُجِّية. وبالإضافة إلى ذلك، لم يكن اهتمامه بالمسألة أكاديمياً صرفاً. فالأنتروبولوجيا، كما أوضح في كثير من الأحيان في مؤلفاته، ليست بالنسبة إليه مجرد مبحث علمي من بين مباحث علمية أخرى، بل «نقطة اختتام موقف فكري ومعنوي نشأ منذ قرون عديدة ونطلق عليه اسم المذهب الإنساني». فانكبَّ على المهمة التي كُلِّف بها بدقة وشغف على السواء.

وخلافاً للكتيبات الأخرى التي طلبت المنظمة تأليفها للغرض نفسه، حقَّق كتيب العرق والتاريخ نجاحاً مدوياً، وأثار لغطاً وجدالاً، لا سيما المناظرة بين الكاتب وأحد الذين سيصبحون زملاءه في الأكاديمية الفرنسية، وهو روجيه كايوا.

كان كايوا شخصية فكرية موقرة في تلك السنوات، وروائياً، وشاعراً، وكاتب مقالة وباحثاً اجتماعياً، ومن الخبراء في أميركا اللاتينية، ويشغل ، علاوة على ذلك، منصب مدير منظمة اليونسكو، وكان بوسع المرء الاعتقاد أنه سيؤيد الأفكار التي أعرب عنها ليفي-ستروس. ولكنه أظهر استياءً بسبب ما تراءى له تنكراً للغرب. وفي مقالة طويلة تحمل عنوان العد العكسي للأوهام صدرت في المجلة الفرنسية الجديدة، سخر من الذين «اختاروا الإتنوغرافيا لأن رغبةً في التحدي لا تقاوم كانت تدفعهم إلى تفضيل الأشكال البدائية على بوابة شارتر، وموسيقى الجاز على موزارت، والاختلاجات التي يسببها استحواذ الجن التي لا يؤمنون بها على عبادة إله لا يؤمنون به كذلك،

ولكن خطأه أنه إله أجدادهم، وهو إله يخجلون من أنهم آمنوا به»، قبل أن يختتم قائلاً: «لشدة ما ظلموا حضارتهم، نسوا أنها حتى الساعة الوحيدة التي أنتجت الظروف المادية والروحية لما يقومون به من أبحاث، والوحيدة التي تجيز وتولِّد حضارة جحودهم».

كان كايوا يريد أن يكسب تأييد الساخرين، ولقد نجح في ذلك. فردَّ عليه ليفي-ستروس الذي اتهم بالاسم، في مجلة \الأزمنة\المعاصرة التي يشرف عليها جان-بول سارتر، رداً جامحاً: «كان ديوجين يبرهن الحركة وهو يمشي، والسيد كايوا يرقد لكي لا يراها. إنه يرجو على هذا النحو أن يحمي من أي تهديد تأمله المغتبط لحضارةٍ - هي حضارته - لا يجد ضميره ما يلومها عليه».

وبصرف النظر عن احتجاجات الكاتبين وحيلهما، تصدَّرت سجالهما مسألة تاريخية ومعنوية ما زالت مطروحة، ويمكن إيجاز مضمونها كما يلي: في أيامنا الراهنة، لا جدال في أن هناك حضارة، هي حضارة الغرب، أصبحت الحضارة المرجعية بامتياز للبشرية جمعاء، وفي أن صعودها أدى إلى تهميش جميع الحضارات الأخرى، وأحياناً إلى إلغائها؛ ويبقى أن نعلم ما إذا كان القيِّمون على الحضارات المهزومة قد حصلوا، مادياً وفكرياً، على ما يعوِّضون به عما فقدوه من ناحية الهوية وأسلوب العيش. إنه سجالٌ يستمر، وسيستمرُّ طويلاً، بأشكال شتى، لا سيما بشأن معرفة ما إذا كانت حصيلة الاستعمار بالأمس أو العولمة حالياً يجب أن تعتبر إيجابية أو كارثية بصفة عامة.

ويرى كايوا أن ما قدَّمه الغرب من إسهام لمجمل البشرية كان

فريداً، وشمل ميادين كثيرة، ولا بد أن يكون المرء نكداً أو مدفوعاً بكراهية الذات، لكي لا يسلِّم بذلك؛ فيما اعتبر ليفي-ستروس أن من غير المقبول أن تجيز حضارةٌ لنفسها، وإن كانت حضارته، وإن كانت أكثر الحضارات إشراقاً، سحق الحضارات الأخرى على طريقها براحة ضمير. كيف يسعنا أن نبقى هكذا في «تأمل مغتبط»، ولدينا في قلب أوروبا الدلالة على البربرية التي يعجز الخيال عن تصورها لأولئك الذين ينادون بإصرار شديد بتفوُّق الغرب والعرق الأبيض؟ ولقد كتب يقول: «البربري هو الإنسان الذي يؤمن بالبربرية»، فردَّ عليه معارضه: «هذه الجملة إنما تحوِّل فقط الإغريق والصينيين إلى برابرة بامتياز، نظراً لأنهم حدَّدوا أنفسهم بوصفهم المتحضرين بالمقارنة مع الهمجية السائدة من حولهم، التي يُعترف لهم رغم كل شيء بالجدارة والعظمة لارتقائهم عليها».

واستمرَّ السجال بين الرجلين بضعة أشهر على مرأى ومسمع من المفكرين الفرنسيين المهتمين لا سيما وأن البلد كان يعيش وسط أنواء حقبة إلغاء الاستعمار: فقد خسرت فرنسا الهند الصينية بعد هزيمتها في ديان بيان فو، وبدأت في الجزائر انتفاضة دعاة الاستقلال. ثم صمت الجدل لا بسبب مصالحة، ولا حتى بدافع السأم، بل لأن كتاباً صدر في تلك الفترة، بعنوان مدارات حزينة، وبدَّل صورة ليفي- ستروس ومكانته، وجعله، بين عشية وضحاها، أكثر مناعة من أن يتعرَّض للنقد.

ومع ذلك، كان بوسع هذا العمل كذلك أن يجلب لمؤلفه الانتقادات نفسها التي جلبها له كتيب العرق والتاريخ. فلقد جاهر

فيه، وبقدر من الحماسة لم تفتر، بمحبته للمجتمعات الأمازونية «التي أطاحها تطوُّر الحضارة الغربية، هذه الرزية الفظيعة وغير المفهومة بالنسبة إلى جزء كبير وبريء للغاية من البشرية». وقال إن هذه الحضارة، «التي أبدعت روائع نستمتع بها»، لم تنتجها دون مقابل. وأوضح قائلاً: «تميط الرحلات اللثام أمامنا أولاً عن قذارتنا التي نسفحها في وجه البشرية». وكان يدعو السياح إلى الامتناع عن الذهاب إلى منطقة حوض الأمازون. «خصِّصوا لآخر المواقع في أوروبا أوراقكم المشبعة بالدهون، وقواريركم غير القابلة للتلف، وعلب مأكولاتكم المحفوظة المبقورة. واحترموا الشلالات المتموِّجة بزبدٍ طري التي تسيل واثبة على المدرَّجات المحفورة في السفوح البنفسجية للصخور البازلتية، إلى أن تنتهي المدة القصيرة للغاية التي تفصلنا عن تدميرها النهائي».

كان الكاتب الذي انتقد الحضارة الغربية بشدة، ينتهج الموقف المتشدِّد نفسه من الحضارة الإسلامية التي أصبح على تماس معها عندما كلفته منظمة اليونسكو بمهمة في باكستان عام ١٩٥٠. وبما أنه لم يكن شخصاً يتكلم لغة خشبية، ولا مؤيداً لما سيُسمَّى لاحقاً «اللياقة السياسية»، أعرب في كتابه بالضبط عن حقيقة مشاعره.

وتتميز مقاربته بأنها وضعت مساوئ العالم الإسلامي على الدوام في موازاة مساوئ العالم الغربي: «إزاء الشعوب والثقافات التي مازالت تخضع لنا، إننا سجناء التناقض نفسه الذي يعانيه الإسلام في مواجهة من هم تحت حمايته وسائر العالم. إننا لا نتقبَّل ألا يُقدِّس غيرنا مبادئ كانت صالحة لضمان ازدهارنا... وعلى هذا النحو، الإسلام الذي

ابتكر التسامح في الشرق الأدنى لا يغفر لغير المسلمين عدم التنكر لدينهم من أجل اعتناق الإسلام، لأنه ديانة تتفوق على جميع الديانات الأخرى تفوقاً ساحقاً يقوم على أنها تحترم تلك الديانات».

وما يثير المزيد من الدهشة ذلك الاقتراح الذي يطرحه في الفصل الأخير من مدارات حزينة، ولشدة ما يبدو اليوم أنه اقتراح لا يُعقل، أضافت الطبعات اللاحقة، منذ سنوات عديدة، حاشية لليفي-ستروس في أسفل الصفحة تقول: «فكرة من قبيل المغالطة التاريخية، مثل أفكار عديدة غيرها؛ ولكن لا ننسى أن تأليف هذا الكتاب كان عام ١٩٥٤». وذلك الاقتراح مؤداه أن تدمج فرنسا التي كان عدد سكانها يبلغ آنذاك خمسة وأربعين مليون نسمة في صفوف سكانها الخمسة وعشرين مليون مسلم الموجودين في إمبراطوريتها الاستعمارية، «على أساس المساواة في الحقوق». وقال إنها، لو جرؤت على القيام بذلك، «فلن تكون خطوتها أكثر جرأة من تلك التي جعلت أميركا لا تكتفي بالبقاء مجرد مقاطعة صغيرة من العالم الأنجلوساكسوني. فعندما قرَّر سكان نيو إنغلند منذ قرن أن يأذنوا بمجيء المهاجرين الوافدين من أنأى مناطق أوروبا وأشدِّ الطبقات الاجتماعية حرماناً، وأن يدعوا هذه الموجة تجتاحهم، فقد راهنوا رهاناً كان ما هو على المحك فيه موازياً لخطورة ذاك الذي نرفض أن نجازف بالقيام به، وربحوا هذا الرهان».

هل كانت تلك المقامرة ستؤدي إلى انهيار فرنسا؟ هل كانت ستتيح لها، على العكس، أن تبدِّل أحوال العالم الإسلامي وتُجنِّب على هذا النحو البشرية جمعاء الفظائع التي تشهدها في أيامنا المعاصرة؟ لن

نعرف ذلك مطلقاً. ويشهد هذا الاقتراح العجيب بالأخص على جرأة المفكر وحسن نيّاته، وكذلك على سذاجته النبيلة.

وفي جميع الأحوال، لم يُثر اقتراحه أيَّ جدال يذكر. كان في كتاب مدارات حزينة نفسٌ وحماسةٌ ولطافةٌ تجعل أيَّ سجال من هذا النوع بلا طائل.

***

سيُلمِّع هذا العمل اسم ليفي-ستروس نوعاً ما ويبدِّل شخصيته، وهذا ما يثير الاستغراب لا سيما وأنه قد ألَّفه بدافع الاستياء بل بدافع اليأس تقريباً.

فبعد عودته من إقامته الطويلة في الولايات المتحدة، وإصدار كتاب البنى الأولية للقرابة، حاول، لسنتين على التوالي، أن يحصل على كرسي أستاذ في كوليج دو فرانس، وباءت محاولاته بالفشل مرتين. فقرَّر، وقد استشاط غضباً وامتلأ مرارة واقتنع بأنه ليس لديه أي مستقبل في العالم الأكاديمي وبالتالي لا شيء يفقده، أن يقول بلا تحفظ كل ما يضنيه، ومنذ السطر الأول: «أكرهُ الرحلات والمستكشفين».

رافقته فقط آلته الكاتبة وزوجته مونيك التي كانت تعيد قراءة ما يكتبه شيئاً فشيئاً، وكتب دفعة واحدة، خلال ستة أشهر، ذلك النص الطويل المتشعِّب الذي هو عبارة عن نص تأملي وكتيِّب جدلي ويوميات مسافر واعتراف بالحب للكوكب أجمع ومعاينة مستنكرة لما أصابه من تدهور.

وسيفتح له هذا الكتاب جميع الأبواب التي كان يظنُّ أنها أوصدت

في وجهه إلى الأبد. ففي عام ١٩٥٩، سيدخل منتصراً إلى كوليج دو فرانس ويؤسس فيه على الفور «مختبر الأنتروبولوجيا الاجتماعية».

ويستحق مصطلح «مختبر» أن نتوقَّف عنده لأنه يكشف الطموح الحقيقي لليفي- ستروس، ذاك الذي كان يكتسب في نظره أهمية مطلقة، ولكنه كان يأسف لأن معظم الناس لم يتبيَّنوه بعد. وفي الواقع، كان يبدي انزعاجه حين يتحدث عنه الآخرون بوصفه «شاعراً»، على غرار كلود برنار الذي كان يبدي انزعاجه، قبل قرن، عندما يوصف الطب بأنه «فن». فبالنسبة إلى هذا السلف البعيد، لا بد من مقاربة المبحث العلمي الذي يمارسه بوصفه علماً قائماً بذاته يشتمل على اختبارات وأعمال تحقُّق وقوانين. وكان ليفي-ستروس يشاطره الهمَّ نفسه، في مجاله. ولهذا السبب تحديداً، أراد أن يسمي معهد الأنتروبولوجيا الذي يديره «مختبراً».

من وجهة نظره، كان لا بد من أن تتحول العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية إلى علوم حقيقية، في حين أنها اكتفت حتى الساعة بانتحال هذه التسمية. فبالنسبة إلى علاقات القرابة، على سبيل المثال، أو اللغة، أليس من الممكن إرساء قوانين شاملة، ما دام الأمر يتعلق باستعدادات ذهنية فطرية لدى الإنسان وسابقة لأي مجتمع معين؟

غير أن ليفي-ستروس كان يريد أن يذهب أبعد من ذلك، بل أن يتخطى ذلك بكثير. فكتب يقول: «إنني مقتنع أن المجتمعات البشرية، مثل الأفراد – في لهوهم، وأحلامهم أو في هذياناتهم – لا يخلقون أبداً

بصورة مطلقة، بل يكتفون باختيار بعض التشكيلات في سجل مثالي من الممكن إعادة تشكيله». ولدى القيام بجرد لجميع العادات التي عاينها، وجميع العادات المتخيَّلة في الأساطير، «ستتمكن من وضع جدول دوري مثل جدول العناصر الكيميائية، ترد فيه جميع العادات الحقيقية أو الممكنة فقط مصنَّفةً في فئات، وما علينا سوى أن نميز تلك التي اعتمدتها المجتمعات فعلياً».

إذا لم تكن هذه الرؤية وهماً، فإنها تمثل أكثر المشاريع طموحاً وإبهاراً التي بوسع باحثٍ أن يضعه. ولقد انكبَّ على هذه المهمة على وجه التحديد.

ولذلك، بوسعنا القول إنه كان ضحية سوء تفاهم استمرَّ طوال حياته وبعد مماته. فما استهوى قراء أعماله، ولا سيما أبناء وطنه، هو الكاتب أولاً - لغته، أسلوبه، نفسه، لطافته، وكذلك ثقافته الأدبية والفنية، ثم المفكِّر في المقام الثاني، والعالم في المقام الأخير. أما هو فكان يعتبر أن المشروع العلمي يجب أن يأتي في المقام الأول.

وهذا «التدرُّج» سينعكس في الأكاديمية الفرنسية نفسها عندما قدَّم ترشيحه لشغل المقعد التاسع والعشرين بعد انتحار مونترلان. لقد كسب ليفي-ستروس تأييد أغلبية الأعضاء بفضل قلمه؛ واستقطب بفضل آرائه بعض التأييد إنما كذلك الكثير من التحفظ؛ أما أبحاثه العلمية فلقد أثارت فضولاً لبقاً عند البعض ولامبالاةً عند البعض الآخر.

وجاءت نتيجة الاقتراع كما يلي: ١٦ صوتاً مؤيداً و١٠ أصوات

تعلوها علامة الصليب، أي أصوات معارضة لانتخابه. فكان فوزه في انتخابات الأكاديمية فوزاً مشرِّفاً، ولكن سمة الانتصار فيه أقل مما كان متوقعاً، أو بعبارة أخرى: عندما عاش المرء في فرنسا أواخر القرن العشرين وأوائل القرن الحادي والعشرين، وتسنى له أن يراقب الشهرة الواسعة التي كان يتمتع بها ليفي-ستروس واعتزاز زملائه كلما ذكروا اسمه، لا يسعه أن يتخيل أن انتخابه لم يكن تأييداً بالإجماع.

ولم يمرَّ استقباله الرسمي بسكينة كذلك. فبطلبٍ من عضو الأكاديمية الجديد، كُلِّف خصمه القديم روجيه كايوا بالرد على كلمته. كانت فكرة نبيلة، وتنمُّ عن رقي معنوي بالغ. غير أن الخطيب، وقد شاء أن يعلن وضع حد نهائي لخلافهما، رأى من المفيد أن يعيده بإيجاز إلى ذاكرة الحضور، ولكنه لم يستطع أن يفعل ذلك بتجرُّد. «في عام ١٩٥٢، قمتَ، بتكليف من اليونسكو وربما في عجالة أكثر من اللازم، بتأليف كتيب بعنوان العرق والتاريخ طرحت فيه بشأن تكافؤ الحضارات أطروحات ستصبح مألوفة لديك ولكنها تعرب عن جحودٍ إزاء التقاليد والمباحث العلمية التي درستَ في كنفها. ولقد أثير بيننا خلاف بسبب هذا الكتيب أعترف اليوم أنني بادرت به. كنت أنظر بعين الإكبار إلى صواب كل حجة من حججك، ولكنني كنت أعترف بأنها لا تبدو لي على الإطلاق متوافقة فيما بينها، فتأثر بذلك تعليلك المنطقي أحياناً. وكان ردُّك عليَّ بنبرة واستفاضة وقوة وباللجوء إلى أساليب جدلية قلما عهدناها في السجالات الفكرية، فأثار ذلك ذهولي في تلك الفترة».

وسرعان ما طوى النسيان كل هذه الضجَّة، علامات الصليب الرافضة والعتب، وما إلى ذلك. فعلى هذا النحو، تستمرُّ مؤسسة عبر القرون، بفضل النسيان والذاكرة على السواء. وسواء انتخب المرء من الجولة الأولى أو بعد عدة هزائم على غرار فكتور هيجو؛ وسواء انتُخبَ بفارق صوتٍ أو بالإجماع؛ ففي اللحظة التي ينجح فيها ويجد نفسه ضمن المؤسسة، يصبح كل ما سبق من قبيل النوادر والوقائع. ويُلفي نفسه فجأة وريثاً لمقعدٍ وسلفٍ بل لسلالة تشكلت على هوى الوفيات والاقتراعات والمؤامرات والظروف الأدبية أو السياسية أو ظروف أخرى.

واعتبر ليفي- ستروس في الكلمة التي ألقاها في ذلك اليوم أن من المهم تذكير زملائه بأن استقباله في الأكاديمية مقترنٌ بشرط البنوَّة: «إنكم تمنحون كل عضو من أعضائكم سلالةً تتألف من جميع الذين جلسوا، منذ ما يقرب من ثلاثة قرون ونصف القرن، على المقعد الذي سيشرِّفني أن أشغله؛ إنها سلالة متخيَّلة جزئياً، ولكن الباحث الإتنولوجي يعلم أن الأمر كذلك بالنسبة إلى السلالات التي يمضي لاستقائها إلى أقاصي الأرض، حالما تضرب جذورها في أعماق التاريخ أكثر بقليل».

***

وسيعيش الشخص الثامن عشر الذي شغل هذا المقعد عمراً مديداً أكثر من أي عضو في الأكاديمية قبله، وذلك حتى ٣٠ تشرين الأول ٢٠٠٩، قبيل عيد ميلاده الواحد بعد المائة. كان يحظى بالتقدير والتوقير، ويتلقى التكريم تلو الآخر، ويتربَّع نوعاً ما على عرش، ولكنه

يتعرَّض بين الحين والآخر لسهام النقد، من جانب أولئك الذين يعيدون النظر في المناهضة الشديدة والمنهجية للعنصرية التي كان حامل لوائها، وكذلك، على نحو متزايد، من جانب أولئك الذين انتقدوا، على العكس، «غلوّ نزعته المحافظة»، وكونه صرَّح ، على سبيل المثال، في إحدى المحاضرات، أن «كل حضارة، لكي تكون أصيلة وتحافظ إزاء الحضارات الأخرى على الفروق التي تتيح لبعضها الاغتناء ببعضها الآخر، يجب أن تكون مخلصة لنفسها إخلاصاً تدفع ثمنه بعدم إعارة أذن صاغية لقيمٍ مختلفة».

وفي الواقع، حصل لديه تبدُّلٌ في المنظور بالمقارنة مع الفترة التي كتب فيها العرق والتاريخ. ففي خمسينيات القرن العشرين، غداة الحرب العالمية الثانية وفي مستهلِّ حقبة الاستقلال، كان يرغب في أن يقول على وجه الخصوص: يحقُّ لنا جميعاً أن نتمتع بالكرامة على قدم مساواة، ولا أحد يجدر به التبجُّح بأن حضارته تتفوَّق على الحضارات الأخرى. وفي فترة لاحقة من حياته، انصبَّ هاجسه على خطر آخر اعتبره أكثر ضرراً وهو خطر التجانس المتفشي. ولم يغبْ هذا الخطر يوماً عن باله، ودفعه إلى أن يكتب باستنكار: «البشرية تختار الثقافة الأحادية، وتستعد لإنتاج الحضارة بالجملة، مثل الشمندر، وستقتصر وجباتها اليومية على هذا الطبق».

من وجهة نظره، لا تستحقُّ أي حضارة - أي مجتمع، أية قصة، أية لغة، أي فن- أن تندثر، لا على ضفاف نهر الأمازون، ولا على ضفاف نهر السين.

خاتمة

خلال الأبحاث التي قمت بها عن الأشخاص الذين سبقوني في هذا المقعد منذ عام ١٦٣٤، كنت ممزقاً على الدوام بين رغبتين متناقضتين. فمن جهة، اعتبرت أن دوري لا يجب أن يقتضي مني ردّ الاعتبار إليهم، وتلميع أكثر دروعهم كمداً، من منطلق «البرّ بالوالدين» وأنه يجدر بي الالتزام بدور المؤرخ المحايد. غير أنني لم أكن لامبالياً، من جهة أخرى، بهذه «السلالة المتخيَّلة جزئياً» التي كانت تشدُّ أواصرنا، وفق تعبير كلود ليفي-ستروس. كنت أشعر بنفسي مدفوعاً إلى النظر إليهم بعين المودة، دون أن تساورني الرغبة في الدفاع عنهم بأي ثمن، وبالأخص المنبوذين منهم، وغير المفهومين، والمنسيين.

ينتمي بعض أولئك «الأسلاف» دون أيما شك إلى تلك الفئة التي أطلق عليها جول رونار في يومياته اسم «العاديون من بين الخالدين»، وليس من المجدي تحويلهم، في مرحلة متأخرة، إلى عباقرة مغمورين. غير أن الكثيرين منهم يستحقون بأن يتعرف إليهم الجمهور معرفة أفضل، وجميعهم، دون استثناء، يستحقون بأن يعتبروا - بحكم ظروف

انتخابهم أو وطبيعة أعمالهم أو أحداث حياتهم - صورة معبرٍّة عن القرن الذي عاشوا فيه.

ولذلك، اقتضى الأمر مني، عوضاً عن الانسياق وراء عظمة مونترلان أو خمول ذكر كايافا، أن أرى في كل واحد ممن تعاقبوا على شغل المقعد الشاهد الثمين والزائل لتاريخ يتجاوزه ويتجاوزنا جميعاً. إنه تاريخ يتألف من ١٨ فصلاً، إذا جاز القول، أو من عبور للقرون في ثماني عشرة مرحلة، كل منها برفقة «متنزِّه» مختلف.

جلس الواحد منهم تلو الآخر على المقعد التاسع والعشرين. وعرفوا حقب العظمة أو الرعب، التشدَّد الديني أو عصر التنوير، والملاحم، وفترات الضياع، والهزائم. ثم رحلوا، بعد أن خلَّفوا أو لم يخلِّفوا وراءهم آثاراً، بينما كانت باريس وفرنسا وأوروبا والبشرية جمعاء تشهد تحولات بارزة.

وتلك هي القصة المديدة التي شئتُ أن أسردها انطلاقاً من هذا المقعد الخشبي الذي أجلس فيه بدوري لبعض الوقت.

شكر وملاحظات

لا يسعني على الإطلاق أن أذكر كل المراجع التي أتاحت لي إنجاز هذا العمل، فهي تحصى بالمئات، سواء أورقية كانت أم إلكترونية، وإنني أعرب عن امتناني لمؤلفيها، ولقد رحلوا بأغلبيتهم، أو للأشخاص الذين أتوا على ذكرها أمامي.

لقد قمت بجزء من أبحاثي في مكتبة المعهد الفرنسي وفي قسم المحفوظات التابع لها. وكان بوسعي أن أنسى نفسي لسنواتٍ في ذلك المكان الذي يُعتبر جنةً حقيقيةً لشخصٍ شغوف بالتاريخ. وإنني أريد أن أعرب في هذا المقام عن خالص امتناني لجميع الذين استقبلوني هناك بكياسة وكفاءة على السواء، وأن أخصَّ بالشكر ميراي باستورو التي نظَّمت معرضاً مكرَّساً للمقعد التاسع والعشرين في عام ٢٠١٢، فجمعت بهذه المناسبة عدداً كبيراً من الوثائق التي واكبتني طوال هذا العمل.

وفي الصفحات التي تلي، أود أن ألقي إضاءة إضافية على الفصول الثمانية عشر التي يتألف منها هذا الكتاب للإجابة عن أسئلة قد تتبادر إلى أذهان بعض القراء؛ ولتوفير بعض العناصر البيليوغرافية؛

ولإظهار امتناني لبعض الذين ساعدوني؛ ولاقتراح مسارات بحثية على الأشخاص الذين يريدون أن يعرفوا المزيد.

١ – عن بيار باردان (Pierre Bardin) (حوالى ١٥٩٥-١٦٣٥).

- حتى لو كان هذا الكتاب مخصَّصاً لمقعد من المقاعد الأربعين، استوجب الأمر أن أطلع على ماضي الأكاديمية برمته أي على نشأتها، وتطورها، ولحظات خوفها أو عظمتها، ومعضلاتها. ومن بين المؤلفات التي رجعت إليها حول هذا الموضوع، استفدت استفادة جمة على وجه الخصوص من خمسة مؤلفات وهي:

قرون من الخلود لهيلين كارير دانكوس، الصادر عام ٢٠١١ عن دار فايار للنشر؛ والسيدة العجوز في رصيف كونتي للدوق دو كاستري، الصادر عام ١٩٧٨ عن مكتبة بيران الأكاديمية؛ وتاريخ الأكاديمية الفرنسية لبول بليسون، الذي صدر عام ١٦٥٣ واستكمله الأباتي دوليفيه عام ١٧٣٠؛ وصالون الخالدين للويس- برنار روبيتاي، الصادر عام ٢٠٠٢ عن دار دونويل للنشر؛ ووقائع الانتخابات في الأكاديمية الفرنسية لألبير روكسيل، الصادر في باريس عام ١٨٨٨.

- لفت جان-كريستوف روفان انتباهي، لدى استقبالي تحت قبة الأكاديمية في ١٤ حزيران ٢٠١٢، إلى أن أوّل من شغَل

المقعد التاسع والعشرين قضى غرقاً وهو يسعى جاهداً لإنقاذ تلميذه؛ فلقد فطن، لأنه يعرفني حقَّ المعرفة، إلى أن مصير من سبقوني يثير اهتمامي. فبادرني قائلاً: «أنت الذي تعشق الأسلاف، ها أنت ترثُ ثمانية عشر منهم». ولقد صدرت كلمته وكلمتي عن دار غراسيه للنشر عام ٢٠١٤.

- بفضل كاترين فيفر دارسييه، القيِّمة على إدارة محفوظات المكتبة الوطنية الفرنسية، تيسَّر لي الاطلاع على نصِّ الخطبة التي ألقاها باردان أمام زملائه في ٢١ أيار ١٦٣٥، قبل وفاته بثمانية أيام، وهي بعنوان في الأسلوب الفلسفي.
- أغتنمُ الفرصة لتوجيه تحية إلى مشروع غاليكا الذي ترقِّم المكتبة الوطنية الفرنسية في إطاره عدداً كبيراً من المؤلفات القديمة التي يتعذَّر توافرها بنسخة ورقية. وكان الرجوع إلى هذه النصوص، وإلى النصوص المرقّمة بفضل محرِّك البحث غوغل، إلى جانب النصوص التي أعاد مشروع Wikisource إصدارها وإتاحتها إلكترونياً، بمثابة عونٍ دائم لي في أبحاثي عن أدباء القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر.
- لأغراض إعداد هذا الفصل، وبعض الفصول الأخرى، اعتمدت كثيراً على ثلاثة كتب لمارك فومارولي وهي: عصر البلاغة، الصادر عام ١٩٨٠ عن مكتبة دروز؛ وقبة الأكاديمية، الصادر عام ١٩٨٦ عن دار غاليمار للنشر؛

وجمهورية \الآداب، الصادر عام ٢٠١٥ عن دار النشر نفسها.

٢ -عن نيكولا بوربون (Nicols Bourbon) (حوالى ١٥٧٤-١٦٤٤).

- الملاحظة بشان «بوربونيوس... الذي لم يكن يجيد سوى اللاتينية»، مصدرها \أقاصيص جدعون تاليمان دي ريو التي صدرت طبعتها الأولى عام ١٦٥٧- وهو عمل ممتعٌ وتثقيفي، وإن كان لا يشكل دائماً مرجعاً موثوقاً.
- يبدو أن اللعنات التي صبَّها الكاهن بوربون شعراً على قاتل هنري الرابع قد أتاحت تعيينه أستاذاً للغة اليونانية في الكلية الملكية التي تحوَّلت فيما بعد إلى كوليج دو فرانس. وسيكون أول أستاذ من هذه المؤسسة يدخل إلى الأكاديمية الفرنسية، مستهلاً بذلك تقليداً دائماً، لا سيما في مقعده الذي استقبل من بعده خمسة أساتذة آخرين هم بيير فلورانس وكلود برنار وإرنست رونان وأندريه سيغفريد وكلود ليفي-ستروس. وهذا العدد استثنائي. فعلى سبيل المقارنة، بلغ مجموع عدد أساتذة الكوليج الذين دخلوا إلى الأكاديمية منذ تأسيسها خمسة وثلاثين أستاذاً، أي في المتوسط أقلّ من واحد لكل مقعد. ولذلك، شاءت صدفة الانتخابات أن يصبح المقعد التاسع والعشرون مقعد كوليج دو فرانس بامتياز في الأكاديمية الفرنسية.

٣ -عن فرانسواهنري سالومون دو فيرلاد (François–Henri Salomon de Virelade) (١٦٢٠-١٦٧٠).

- الهجوم الضاري الذي شنَّه جان لو رون دالامبير على ثالث شخص يشغل المقعد، وكذلك على ريشوليو نفسه، يرد في نص بعنوان في مديح «جان تيستو دو موروا» ضمن مجلد الأعمال الفلسفية والتاريخية والأدبية لدالامبير.
- الجملة التي قالها ريفارول عن ريشوليو وكورناي وردت في كلمة كتبت عام ١٧٨٤ بدعوة من أكاديمية برلين وهي بعنوان: في عالمية اللغة الفرنسية.
- فيما يتعلق بأصول أسرة سالومون: أود أن أتوجَّه بالشكر إلى بيار مارك الذي استفدتُ من سعة اطلاعه في مجال علم الأنساب؛ ولقد استفدتُ كذلك من أبحاث فرانسواز كروغ عن أسرة سالومون في القرن الثامن عشر، التي نشرتها الجمعية العلمية الألزاسية عام ١٩٧٩؛ ولقد صدرت ترجمة الاستبيان إلى الفرنسية لمؤلفه إرنست فون سالومون عن دار غاليمار للنشر عام ١٩٥٣.

٤ - عن فيليب كينو (Philippe Quinault) (١٦٣٥- ١٦٨٨)

- بين وفاة سالومون دو فيرلاد في بوردو ووصول النبأ إلى باريس وانتخاب كينو واستقباله الرسمي، انقضت ثلاثة أسابيع أي من ٢ إلى ٢٤ آذار ١٦٧٠. ومن غير الوارد إظهار مثل هذا الاستعجال في أيامنا. فالعادة تقتضي الانتظار سنة

كاملة بعد وفاة أحد الأعضاء قبل الشروع في اختيار خلفه. وفي بعض الأحيان، كانت المدة أقلّ، ثمانية أشهر على سبيل المثال؛ وفي الغالب كانت المدة أطول بقليل، خمسة عشر شهراً بل وسنتين. والمدة الفاصلة بين الانتخاب والاستقبال هي سنة في المتوسط بل أكثر من سنة بقليل في أغلب الأحيان. ولذلك، بين وفاة أحد الأعضاء واستقبال خلفه، قلما تنقضي فترة أقلّ من سنتين.

- أريد في هذا المقام توجيه تحية تقدير إلى نورمان بوفور الذي كان لا غنى لي عن مؤلفه المعنون كينو، كاتب نصوص لولي الأوبرالية، الصادر عام ٢٠٠٩ عن مركز فرساي للموسيقى الباروكية ومنشورات مارداغا في بروكسل، من أجل التعرف إلى رابع شخص يشغل هذا المقعد.
- في القرن التاسع عشر هناك اختصاصي مرموق آخر اسمه إتيان غرو يعتبر كتابه المعنون كينو، حياته، أعماله المرجع الموثوق حول الموضوع، والذي لا يزال من المفيد الرجوع إليه؛ وبفضل هذا المرجع، استطعت أن أتبين مقدار العداء الذي كان بوسويه وأرنو العظيم يضمرانه للشعر المزعوم بأنه «ماجن» الذي نظمه كاتب النصوص الأوبرالية.
- استقيتُ الفقرة التي تتناول المناخ السائد أثناء الخلاف بين أنصار غلوك ومؤيدي بيتشيني من دليل بعنوان سبل

الاستمتاع بباريس (How to Enjoy Paris) صادر في لندن عن منشورات بيتر هيرفي عام ١٨١٨.

٥ –عن فرانسوا دو كاليير (François de Callières) (١٦٤٥–١٧١٧).

- أصدر جان-كلود واكي عام ٢٠٠٥ عن منشورات رو دولم التابعة للمدرسة العليا للأساتذة كتاباً مميزاً بعنوان فرانسوا دو كاليير، فن التفاوض في فرنسا إبان عهد لويس الرابع عشر. ويقدِّم في هذا الكتاب حياة الشخص الخامس الذي شغل هذا المقعد بالإضافة إلى ما عرفه من شهرة بعد وفاته؛ ويرد في مرفق الكتاب النص الكامل للمؤلف الرئيسي لدو كاليير كما صدر عام ١٧١٦.
- ولقد صدر كتاب في فن التفاوض أيضاً عن مكتبة دروز، في جنيف، عام ٢٠٠٢، وتضمَّن توطئة مفيدة بما تقدمه من معلومات إلى حد كبير لمؤلفه آلان بيكار لومبورور وتوضح سبب وجود دو كاليير لفترة طويلة في «مطهر»، ولماذا كان يستحق أن يخرج منه.
- في ما يتعلق بالطريقة التي استطاع بها فرانسوا دو كاليير أن يساعد شقيقه لويس-هكتور على أن يصبح حاكم فرنسا الجديدة، يمكن الرجوع على شبكة الإنترنت إلى المقالة الممتازة لإيف ف. زولتفاني في معجم السير الكندية

(Dictionary of Canadian Biography)، منشورات عام ١٩٦٩.

٦ -عن أندريه-هرقل، كاردينال دو فلوري (André-Hercule, cardinal de Fleury) (١٦٥٣-١٧٤٣).

- اقتبستُ فقرة طويلة من الكلمة التي ألقاها دو فلوري بمناسبة استقباله في الأكاديمية. ولقد فعلت ذلك أيضاً بالنسبة إلى عدد من الأعضاء الذين خلفوه. وهذه النصوص متاحة في الموقع الشبكي للأكاديمية الفرنسية الذي استقيتُ منه معلومات قيِّمة طوال الفترة التي قمت فيها بأبحاثي. وأتوجَّه بجزيل الشكر إلى الأشخاص الذين أنشأوا هذا الموقع ويواظبون على تحسينه باستمرار.
- أعرب الرئيس السابق فاليري جيسكار ديستان عن رأيه بحكم الكاردينال دو فلوري في مقابلةٍ نشرتها أسبوعية لوبوان في أيار ٢٠١٤ بمناسبة الذكرى السنوية الأربعين لانتخابه رئيساً للجمهورية - وهي مقابلة أجراها فرانز-أوليفييه جيزبير ورومان غوبير.
- لا ترد في هذا الفصل مراجع ببليوغرافية كثيرة لأن هذه المراجع متوافرة بكثرة ويمكن العثور عليها بسهولة فائقة. ولقد تبين لي، سواء تعلق الأمر بالكاردينال نفسه أو بلويس الخامس عشر أو بفترة الوصاية أو بالحركة الماسونية، أن

هناك وفرة في المراجع، وكان يكفي أن أستقي منها ما أشاء؛ أما في ما يتعلق بأوائل الذين شغلوا هذا المقعد، فاقتضى الأمر المزيد من البحث والتنقيب قبل أن يتيسر لي جمع بعض المعلومات المفيدة عنهم...

٧ -عن بول دالبير، كاردينال دو لوين (Paul d'Albert, cardinal de Luynes) (١٧٠٣ - ١٧٨٨).

- لدى القيام بأبحاث عن سابع شخص شغل هذا المقعد، تسنى لي أن أقدِّر حق التقدير ما تمثله السيرة العالمية القديمة والحديثة التي نشرها لويس-غابرييل ميشو، شقيق الأكاديمي، من أداة بحث فريدة لمعرفة القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر. وغالباً ما رجعتُ إليها، ويسرُّني أن أعلم بأن مجمل طبعتيها الرئيسيتين - أي ١٣٠ مجلداً! - أصبح متاحاً على شبكة الإنترنت. لا شك أن لدينا وبمتناولنا، في الوقت الراهن، مصادر وفيرة، ولكن يبدو لي أن هذه السيرة تلقي إضاءة لا تضاهى.
- وفي هذه المرحلة من أبحاثي كذلك، تسنى لي أن أثمِّن مواصفات المؤرخ لدى شخص يحظى بالتقدير عموماً لأسباب أخرى وهو كوندورسي. فهذا الفيلسوف والعالم والمفكِّر السياسي الذي غالباً ما سبق أفكار عصره،

والشخصية التي شهدت مصيراً مأسوياً بما أنه قد قضى نحبه ضحية ثورة تمنَّاها بكل جوارحه، يمثل على أكثر من صعيد شخصية من أكثر الشخصيات الجذابة في هذه الحقبة العاصفة. ولقد تسنى لي خلال أبحاثي تثمين صفات المؤرخ لديه مثل أسلوبه الجزل، وملاحظاته السديدة، وحرصه على الدقة، واحترامه الآخرين حتى وإن كان لا يشاطرهم آراءهم إطلاقاً.

- لا يجب الخلط بين البارون دو غريم، وهو أديب ألماني يكتب بالفرنسية، كان يحرِّر المراسلات الأدبية والفلسفية والنقدية التي عرفنا من خلالها تفاصيل الزيارة الأخيرة لفولتير إلى باريس عام ١٧٧٩، والأخوين غريم، الكاتبين ومجمِّعي القصص الشهيرين.
- كرَّس أحد الوجهاء الماسونيين، واسمه لويس أميابل، كتاباً مفيداً للغاية لمحفل الأخوات التسع، وكان يشغل منصب رئيس بلدية الدائرة الخامسة في باريس. ونشر هذا الكتاب عام ١٨٩٧ بعنوان محفل ماسوني قبل عام ١٧٨٩. ولقد أتاحت جامعة أوتاوا النسخة التي رجعت إليها على شبكة الإنترنت.

٨ –عن جان-بيار كلاريس دو فلوريان (Jean-Pierre Claris de Florian) (١٧٥٥- ١٧٩٤).

- كان دوق دو بانتييفر، حفيد لويس الرابع عشر وحامي فلوريان، جد لويس- فيليب لأمه كذلك، وسيتولى لويس-فيليب الحكم من عام ١٨٣٠ إلى عام ١٨٤٨ ويحمل لقب «ملك الفرنسيين» عوضاً عن «ملك فرنسا».
- كان فولتير يهوى نسج الحكايات، على ما يبدو، حول أصوله. فلقد بدَّل تاريخ ميلاده، وكذلك مكان ميلاده، مؤكداً أنه قد أبصر النور في ٢٠ شباط ١٦٩٤ في شاتوني-مالابري فيما ترجع وثائق الأحوال الشخصية التي تخصه تاريخ ميلاده إلى تسعة أشهر لاحقاً، في ٢١ تشرين الثاني، وفي باريس. وكان يقول كذلك لأصدقائه إن والده الحقيقي لم يكن كاتب العدل آروي بل نبيلاً اسمه روكبرون.

٩ -عن جان-فرانسوا كايافا (Jean-François Cailhava) (١٧٣١-١٨١٣).

- لا يزال المكان المحدد الذي دفن فيه موليير مثار جدل، ولذلك فإن الرفات التي نُبشت عام ١٧٩٢ - وكذلك، بالتالي، الضرس الذي نزعه كايافا - قد تخصُّ شخصاً آخر؛ ويعتقد بعضهم أنها للافونتين...
- أود أن أعرب في هذا المقام عن خالص امتناني لألكسندر توم؛ فكتابه المعنون حياة وأعمال جان- فرانسوا كايافا الملقب بديستاندو الذي تكرَّم وأرسل لي مخطوطته كان لي مرجعاً

ثميناً. فبفضل هذا الكتاب، علمتُ بدور تاسع شخص يشغل المقعد في انتساب فولتير إلى المحفل الماسوني عام ١٧٧٨.

١٠ –عن جوزف ميشو (Joseph Michaud) (١٧٦٧– ١٨٣٩).

- يُعيد ذكر عاشر شخص شغل المقعد لدي ذكرى شخصية تطرَّقتُ إليها باقتضاب في توطئة هذا الكتاب. ففي عام ١٩٨١، كنت أجري أبحاثاً عن الحروب الصليبية، عاقداً العزم على أن أرويها مثلما قد تروى «من الطرف الآخر». ولهذه الغاية، كنت أمضي أياماً بحالها في المكتبات، وأجوبُ أيضاً المكتبات القديمة بحثاً عن كنز مدفون ما. وكنت بالفعل أنقِّب في رفوف مؤسسة استشراقية مرموقة في الحي اللاتيني، شارع موسيو لو برانس، عندما سألني صاحب المكتب، السيد صموئيليان، إذا كنت أعرف تاريخ الحروب الصليبية لميشو. كان قد اشترى نسخة نادرة تقع في سبعة مجلدات، خمسة للتاريخ في ذاته، واثنان لببليوغرافيا الحروب الصليبية. استهواني مظهر هذه المجلدات التي طبعت بين عامي ١٨١٩ و ١٨٢٢ المغطاة بغلاف من الجلد الأسمر المذهَّب، حتى قبل أن أتصفحها. وأصبحت حجر زاوية مكتبتي حين كنت أسعى لتأليف أول كتبي. ولاتزال هذه المجلَّدات بقربي، وأنا أخطُّ هذه السطور، بعد مضي ثلث قرن. لقد ذكرتُ مظهر المجلدات ولكن مضمونها هو

الذي سيشفي غليلي. فعلاوة على أن ميشو يكتب ببساطة وجزالة، تحدوه الرغبة الدائمة لإثارة اهتمام القارئ، فقد جمع في مؤلفه كميةً لا تصدق من الوثائق التي نسخها كلها بنصها الكامل. كما أن تأييده لمثل الحروب الصليبية، على نحو ما أشار سانت-بوف، لم يحمله إطلاقاً على تعديل مضمون المصادر، حتى وإن كانت تدين الصليبيين.

- الاسم الكامل لميشو هو جوزف-فرانسوا، وهكذا يرد اسمه في الكثير من النصوص التي خُصِّصت له. أما هو فكان يستعمل فقط اسم «جوزف» أو الحرف الأول من اسمه «ج» بل اسمه أحياناً دون ذكر اسم عائلته. وعلى هذا النحو، في المجلدات السبعة التي يتألف منها تاريخ الحروب الصليبية، المشار إليها في الحاشية السابقة، يرد اسمه دائماً بوصفه «السيد ميشو، من الأكاديمية الفرنسية» دون أن يظهر اسم عائلته ولا مرة واحدة.
- يرد في السيرة العالمية القديمة والحديثة أكبر قدر من التفاصيل عن قصة الهروب العجيب لميشو، بتخطيط من صديقه جيغيه الذي سيصبح ناشره لاحقاً.

١١ – عن بيار فلورانس (Pierre Flourens) (١٧٩٤ – ١٨٦٧).

- هذا الشخص الذي شغل المقعد التاسع والعشرين كانت لديه ثلاثة أسماء: ماري جان بيار، ما أدى أحياناً إلى بعض

اللبس. فالنصب التذكاري المخصَّص له في مسقط رأسه موربيان، قرب بيزييه، يدعوه «بيار جان ماري»؛ وبعض المراجع تشير إليه باسم «جان-بيار»؛ وكان هو يكتب ببساطة على غلاف كتبه «بيار».

- تستدعي ظروف انتخاب غريم فكتور هيجو خلال الاقتراع الذي أجري في ٢٠ شباط ١٨٤٠ بعض التوضيح. فحالياً، يجري التمييز بين الصوت الأبيض الذي يمثل امتناعاً عن التصويت و«الأبيض المعلَّم بصليب» الذي يعادل صوتاً معارضاً. وفيما مضى، وإلى أن عُدِّل النظام الداخلي عام ١٩٣٨، كانت كل ورقة اقتراع بيضاء تعتبر اعتراضاً على جميع المرشحين المتنافسين؛ ولذلك، إذا حصل مرشحان على ١٨ و ١٥ صوتاً، وكانت هناك ثلاث أوراق بيضاء، لا يُنتخب أحد. والأوراق البيضاء بالأمس و«الصلبان» اليوم هي ورثة الكرات البيضاء فيما مضى التي كانت تدلُّ في الأكاديمية - حتى عام ١٨١٦ - على رفض ترشيح أحدهم. ومن البديهي أن أصل فعل blackbouler (أي تنحية مرشح) يعود إلى هذه الممارسة التي كانت منتشرة في الماضي في النوادي الإنكليزية الخاصة.
- كانت أبحاث جورجيت لوجي التي توفيت عام ١٩٩٣ مفيدة بشكل خاص لفهم الإسهام العلمي لبيار فلورانس. ويمكن الاطلاع على عدد من مقالاتها على شبكة الإنترنت.

١٢ - عن كلود برنار (Claude Bernard) (١٨١٣ – ١٨٧٨).

- سُررتُ خلال الأبحاث التي قمت بها حين اكتشفت كتاباً من تأليف ماري-إيمي ماردويل عام ٢٠٠٦ يحمل عنوان كلود برنار، عالم فيزيولوجي من مواليد منطقة بوجوليه – أسرته، حياته، أعماله، وهو متاح على شبكة الإنترنت.

- نشرت جاكلين سونوليه مجموعة من الرسائل التي كتبها كلود برنار لصديقته ماري رافالوفيتش عام ١٩٧٤ بمساعدة مؤسسة ميريو، في طبعة أنيقة، بعنوان : رسائل إلى السيدة ر..

١٣ - عن إرنست رونان (Ernest Renan) (١٨٢٣-١٨٩٢).

- بما أن الشخص الثالث عشر الذي شغل هذا المقعد كان مشهوراً منذ منتصف القرن التاسع عشر عملياً، فالمؤلفات التي تتحدث عن حياته وأعماله والسجالات التي أثيرت حوله وتأثيره الفكري لا تعد ولا تحصى. ومن الباعث على الملل تعدادها كلها، غير أنني أريد الإشارة إلى مصدر استفدت منه كثيراً، وقلما نعثر عليه في القوائم البيبليوغرافية. ويتعلق الأمر بكاتالوج معرض خصَّصته المكتبة الفرنسية الوطنية لرونان عام ١٩٧٤. وكنت قد اشتريتُ هذا المجلَّد منذ سنوات دون أن أعلم كم سيكون ثميناً بالنسبة إلي في يوم من الأيام. ولقد عثرت فيه على رسالته إلى شقيقته هنرييت غداة زواجه، والتقرير الذي رفعه مدير كوليج دو

فرانس إلى وزير التعليم العام بشأن التشويش الذي عطَّل المحاضرة الافتتاحية لرونان، وكذلك الرسالة التي يعبِّر فيها نابوليون الثالث عن أسفه لما أُنزل به من عقاب.

- كتب أندريه جيد عام ١٩٣٦ في عـودة من الاتحاد السوفياتي: «لدى الألمان صورة ممتازة عبثاً أبحثُ عن معادل لها بالفرنسية للتعبير عما يتعذَّر عليّ قوله نوعاً ما: رمي الطفل مع ماء الحمام، أي بفعل عدم التبصر، وكذلك التسرع المبالغ...» وتلمِّح ملاحظته إلى أن هذا التعبير لم يكن مألوفاً لدى قرائه، وإنه قد اضطر لترجمته بنفسه.
- كانت كورنيلي شيفر، زوجة إرنست رونان، تنتمي إلى أسرة أصلها من هولندا، واشتهر عدد من أفرادها بوصفهم رسامين، لا سيما جان-باتيست وكورنيليا، وهما جدا السيدة رونان. وكان والدها هنري، ولا سيما عمها آري الأشهر في السلالة. ولقد سُمِّي ابن رونان آري تكريماً لهذا الأخير. وكان بدوره رساماً...

١٤ -عن بول-أمان شالميل-لاكور (Paul-Amand-Lacour) (١٨٢٧-١٨٩٦).

- تساءلتُ، أثناء الكتابة، إذا كان يجب أن أستعمل الاسم الكامل للشخص الرابع عشر الذي شغل المقعد أو صيغة مختصرة. ولدى قراءة التوطئة التي كتبها صديقه جوزف

رايناك للنسخة التي صدرت بعد وفاته من دراسات وتأملات شخص متشائم، أدركت أن التسمية التي يستعملها المقرَّبون هي شالميل بكل بساطة، وأنه من المقبول تماماً الاكتفاء بها.

- في معظم المعاجم التي تذكر اسم الشخص الرابع عشر الذي شغل هذا المقعد، يطلق عليه اسم ثان هو «أرمان». ومع ذلك، ففي أسرة شالميل التي كانت تعيش في نواحي أفرانيش، بمنطقة النورماندي، كان اسم «أمان» هو الشائع. وكان والد عضو الأكاديمية نفسه يدعى أمان-فيديل-كونستان، ما يكاد يشكل دعوة حقيقية. وإمعاناً في اللبس، أضاف موظف للأحوال الشخصية على سبيل الخطأ حرف «r» في بعض الوثائق المتعلقة بابنه. وحلَّ هذا الأخير المشكلة مكتفياً باستعمال اسم واحد هو بول. ولقد علمتُ بهذه الوقائع، وبوقائع أخرى من حياة شالميل، بفضل سيرة تقع في ثلاثة مجلدات نشرها أوجين غرولي بين عامي ١٩١٧ و ١٩٢٢، ومؤلف لفنسان رايت بعنوان المحافظون في عهد غامبيتا، صدر عام ٢٠٠٧ عن منشورات جامعة السوربون.

١٥ - عن غابرييل هانوتو (Gabriel Hanotaux) (١٨٥٣- ١٩٤٤).

- استفدت للغاية من التاريخ السياسي لقضية دريفوس،

وهو كتاب ممتاز لبرتران جولي صدر عن دار فايار للنشر عام ٢٠١٤، للإحاطة بدور الوزير عضو الأكاديمية الذي تعرَّض للنقد الشديد خلال هذه الأزمة.

- مذكرات غابرييل هانوتو التي تحمل عنوان عصري والصادرة عن دار بلون للنشر بين عامي ١٩٣٣ و ١٩٤٠ مثيرة جداً للاهتمام للاطلاع على المرحلة الأولى من حياته ولكنها مخيبة للآمال أو غير واردة اعتباراً من قضية دريفوس. ولقد بيع المجلد الأخير من مذكراته عند التحرير وكان يحمل شريطاً كتب عليه ما يلي: «كتاب حظَّرته الرقابة أثناء الاحتلال».

١٦ - عن أندريه سيغفريد (André Siegfried) (١٨٧٥-١٩٥٩).

- أطلق على بيت أسرة سيغفريد الواقع على مصبِّ نهر السين اسم «البوسفور» إشارة إلى حوار في مسرحية كازيمير دولافين المعنونة مدرسة المسنِّين تقول فيها إحدى الشخصيات: «أنت من كبار الملاكين، وكنت فيما مضى تملك سفناً، وكنت عاشقاً دائماً للهافر، حيث أبصرت النور، فهل كففتَ عن حبها؟» ويجيب محاورها: «بعد القسطنطينية، لا شيء يضاهي جمالها».
- العمل الذي يتيح التعرف إلى حياة عضو الأكاديمية على

أفضل وجه هو ذاك الذي خصَّصه لوالده جول سيغفريد وعنوانه ذكرياتي عن الجمهورية الثالثة.

١٧ –عن هنري دو مونترلان (Henry de Montherlant)(١٨٩٥ – ١٩٧٢).

- عدَّل مونترلان تاريخ ميلاده بالمقارنة مع التاريخ الوارد في سجلات القيد المدني بسنة واحدة ويوم واحد، فحدَّده بيوم ٢١ نيسان ١٨٩٦ بدلاً من ٢٠ نيسان ١٨٩٥، لأسباب تعزى جزئياً، فيما يبدو، إلى انبهاره بالدورات الشمسية.
- ترد الجملة عن سهولة تأليف المسرحيات في اليومية غير المجدية لبول موران. ويبدو أن مونترلان قالها لسكرتيره بيار بيسان–ماسنيه.
- الأعمال المخصَّصة لمونترلان كثيرة بالطبع. وأود فقط الإشارة إلى أنني اكتشفت الاحتجاز القصير الأمد برفقة جوهاندو لذاك الذي سيصبح عضواً في الأكاديمية بفضل جان -فرانسوا دومينجي، في كتابه مونترلان ناقداً؛ وعرفت الكثير عن شغفه بالحقبة الرومانية لدى قراءة كتاب مونترلان والعصور القديمة لبيار دوروازان، الصادر عن منشورات Les Belles Lettres عام ١٩٨٧؛ ولفت انتباهي كتاب همنغواي والأدباء الفرنسيون لبين ستولتزفوس الصادر عام ٢٠١٠ عن منشورات جامعة كنت في ولاية أوهايو إلى تأثير

مونترلان على الكاتب الأميركي في مجال مصارعة الثيران.

- يُعزى الجدل حول الحياة الشخصية لهنري دو مونترلان إلى كاتبين هما بيار سيبريو وروجيه بيرفيت عرفاه حق المعرفة، ولكنهما نشرا بعد وفاته أعمالاً اعتبرها المعجبون بالكاتب سيئة النية. ولقد كتب الأول سيرةً تقع في مجلدين بعنوان مونترلان بلا قناع، وكشف الثاني عن مراسلات مشتبه فيها تعود إلى السنوات ١٩٣٨-١٩٤١ وأرفقها بتعليقات.
- عبارة «صناديق العظام التي تقضُّ مضجع شبابي» الواردة في الكلمة التي ألقاها مونترلان بمناسبة استقباله في الأكاديمية هي تلميح إلى أنه كان يعمل في مقبرة دوومون غداة الحرب العالمية الأولى.

١٨ -عن كلود ليفي-ستروس (Claude Lévi–Strauss) (١٩٠٨-٢٠٠٩).

- بفضل السيرة الممتازة لليفي-ستروس التي ألَّفها إيمانويل لوابيه، والصادرة عن دار فلاماريون للنشر عام ٢٠١٥، علمنا أن أندريه سيغفريد كان له دور هام في فشل العالم الأنتروبولوجي في محاولته الثانية للالتحاق بكوليج دو فرانس. فلقد دعا الكاتب المرموق، صاحب الدراسة المعنونة المشهد السياسي في فرنسا الغربية، المكلَّل بسمعته بوصفه أستاذاً ذائع الصيت وعضواً في الأكاديمية

الفرنسية، زملاءه إلى التصويت لمرشَّح كان يقترح إنشاء كرسي مخصص «للتاريخ والبنية الاجتماعية لباريس وضاحيتها»، عوضاً عن كرسي مخصَّص «لعلم اجتماع الشعوب البدائية».

- صدرت المقالة المعنونة «العدُّ العكسي للأوهام» لروجيه كايوا على دفعتين في ما كان يدعى آنذاك، على نحو يثير الفضول، المجلة\الفرنسية\الجديدة\الحديثة (La Nouvelle Nouvelle Revue française) لتمييزها من المجلة الفرنسية الجديدة (La Nouvelle Revue française) التي كانت تصدر في ظلِّ الاحتلال. وستستعيد المجلة الفرنسية الجديدة اسمها بعد ذلك بفترة وجيزة.

صدر للمؤلف

الحروب الصليبية كما رآها العرب.

ليون الإفريقي.

سمرقند.

حدائق النور.

رحلة بالداسار.

صخرة طانيوس.

القرن الأول بعد بياتريس.

موانىء المشرق.

الحب عن بعد.

الهويات القاتلة.

بدايات.

الأم أدريانا.

اختلال العالم.

التائهون.

يسـرد أميـن معلـوف حيـاة ومغامرات الأشخاص الثمانية عشر الذين تعاقبوا على المقعـد التاسـع والعشريـن فـي الأكاديمية الفرنسية منذ عـام ١٦٣٤، فنستحضر معه بصـورة محسوسـة، مجسَّـدة، أربعة قرون من تاريـخ فرنسا. إنها «أسطـورة العصور» انطلاقاً من مقعد.

قضـى أول شخصـ شغـل هـذا المقعد غرقـاً في نهر السين، وانتحـر مونترلان في شقته المطلة علـى السين، ومقرُّ الأكاديمية نفسهـا يقع فـي محيط صغيـر على ضفاف السيـن، بين اللوفـر ورصيف كونتـي: إنها وحدة مـكان يتجلّى التاريـخ انطلاقاً منها بمراحله المتعاقبة.

سلطـة الملـوك والكرادلة، النبـلاء والمفاوضين، النفوذ المتعاظـم أو المتضائل للفلاسفـة والعلماء، تأثير الشعراء ومؤلفي نصوص الأوبـرا وكتّاب المسرح والرواية، وجوه متعددة للمجد تروي لنا حقباً مختلفة من تاريخ الأمة الفرنسية.

يلقـي هـذا الكتاب إضـاءة جديدة علـى الخلاف حـول مسرحية «السيـد» وإلغاء مرسوم نانت، وثورة الفروند والحركة الجنسينية، وطرد اليسوعيين ونشأة الماسونية، والثورة الفرنسية عام ١٧٨٩، وتمرد ١٢ فنديميير وانقلاب ١٨ بروميير، والإمبراطورية الفرنسيـة الثانية، وحـرب عـام ١٨٧٠، وكومونة باريـس، واختراع التخديـر والمآتم الوطنية، وقضية دريفوس، والحروب الكبرى في القرن العشرين...

انطلاقـاً من مقعد فحسب، من مكان ذاكرة هش ودافئ يطلُّ على ضفاف السين، يدعونا أمين معلوف إلى إعادة اكتشاف ديمومة «عبقريتنا الوطنية» وتحوُّلاتها.

لأميـن معلوف عدة أعمـال روائية من بينها ليون الأفريقـي، سمرقند، صخرة طانيوس (جائـزة غونكـور لعـام ١٩٩٣)، موانئ المشـرق، الهويات القاتلـة، بدايات، والتائهون. ولقد نال جائزة أمير أستورياس الإسبانية عن مجمل أعماله عام ٢٠١٠، وانتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية عام ٢٠١١.

ISBN-13: 978-614-432-598-8
9 786144 325988